إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثالث عشر

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر، عبدالعزيز بن عبدالله.
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر.
– ط١. – الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٦م.
مج ١٣ : ٤٣٢ ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مـج ١٣)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي – مجموعات. ٢ – الحكايات العربية.
٣ – السعودية – المقالات العربية.
أ ـ العنـــوان.

رقم الإيداع: ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك: ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مـج ١٣)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

هذا هو الجزء الثالث عشر من كتاب «إطلالة على التراث»، وفق الله ـ سبحانه وتعالى ـ فسهَّل إنجازه، ليأخذ مكانه مع الأجزاء الأخرى على رف المكتبة، وليؤدي الدور الذي أُمِّل أن تؤديَه أجزاء هذه السلسلة، وليحقق الغرض الذي رجي أن تحققه، وليصيب الأهداف التي نصبت أمامه.

وهذا الجزء ـ كما هو متوقع ـ وفي ضوء النهج المختط، سار على الطريق الذي سارت عليه الأجزاء السابقة، من خدمة التراث الإسلامي والعربي، بالدراسة والتمحيص، في حدود الجهد، والاجتهاد، وفي نطاق القدرة والطاقة. وبالموازنة عن طريق حصر المماثل في ذلك الزمن، أو الشبيه في هذا الزمن، مراعياً تقريب الأمر إلى ذهن الشباب اليوم، وتحبيبهم إليه، محاذراً الملل، وما قد ينفر القارئ، حريصاً على صور العفة والفضيلة، مبتعداً عن أقوال الفحش والرذيلة،

مما قد يكون دسّ بهدَف الهجاء، أو النيل من فريق معاصر، أو ممن أصبح طي حقب التاريخ، ممن تمادى القادح في النيل منه بالوضع والنحل والكذب والادعاء والتدليس، مظهراً تلك المجتمعات بما كانت عليه من الجد، أو الهزل البريء، مما جعل مجتمعها أهلاً لأن يدون عنه ما دون، ويسجل عنه ما أصبح يعطي صورة ضافية عما كان حادثاً فعلا، أو قابلاً أن يحدث، مما يدل على طريقة تفكير أهل ذلك الزمن في تدوين ما هو حقيق أو متخيل.

واختيرت المواضيع المختلفة متباعدة، تقفز بالقارئ على جناح طائر الفكر من روض من رياض التراث إلى روض آخر، باحثة عن زهرة في هذا، في كتاب ما إلى كتاب آخر، معطية فكرة عن اتساع الأفق في تراثنا وتنوعه، وهي تتلون في هذا التنقل من أمر مادي إلى أمر معنوي، أو من أمر يخص الفكر والذهن إلى أمر يخص القلب والروح والعاطفة، وفي هذا هزة للقارئ تخرجه من الرتابة، أو الدخول في لجة الملل، وغبة

الضّجر.

ولم يحكم ترتيب المواضيع في كل الأجزاء إلا وقت ولادتها، فهذه مقالة بدئت الفكرة فيها قبل أخرى، أو هذه نشر جزء منها في الصحيفة قبل غيرها؛ وفُضِّل هذا النهج عن جمع المتماثل في جزء واحد حتى لا يخرج الأمر عما خطط له، من مراعاة أن يأتي الأمر عفواً، ومن وحي الساعة، حتى يأخذ صفة حديث المجالس، لما لمس من نجاح هذا النهج في المجتمع؛ ولعل من أبرز ميزاته أنه يضمن عدم الملل، وأن تأتي الأفكار متوالية، بطريقة غير مقتسرة؛ وأن بإمكان المتحدث أن يتوقف متى رأى ذلك حسناً، أو أن يخرج من مسار سلكه إلى فرع منه، قد يؤدي به إلى مسلك رئيسٍ، إذا ما رأى لذلك قبولاً.

والتراث بحر خضم واسع وعميق، لا يضيق عن الدراسة مهما كانت غزيرة ومتشعبة، بل إن الدراسة للتراث كلما زادت انفتح للدارس منها أبواب وأبواب؛ والفكرة الواحدة قد توحي بأفكار؛ ولعل

العائق الوحيد أمام الباحث، أياً كان اتجاهه في بحثه، هو الوقت؛ والوقت ثوب شامر عندما يراد إلباسه لدراسة التراث؛ والدراسة ينهيها الدارس اليوم، ويظن أنه ألم بما يريد الإلمام به مما هو مهم في حقل من الحقول، فيفاجأ، بعد أيام قليلة من القراءة والتمعن، أنه اجتمع له من النصوص الجديدة مثل ما سبق أن اجتمع له، بل أكثر؛ ويجد بهذا أنه يتوجب عليه أن يكتب مقالاً يلحقه بالسابق؛ وقد يكون الملحق أضفى من الأصل، والمعلومات في هذا أوفى، وما استنتِج له أكثر متعة، وأكثر اجتذاباً، وأدعى للاستحسان؛ وما هذا إلا لوفاء التراث، ونقص الدراسة في عصرنا هذا، وقلة الدارسين.

وقد أدرك الكتاب والأدباء، منذ الأزمان الأولى، أهمية تدوين ما سبق زمنهم من أخبار وآداب، مما يعدونه من التراث القديم لهم؛ فكتبوا في هذا الكتبَ، وجمعوا المعلومات عن طريق روايات، وصنفوها إلى مواضيع وأبواباً، وبثوا فيها أراءهم، وضمنوها

أفكارهم، وهذا جعلهم رواداً مرموقين في هذه الحقول الزاهية؛ وما نحن في هذا الزمن إلا ملتقطوا فتات من موائدهم الزاخرة بما لذ وطاب.

ونصيب هذا الجزء من المواضيع جاء لامساً لبعض الأمور التي وجد أنها تستحق المعالجة والدراسة؛ فهناك العادات وانعكاس الحضارة عليها، ونصيب أمتنا من ذلك، والعادة تَصَرُّفٌ فيه مظهر يخفي خلفه مقياساً حضارياً، يمكن أن يُتَتَبَّعَ، فيعرف ما يكمن خلفه، مما أوجب تبلوره بهذه الصفة التي نراها، ونعمل بها؛ ومدى تأثير الأمم المجاورة فيه، وقبول المجتمع لبعضه ورفض بعضه؛ وتطور العادة مع الزمن، وما تلعبه في أخلاق الأمم؛ ودراسة العادات في ضوء الحضارات التي تحكمها تُرِي بعض الأمور الغريبة، أو الشاذة، لأبناء زمننا، ويحتاج الأمر لقبولها أخذها في إطارها التاريخي، حتى يتبين ما يكمن وراءها من مبرر، أو أصل مقبول، تطور عنه صورة أصبحت غير مقبولة؛

ويتبين عند دراسة العادات في هذا المجال مدى لعب الخرافة في بعض العادات، لانطلاقها منها، مما جعلها مقبولة رغم عدم تماشيها مع العقل أو المنطق؛ والعادات في هذا تلمس سير الناس، وأكلهم وشربهم، ونومهم ويقظتهم؛ وتلمس لباسهم وهيئتهم، وتربية أبنائهم، ومعاملة الزوجين أحدهما للآخر.

والتهاني ظاهرة تسود المجتمعات، ولها صفحة تتبين عليها تصرفات الناس عندما يستوجب الأمر التهاني، فالتهاني لها أوقات، ولها صيغ، ومن المتعة أن يدخل المرء روضها، فيجد البراعة والمقدرة على اختراع المعاني والإبداع فيها، والمقدرة على التردد فيها في نطاقها الضيق، وكأنه الأفق بسعته؛ والتهنئة تعكس ما في القلوب من صفاء، وما يحرص الناس على إظهاره في كلمات مضيئة، تليق بنبض القلب، وخفقه عند الفرح؛ وهي تختلف باختلاف المُهنِّي والمُهَنَّأ، فتهنئة بعرس، وتهنئة بختان، وتهنئة بعودة من سفر، وتهنئة بنجاح في دراسة؛ وهي تختلف،

فلها صفة بين الأقارب، ولها صفة من الأدنى إلى الأعلى، أو من الأعلى إلى الأدنى، ولها مظهر عندما تأتي من المحكوم إلى الحاكم؛ والتراث مليء بما يمتع في اختلاف الصيغ، واختلاف النظرات إلى هذا الفن الاجتماعي المتميز.

والقضاء أساس في حياة الناس، لأنهم عرضة للاختلاف في حياتهم الطويلة، وكان العلاج الناجع إيجاد من لا يتهم بالتحيز مع فريق ضد فريق، ومن تتوفر فيه الرزانة، والعقل والعلم، ليمكن أن يُطمأن لقدرته على تمييز الحق من الباطل، والخطأ من الصواب.

وفي تاريخ القضاء، وتطوره من صلح بدائي، إلى أمر منظم عن طريق الدين، طريق طويل، يجد السائر فيه ما يدهشه، حتى يصل إلى القضاء في زمنه؛ وتطوره كان يتبع تطور الناس، وحاجتهم، في ضوء ما تقتضيه الحوادث في زمنهم، حتى أصبح القضاء عنصراً مهماً من عناصر عناية الدول بشعوبها؛ ولعب دوراً أسَاساً في سعادتها أو شقائها، حسب

درجة القضاء من النزاهة، والحرص على العدل.

والخير وطرقه كثيرة، ومن تتبعها وجدها متوافرة في ثنايا حياة الأفراد في مجتمعاتهم؛ ويأتي في مقدمة الخير الالتجاء إلى الله، ودعائه في أن يمن بالنعم في الدنيا والآخرة؛ وفي مقالة «طلب الخير» تبدو عدة مظاهر لهذا، في مجالات مختلفة؛ والدعاء وهو طلب دون منه في التراث ما جاء على عدد من جوانبه، سواء كان ذلك في الاتجاه إلى الله، أو في الاستجابة إلى دعاء المخلص، سواء كان كبيراً أو صغيراً، غنياً أو فقيراً، وسواء جاء بكلمات مأثورة، وجمل رصينة، أو نطق به عامي يخاطب ربه بقلبه، أكثر من الكلمات الساذجة التي تأتي على لسانه. وإذا كان الدعاء يأتي بهذه الصور، فإنه يأتي بصور شعرية جذابة خاصة إذا كان في الأمر استجداء لذي نعمة من فقير بائس، فيكون الشعر بما فيه من سحر وسيلة ناجحة.

والإسلام دين أنعم الله به على من هداه الله ووفقه إلى قبوله، ومعرفة فضائله؛ ولهذا جاء كاملاً متقناً.

فانعكس ضياؤه حضارة إسلامية منيرة؛ ومن أبرز مظاهرها الحضارية الحث على العلم، والارتواء من ينابيعه، لأنه نور يضيء جوانب العقل، فيعرف الإنسان الصحيح من الخطأ، ويميز بين العدل والظلم، وتكون لديه القدرة أن يجعل من نفسه إنساناً صالحاً ينفع وطنه ومواطنيه، فلا يكون عبئاً عليهم، أو عنصراً مؤذياً مقلقاً. وقد تكلم المقال عن عدة جوانب من حضارة الإسلام، منطلقاً من بعض ما سجل من آثار وقصص.

والفكر الذي يهدي الإنسان إلى ما فيه الخير والرشاد، عندما يكون هذا الفكر سليماً، مغذًى بغذاء منتقى ملائم، له حظه الوافي من مواضيع هذا الجزء، وفي هذا المقال كَشْفٌ لآثار العقل إذا كان ناضجاً، وما يأتي منه، وما يحدث عندما ينقص نضجه، وتقل كفايته، ومدى قدرته على التمييز بين جيد الأمر ورديئه، للتملي من الجيد، والنفرة من الرديء، وقد اختيرت الأمثلة لتشمل جوانب

مختلفة من كمال العقل أو نقصه، وفي بعضها طرافة، تخفي تحتها حكمة، من السهل معرفتها، والاستفادة منها.

وللأقوال إشعاع، ولها ظلمة، فما كان منها مشعاً عاد على قائله بالخير العميم، وما كان مظلماً عاد بالشقاء على قائله؛ وهذه قسمة عادلة.

والأقوال، مشعة أو مظلمة، لها جوانب مختلفة، وتأتي بصيغ متباينة، ولاشك أن خلفها عقلاً يمليها، وتتأثر به، وتأتي النتائج في ضوء ما يمليه؛ وهناك أقوال تعورف على أنها منيرة وهي الحكم، وبعض الأمثال، والأقوال المأثورة؛ واللغة العربية خير لغة يستطيع المرء أن يتحدث عن ما يقال بها، فهي أداة حضارة متميزة، والقول فيها طرح دوحتها، وابن بجدتها.

وقد أُفرد للأقوال، ببعض مظاهرها، مقال متوحد، نثرت فيه هنا وهناك، أراء استمدت من التراث المليء بما يثري القول، ويمتع النفس،

ويغذي الفكر؛ وبعض هذه الأقوال جاء بدءاً، وبعضها جاء رداً على قول استحق الرد الذي رد به .

وهذه لمحة سريعة عما احتواه هذا الجزء؛ ومواضيعه، كما نرى، متباينة، ومتنوعة، والأمل أن تعطي الفائدة المرجوة، وأن يؤدي النهج الهدف منه، في سعة الفائدة، والبعد عن الملل .

والله الموفق . .

عبدالعزيز الخويطر

العزاء وشُعَبُه[1]

العزاء عند الناس يقترن بمواساة أهل المتوفَّى في العادة، وفي الأغلب؛ والعزاء له مظاهر، مثل العادات، بل هي جزء منها، وشعبة من شعبها، تختلف باختلاف الشعوب، ومللهم، ونحلهم؛ وفي الدين الواحد قد يتساوى الناس في مظهر العزاء، في بعض نواحيه، ويختلفون في نواح أخرى؛ فأناس يكتفون بالعزاء وقت الدفن، ينتظرون حتى ينتهي، فيقف أهل المتوفَّى صفاً، الأكبر فالأكبر، والأقرب فالأقرب؛ وقد ورد في بعض العصور أن بعض من يعرف الميت يقف على قبره، فيؤبنه بكلمات يدعو له في نهايتها، بعد أن يعدد حسناته، وما سوف يتركه فقده، لدى أهله، وبلده؛ وقد تلقى قصائد رثاء.

وبعض الناس يأتي للعزاء في البيت، وهذا هو الأغلب، وفي هذا يختلف الناس أيضاً، بعض يكتفي

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٤٧) في ١٣/ ٥/ ١٤١٦هـ الموافق: ٧/ ١٠/ ١٩٩٥م.

باستقبال الناس في بيته، يأتي الناس أفراداً، يعزون، ثم يغادرون، وآخرون ينصبون «صيوانا»، يستقبلون فيه الناس، خارج بيوتهم، وفي جوارها، ولو اضطروا إلى سد الشارع، ويأتي الناس، ويتجمعون، والقارئ يقرأ القرآن، فإذا توقف في مرحلة من المراحل، قام الناس يعزون أهل الميت، الذين أيضاً قد اصطفوا على جانب من المكان.

وقد استحدث في الزمن المتأخر تقديم القهوة للقادمين للتعزية، وفي بعض المناطق يوافي الأقربون أهل الميت بأكلهم لمدة ثلاثة أيام على الأقل، وفي بعضها يقوم أهل الميت بإعداد الطعام، وفي هذا تفاوت يميز منطقة عن منطقة.

هذه شعبة من شعب العزاء، وليست أهم شعبة فيه، وليست هي الأساس في كتابة هذا المقال، والأساس هو التعزية في أمور أخرى؛ فأنت تتعزى عندما ترى شخصا يعاني مثل ما تعاني منه، أو أشد، فمن يعاني من روماتزم، يتعزى عندما يرى مثله،

ومن يعاني من نقص الذاكرة، تخف معاناته عندما يقابل من يشكو من مثل شكواه، ومن تعرض لأذى في صحراء، أو في مقطعة، أو هوجم من قبل لصوص، فأخذوا ما معه، وسمع من غيره ممن تعرض لموقف مماثل، ودفع حياته ثمناً، يتعزى، لأن المال يمكن أن يعوض، أما الحياة فلا تُعَوَّض.

لهذا يعمد المعزون إلى تخفيف المصاب أياً كان بالمقارنة بين ما حدث، وما كان يمكن أن يحدث، ويحمدون الله في كل أمر جلل، مهما كبر، على أن الله لطف، فلم ينزل بهم ما هو أشد منه؛ وفي هذا أمل في أن يقتنع المنكوب، أو المصاب، بما يقوله المعزي.

والشعر، وهو أجمل وسائل التعبير، كثيراً ما يتخذ وسيلة للعزاء، مما جعل الرثاء يصبح غرضاً منفرداً من أغراض الشعر، بل من أهم أغراضه، وقد برز فيه شعراء عرفوا بقدرتهم فيه، مما جعلهم يأتون بالقول المؤثر، والصور المبتدعة، الناطقة.

ومن الصور الناطقة، التي أجاد الشعر فيها العزاء،

الأبيات الآتية، لابن الرومي في الشيب؛ والشيب علامة الشباب المفقود، والشباب غال، وفقده عظيم، والتعزي من أجل ذلك لا يستغرب، ومن تعزى بفقد الشباب فهو معذور، لأن الشيوخ يشعرون بمثل شعور المتعزي، والشباب يعرفون أن يومهم آت، وأن المشيب في ساقتهم، قد سل سيفه، وهو في أثرهم، ولابد أن يدركهم، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وضع للكون نظاماً لا يختل، ومن نظامه أن كل شاب، إن طال به الزمن سوف يشيب، وأن:

كُلُّ ابنِ أنْثَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ
يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحمُول

«يقول ابن الرومي في الشيب:

يَـا شَبَـابِـي وَأَيـنَ مِنِّـي شَبَـابِـي
آذَنَتْنِـي أَيَّـامُـه بـاقتِضَـاب
لهْفَ نَفْسِي عَلَى نَعِيْمِي وَلَهْوِي
تَحْـتَ أَفْنَـانِـهِ اللِّـدانِ الـرِّطَـابِ

وَمُعَــزٍّ عَــنِ الشَّبَــابِ مُــؤَسٍّ

بِمَشِيْـبِ الأَتْـرابِ وَالأَصْحَـابِ

قُلْــتُ لَمَّــا انْتَحَــى يَعُــدُّ أَسَــاةً

مِــنْ مُصَــابِ شَبَــابُــهُ فَمُصَــابِ

لَيْسَ تَأْسُو كُلُومُ غَيْرِي كُلُومِي

مَـا بِـهِ مَـا بِـهِ وَمَـا بِـيَ مَـابِـي»[(١)]

ابن الرومي معروف عنه التشاؤم، وهو فيه مضرب المثل، ولهذا فمعزيه قد يزيده غما على غمه، وهما على همه، فنظرته على هذا تختلف عن نظرة غيره إلى العزاء؛ فالعزاء يذكر بألمه، ويؤكد سبب شكواه، لهذا لم يتأسّ بمشيب غيره، ورأى أن هذا يؤكد قرب أجله، وابن الرومي لا يقف عند عيوب المشيب، وفقد ميزات الشباب، وإنما، لتشاؤمه، يقفز ذهنه إلى الموت.

وقصائد الرثاء تكاد لا تحصى، وفيها من الإبداع ما لا يحصر، وفيها من التفنن في تلمس سبل التعزية

(١) الكشكول: ١/ ٩٨.

ما يقصر عنه الوصف، وقد تجمع من هذا جمع كبير من القصائد والأبيات؛ وكل عصر تزيد فيه القصائد، وتتراكم الأبيات؛ وبعض ما يقال يهز الإنسان، لما فيه من عاطفة صادقة، وصور مؤثرة؛ وبعضه نَظْم أوحت به اللحظة، واستدعته الحادثة؛ ويتوقف الأمر في قوة الشعر، وتأثيره، على مدى شعور الشاعر بالألم من فقد عزيز، أو فراق حبيب، وبعض الشعر يأتي رزينا، يعمد إلى المنطق، والواقع، فيتخذهما وسيلة إلى المعزَّى؛ لأنهما في نظر المعزِّى أمران قد يغيبان عن ذهن المنكوب، ويحجبان بالصدمة عن فكر المصاب، وقد يأتي هذا الأسلوب من المقترب من الموت، فيُخاطب بالمنطق أقرباءه، إيماناً منه بأنه يهيؤهم للعاصفة المقبلة، قبل أن تقع، اعتقاداً منه أن هذا الوقت خير وقت لمخاطبة العقول، قبل أن تجيش العاطفة، فتعمى البصيرة من هول الحادثة، ويشل الفكر، فرجل مثل «لبيد» ذلك الشاعر المعروف، وهو الذي مل الحياة، ويقال أنه بلغ من

العمر مئة وخمساً وأربعين سنة، فقال:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا
وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيْدُ

ولابد أن ابنتيه كبيرتا السن، ويمضي منهما المنطق، وما ذكره والدهما في عزائه لهما عند احتضاره؛ إذ أن ما قاله حقائق لا غبار عليها، تقطع على المرء حجته في أن ما جرى هو أمر واقع، ولازم، ولا مناص للمرء عنه، رضي بذلك، أو سخط، وليس بيد أحد أن يقف في طريقه، أو يغير مجرى سيره، وليس هناك إلا التسليم، ودمع العين، وحزن القلب.

«يقول لبيد مخاطباً ابنتيه:

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيْشَ أَبُوهُمَا
وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِنْ رَبِيْعَةَ أَوْ مُضَرْ

فَقُومَا وَقُولاَ بِالَّذِي تَعْلَمَانِهِ
وَلاَ تَخْمِشَا وَجْهاً وَلاَ تَحْلِقَا شَعَرْ

وَقُولاَ هُوَ المَرْءُ الَّذِي لاَ صَدِيقَهُ
أَضَاعَ وَلاَ خَانَ الخَلِيلَ وَلاَ غَدَرْ

إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيكُمَا
وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ»[1]

هذا ما قاله أب لابنتيه تعزية لهما به قبل موته، وهناك تعزٍّ من ابنة بأبيها بعد وفاته، ولبيد قال تعزيته شعراً، وهذه جاءت النفثة فيها نثراً، ولكنها حارة حرارة الشعر، ويبردها العقل الرصين، والدين القوي، والعاطفة المخزومة؛ وفي هذا كله استعاضة بالله عن الوالد؛ ونعم الفعل أن يستعين المرء بالله عما فقد، فهو المعطي، وهو الآخذ، وهو الواهب، وهو المسترد؛ هو صاحب الحق، يفعل بحقه ما يشاء، والمرء لا يعدو أن يكون مستعيراً لما يقتني، ولصاحب الحق أن يستعيد ما أعار، متى شاء، ويقبض ما منح إذا أراد.

ونعم التأسي أن يأتي من التفكير برسول الله ﷺ وباحتسابه فيما فقد، وصبره على ما أخذ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولو كان أحد يستثنى من قوانين الكون

(١) الكشكول: ١/ ٣٩.

الثابتة التي وضعها الله لعمارَتِه وبقائه إلى أن يشاء الله إنهاءه، لاستثني هو ﷺ، ومجرد استحضار المرء لرسول الله ﷺ في الذهن، عند نزول المصيبة، دليل على الإِيمان القوي بالله، وبما جاء به رسوله ﷺ.

ثم رفعت هذه البُنَيَّة يديها إلى ربها، تعظمه، وتوقره، وتقدسه، وتقر بقدرته، وبما له من فضل على عباده، وبما بهم من حاجة إلى ما في يده من عوض، ومن عفو ورضى، وعطف ورحمة؛ ثم استنزلت رحمته، ورضوانه، على والدها المحتاج إلى ذلك، وقد انتقل إلى رحمة الله وعفوه. وهذا ما قالته في ذلك، تأبينا لأبيها:

«وقفت أعرابية على قبر أبيها، وقالت:

يا أبت، إن في الله عوضاً عن فقدك، وفي رسول الله ﷺ أسوة في مصيبتك، ثم قالت:

اللهم نَزَل بك عبدك، خالياً، مقفراً من الزاد، محسوس (محرق) المهاد، غنياً عما في أيدي العباد، فقيراً إلى ما في يديك يا جواد؛ وأنت، أي رب،

خير من نزل به المؤملون، واستغنى بفضله المقلون، وولج في وسع رحمته المذنبون؛ اللهم فليكن قِرى عبدك منك رحمتك، ومهاده جنّتك، ثم بكت، وانصرفت» .[1]

ويدخل الشرط في التعزية أحياناً، ليزيد في الإقناع، ويؤثر التأثير المراد، مثلما ورد في هذا المعنى :

«قال عبدالوهاب الثقفي :

أتانى ابن جريج بمكة يعزيني عن بعض أهلي، فقال :

إنه من لم يسل أهله إيماناً واحتساباً سلا كما تسلو البهائم» .[2]

إن لم يكن السلو مبنياً على الإيمان بالله، وبالقدر خيره وشره، واحتساب الصبر والتحمل، فإنه لا يختلف عن سلو الحيوانات، ويصبح الأمر أمر وقت،

---

(١) الكشكول : ١/ ٧٣ .

(٢) قال الشاعر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْلُ اصْطِبَاراً وَحِسْبَةً سلَوْتَ عَلَى الأَيَّامِ مِثْلَ البَهَائِمِ

عيون الأخبار : ٣/ ٦٧، عيون الأخبار : ٣/ ٦٠ .

وبقدر ما يمر منه يبهت الحدث، ويحدث النسيان.

وعلى هذا الأساس الديني، والتذكير بالله، تأتي التعزية من كبار القوم، ومن المفكرين، وتأتي لائقة بمقامهم، وعقلهم، ففيها من الحجة، والبرهان، ما يدل على صفاء عقل، وقدرة على ابتداع المعاني، ورسم الصور، ومن هذه التعزية الآتية:

«كتب إبراهيم بن يحيى الأسلمي إلى المهدي، يعزيه عن ابنته:

أما بعد:

فإن أحق من عرف حق الله فيما أخذ منه مَنْ عظّم حق الله عليه فيما أبقى له؛ واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي بعدك، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم عليهم من النعمة فيما يعافون منه». [1]

إذاً الفرح فيما بقي من نعم الله مقدم على الحزن على ما ذهب منها؛ لأن التركيز ينصرف إلى أن الله ـ سبحانه ـ لم يأخذ كل ما لدى المرء، وما أخذ يُنسى

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٠.

عندما أبقى. واحتساب ما مر، وذهب من الدنيا، يبقى ذخراً في الآخرة، ولقد ذهب بعض المعزين إلى أبعد من هذا، فهنأ على الفقد ولم يعز عليه، وقوله جاء كمايلي:

«قال سهل بن هارون:

«التهنئة على آجل الثواب، أولى من التعزية على عاجل المصيبة» .[1]

والحِكَم، سواء كانت شعرية أو نثرية، تأتي أحياناً مفيدة عند التعزية، لأنها تحمل روحها، وتؤدي غرضها، ويمكن أن يستغنى بها لكمالها، ولحسن أدائها للمقصود، ووفائها به، مثل بيت الشعر الآتي:

كَمْ مِنْ يَدٍ لاَ يُسْتَقَلّ بِشُكْرِها
لِلَّهِ فِيْ ظِلِّ المَكَارِهِ كَامِنَهْ[2]

وأسنان الإنسان عزيزة عليه، غالية عنده، لأنها

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦١.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٦١.

ذات فائدتين له، أحداهما أنها طواحين للطعام، والثانية تزين مظهر الإنسان؛ وسقوط الأسنان، دون حدث، نذير بالكبر، وهو ما ينفر منه البشر. ومعاوية خليفة، ويهمه مظهره أمام الصديق والعدو، ولهذا فسقوط أسنانه مؤلم له، لأنه يذكره بفقد الميزات التي ذكرناها، ولهذا فهو في حاجة إلى تعزية تسليه عن حزنه بسببها، وقد جاءته التسلية من جليس عاقل، عرف كيف يدخل إلى نفسه، فيشيع فيها بذرة الطمأنينة، ويخفف من وقع الألم عليه، والقصة كمايلي:

«سقطت مقاديم فم معاوية، فشق ذلك عليه، فقال له يزيد بن معمر السلمي:

والله يا أمير المؤمنين، ما بلغ أحد سنك إلا أبغض بعضه بعضاً، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك».[1]

ولقد أجاد يزيد المدخل، وأحسن رسم الصورة، فقد أبرز فيها ما بقي من نعمة الله على معاوية، وصغر

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦١.

بجانبها ما فقده معاوية، وهذه الصورة سوف تبرز أمام عين معاوية كلما فكّر فيما فقد، وسرعان ما ينتقل فكره إلى ما بقي له من نعم الله، وهي نعم جلّ، عند المقارنة سوف بلا شك ترجح على ما فقد، وتنسيه إياه، يساعد على ذلك مرور الزمن، وتعود المرء على ما أصبح فيه.

ـ[1] وهذه الصور من التعزية تسير على نهج واحد، ونغمتها واحدة، تعالج الحزن، أو الفقد، بالاستعانة بالله على الصبر والاحتساب، مع تفنن في اللفظ، وإبداع في المعاني، وتلمس أسباب التأثير الهادئ، بالتذكير بما قد يكون غاب عن البالِ، أما أن يأتي العزاء وفيه شيء من العنف، أو التوبيخ، فهو أمر نادر، وملفت للنظر، وإن كان هدف صاحبه خيّر، ونيته سليمة، إلا أنه مخالف للمتوقع، ومجانب للمتعارف عليه من القول في هذا المقال، وهذا نموذج لذلك:

---

(١) بدء الجزء المضاف لما نشر في صحيفة «عكاظ».

قال صالح المرّي لرجل يعزّيه :

إن لم تكن مصيبتك أحدثت في نفسك موعظة، فمصيبتك بنفسك أعظم» .[1]

ونظمه شاعر بقوله :

إِنْ يَكُـنْ مَـا بِـهِ أُصِبْـتَ جَلِيْـلاً
فَلَفَقْــدُ العَــزَاءِ فِيْــهِ أَجَــلُّ[2]

والقوة في التعزية قد تأتي من منطلق قوة، عندما تعتمد على جانب ديني، وهي منزلة بين منزلتين، فلا هي برقة التعازي المتعارف عليها، ولا هي بعنف تعزية صالح المري، ومن الأمثلة على ذلك :

«عزّى شبيب بن شيبة المهديّ عن بانوقة (ابنة المهدي)، فقال :

يا أمير المؤمنين، ما عند الله خير لها مما عندك، وثواب الله خير لك منها» .[3]

---

(١) عيون الأخبار : ٣/ ٠٠ .

(٢) عيون الأخبار : ٣/ ٦١ .

(٣) عيون الأخبار : ٣/ ٦١ .

وتختلط المعاني، وتتداخل الأفكار، وتظهر النظرة نحو المفقود، فتختلف إن كانت أنثى، عما إذا كان رجلاً، أو أبناً، أو والداً، أو أماً، أو قريباً؛ وفي المرأة تأتي أفكار لا تأتي عندما يذكر الرجل، ولأن المرأة أقرب إلى جَرْح العِرض عن طريقها، وجد في هذا عند فقدها سبب، يُعتمد عليه عند التعزية، وهي التفاتة دقيقة ممن اختار هذه الفكرة.

عزّى رجل عبدالله بن طاهر عن ابنته، فقال:

أيها الأمير، مِمَّ تجزع؟

«المَوْتُ أَكْرَمُ نَزَّالٍ عَلَى الحُرَمِ». [1]

وفي هذا النهج قال آخر بلغة أوضح في المقصود:

وَلَمْ أَرَ نِعْمَةً شَمَلَتْ كَرِيْمًا
كَنِعْمَةِ عَوْرَةٍ سُتِرَتْ بِقَبْرِ [2]

ويقول العامة أحياناً:

«الله لاَ يَبْرُدْهَا بِأَحَرِّ مِنْهَا».

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٢.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٦٢.

وقال هذا من سبقهم إليه في التراث :

«عزى رجل رجلاً فقال :

لا أراك الله بعد هذه المصيبة ما ينسيكها» .[1]

ويأتي الإبداع في القول في التعزية، في هذه الصورة التي ابتكرها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ :

«عزّى أبو بكر عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ عن طفل أصيب به، فقال :

عوضك الله منه ما عوضه منك» .[2]

وهم أقرب الناس بتذكير من نزلت به المصيبة، وحل به الحزن، بالله، وبمآل الإنسان، ونهايته، وأن هذا طريق مسلوك، لا مناص للإنسان عنه، وأنه حوض لابد أن يرده، وأبلغ ما يأتي ذلك في الشعر، لأن تكراره في النثر يفقد جدّته، ويخرجه عن مجال الإبداع والابتكار، وفي مثل هذا عزى رجل عمر بن عبدالعزيز بالأبيات الآتية :

---

(١) عيون الأخبار : ٣/ ٦٢ .

(٢) عيون الأخبار : ٣/ ٦٢ .

تَعَــزَّ أَمِيْــرَ المُــؤْمِنِيْــنَ فَــإِنَّــهُ
لِمَا قَدْ تَرَى يُغْذَى الصَّغِيْرُ وَيُوْلَدُ
هَــلِ ابْنُــكَ إِلاَّ مِــنْ سُــلاَلَــةِ آدَمٍ
لِكُلٍّ عَلَى حَوْضِ المنيَّة مَوْرِدُ[1]

ومع هذا فهناك من عنده من الفصاحة ما يجعل القول جديداً، ومن البلاغة ما يجعل التعزية مؤثرة، ورغم أن المعاني هي المعاني المتعارف عليها، إلا أن الابتكار في النهج، والإبداع في الأسلوب، يجعلها تبدو جديدة، وتتعاون المعاني مع الأسلوب على انبهار المعزّى وهو يسمع قولاً يذكره بما قد يكون غفل عنه عند نزول المصيبة، وذهل عنه من هول الفاجعة، والقول الآتي فيه هذه الصفة:

«عزّى موسى بن المهدي سليمانَ بنَ أبي جعفر عن ابن له، فقال:

أيسرك، وهو بلية وفتنة، ويحزنك، وهو صلاة ورحمة». [2]

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٢.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٦٢.

قول موسى حق، وهو عين الصواب، ولكن من يضمن أن هذه الكلمات، ومعانيها، يبلغ صوتها أقصى سمع المصاب، وأن لا تكون العاطفة تسمعه صوتاً أعلى؛ خلق الله الناس، وأوجد فيهم عواطف، جعل في بعضها عمران الكون، وبقاءه، فعاطفة الأبوة جياشة، وهي واحدة من هذه العواطف، التي لا يطفئ لهب اشتعالها إذا ما تحركت، إلا ما هو أقوى منها من الغرائز، والطبائع.

وعلى هذا النسق، في مقارنة الفقد في الدنيا، والعوض عنه بالوجود في الآخرة، يأتي عزاء في هذا النص من رجل لموسى بن المهدي حيث خاطبه بقوله، وقد عزاه بابن له:

«كان لك من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات». [1]

والمسلم، مهما كان مصابه، يتوقع منه، عندما يذكر بما يقتضيه دينه، عند نزول المصاب، أن يتعظ،

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٣.

وينصاع، بقدر ما يستطيع؛ ولاشك أن هذه الأقوال تهزه هزات تخل بتركيزه على حزنه الممض، وهذا هدف من أهداف التعزية والمعزين؛ وقد يحتاج، عندما يتلاشى صدى صوت الموعظة، أن يعود إلى حزنه، ولكن تعدد خروجه من هذا الحيز عدة مرات فيه بلوغ للهدف.

وبعض الذين حباهم الله بفضيلة الإيمان القوي، سريعاً ما يقبضون على الجانب الديني، ويتمسكون به، إن ذُكُرّوا به، وقد يقودهم إيمانهم، في أول الأمر، إلى العظة والاعتبار، ويقابلون به من يعزي برضى؛ ولعلهم، وهم من أهل الخير خير من يقدر ذلك، وقد يكونون من قادة المجتمع، الذين يحرصون أن يكونوا قدوة لغيرهم، ممن حولهم، كما جاء من عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ حينما جاءته تعزية بأخيه، والنص كالآتي:

«توفي سهيل بن عبدالعزيز بن مروان، فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز بعض عماله، وأطنب في كتابه،

فكتب إليه عمر :

حَسْبِي حَيَاةُ اللهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ
وَحَسْبِي بَقَاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ هَالِكْ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللهَ عَنِّي رَاضِيًا
فَإِنَّ شِفَاءَ النَّفْسِ فِيْمَا هُنَالِكْ»(١)

ويوغل في الخطاب أحد الصلحاء، المعروفين بالزهد، والبعد عن الدنيا، ونصح الخلفاء والحكام، ويسهب القول مع هارون الرشيد، وهو الخليفة الذي طالما طلب منه أن يعظه، وكان يغلظ له في ذلك، وكان هارون الرشيد يصغي، ويتأثر تأثراً يرحمه من حوله، وقد وجد ابن السماك فرصة مواتية، عندما توفِّيَ ابن لهارون، فكتب إليه :

«أما بعد :

فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته، ولو سلم لم تسلم من فتنته؛ أرأيت حزنك

(١) عيون الأخبار : ٣/ ٦٣ .

على ذهابه، وتلهفك لفراقه! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك!

أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت أنت معلقاً بالخطر، واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت، وإنما هي واحدة إن صبرت، فلا تجمع الأمرين على نفسك». [1]

وعندما يتصدى من عرف بالكتابة، وبالفصاحة والبلاغة، للكتابة في أمر من الأمور، فهو لا يرضى إلا بما فيه الإبداع، وبما يليق به وبسمعته، وما عرف عنه في مجال الفكر والكتابة. وهذا عبدالله بن طاهر، وهو من ينطبق عليه الوصف؛ ومع هذا فإنه لم يتعد حقل الدين، والحث على الرضا والصبر، ويرجو الثواب بهما، مع الإشارة إلى ما قد يأتي من مخالفة ذلك؛ ولكنه امتاز بالأسلوب المبتدع، والمنهج المتماسك، وصرّف المعاني في هذا المجال تصريفاً حسناً، وجاء القول لائقاً به، وبالعزاء، وما كتبه

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٣.

جاء كمايلي:

«كتب عبدالله بن طاهر إلى أبي دلف:

المصائب حالّة لابد منها؛ فمنها ما يكون رحمة من الله، ولطفاً بعبده، وآية ذلك أن يوفقه الله للصبر، ويلهمه الرضى، ويبسط أمله فيما عنده من الثواب الآجل، والخَلَف العاجل؛ ومنها ما يكون سخطاً وانتقاماً، أوله حزن، وأوسطه قنوط، وآخره ندامة؛ وهي المصيبة حقاً، الجامعة لخسران الدنيا والآخرة.

ولم تزل عادة الله عندك الأخلافَ والإتلاف؛ وإن يك ما نالك الآن أعظم مما أتى عليك في مواضي الأيام، فالأجر المأمول على قدر ذلك». [١]

وهذا القول كتب به نبيل إلى نبيل، وجاء من كبير إلى كبير، وكلاً من الكاتب، والمكتوب له، من فطاحل رجال الفكر في زمنهما، المعروف عنهما بأنهما ممن يُحِسن القول، ويجيد الكتابة، والإبداع

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٣.

فيها؛ ولهذا فقد رد أبو دلف رداً موازياً لما جاءه من تعزية، مماثلاً له في قوة الفكر، وسلامة المنهج، وهذا هو رده:

وكتب أبو دلف إليه:

إن تكن المصيبة جلت، فإن فيما أكرمني الله به من جميل رأي الأمير، وما وضح للناس من فضل عنايته، وابتدائه إياي بكتبه، ما عجل العوض من المفقود». [1]

لقد اتخذ مواساة الأمير له مرتكزاً للتقوي على المصيبة، لأن تعزية الأمير رفعت قدره بين الناس، ومبادرته أعطته من الالتفات ما جعله يصرف ذهنه عن حزنه، إلى إضاءة السعادة التي جاءته من عناية الأمير؛ وعناية الأمير ضخمها أن التعزية جاءت كتابة، وبهذا فهي سوف تروى، وتدون، ويتناقلها الناس، وتزيد أهميتها بذلك، وبما سوف يفكر فيه الناس، من صرف الأمير جزءاً ثميناً من وقته، في

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٤.

التفكير في هذه المعاني المبتدعة وسبكها .

وهذا بلاشك شغل من ذهن أبي دلف حيزاً كبيراً، بدليل تأنقه في الرد على هذه الرسالة المسهبة، ولكن أبا دلف لم يطل في الرد، ولعله وجد أن هذا أنسب، لأن المتوقع أن ذهنه مرتبك بسبب هذا المصاب. ولهذا نجد رداً آخر له، قد يكون عن هذه المناسبة نفسها، أو مناسبة أخرى يقول فيه :

«لئن كانت المصيبة جلَّت، إن فيما أبقى الله ببقاء الأمير عوضاً وافياً، وخلفاً كافياً؛ وحقيق بمن عَظُمَت النعمة عليه، فيما أبقى الله، أن يَحْسُن عزاؤه عما أخذ منه؛ وأحق ما صبر عليه ما لا يستطاع دفعه» .[1]

والدهر يجرح وياسي كما يقولون، والمعنى أن المصائب تأتي مع مرور الزمن، وتذهب كذلك بمروره، تأتي حادّة قوية، ثم لاتزال تبهت قليلاً قليلاً، يوما بعد يوم، حتى لا يبقى منها إلا ذكرى، تصبح بها

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٤.

بعيدة في الذهن، لا تأتي إلا إذا استدعيت، واستدعاؤها لا يأتي إلا نادراً، عندما يأتي مُذكِّر بها من قول أو فعل.

وقد وردت نصوص تدل على السلو والعزاء عن المصاب، بعضه بمرور الوقت، وبعضه بالتسليم بالواقع، وبعضه بوحي من حقيقة الحياة، وما يأتي فيها من فقد وكسب، وهذه نماذج من ذلك:

«قيل لأعرابية مات ابنها:

ما أحسن عزاءك!

فقالت: إن فقدي إياه أمّنني من المصيبة» .[1]

في هذا القول مظهر نفس، عكس ما كان يثقل روح هذه المرأة بالخوف على ابنها من الموت، كان هذا كابوساً يقلقها، في كل لحظة من لحظات الخطر، تخشى عليه، إن غاب ألا يعود، وإن غزا أن يقتل، وإن ركب حصاناً أن يقع، وإن تشاجر مع أحد أن يأتيه من ذلك مكروه؛ كانت عينها تتابعه، وقلبها

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٥.

يخفق نحوه؛ هي قلقة عليه إن غاب أو حضر، وكان مصدرَ هم لها، ومحور غم، وعمود سقم، فلما مات ارتفع كل هذا؛ لقد جاء الذي كانت تخشاه، وليس وراء الخوف خوف!

وهذا الشعور صاغه شاعر في بيته الآتي:

«وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتَ وَحْدَهُ
فَلَمْ يَبْقَ لِيْ شَيْءٌ عَلَيْهِ أُحَاذِرُ»(١)

لقد كان الشاعر أبو نواس يخشى على الخليفة، محمد الأمين الموت، لأن هناك علامات تدل على ذلك، إن لم يكن منها ما قسم لكل حي، فالسياسة المضطربة في ذلك الوقت، لأنها تنذر بالموت للأمين؛ أما وقد مات فقد ارتفع الحذر.

والزمن بمروره على الحزين كفيل أن يمحو شدة الحزن، وتدريجاً ينسيه ما هو فيه من مصيبة، لأن الحزن يتباعد شيئاً فشيئاً من مقدمة الذهن إلى مؤخرته، وتبهت صورته، وتتلاشى ظواهر صفته،

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٥.

ويستمر في التقهقر، حتى يصبح ذاكرة قد تكون بعض جوانبها مناسبة للاستطراف والتفكه، مثل تذكر بعض التصرفات المنتقدة التي قد يكون ارتكبها الإِنسان وهو في قمة المحنة، وعقله ذاهب بسببها، وقد اضطربت مركبته، واختل توازن الذهن، فلم يعد يحكم تصرف صاحبه، وكان المقود في يد العاطفة الجارفة، وبلاء الحزن وانزواؤه يمثله في التراث البيت الآتي:

«وَكَمَا تَبْلَى وُجُوهٌ فِي الثَّرَى
فَكَذَا يَبْلَى عَلَيْهِنَّ الحَزَنْ»(١)

ومع الزمن تأتي أحياناً عوامل أخرى، وبعضها نادر الوقوع، ولكن، إذا صح ما يروى عنها، فلها من التأثير ما للزمن ومروره، وفي القصة القصيرة الآتية مثل لما قد يأتي في هذا الجانب، مما يلفت النظر، وهو، على ما يبدو ما أوجب تدوينها في التراث؛ والأصمعي هو الراوية، ويجب أن يؤخذ ما يروى

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٦.

على لسانه بحذر، لكثرة ما نسب إليه مما قد لا يكون صحيحاً، ولكن صلته الوثيقة بالبادية، وكثرة ما روى عن سكانها من أخبار طريفة، وأنباء غريبة، كثر نحله ما لم يقله؛ حتى كاد الناحلون، بكثرة ما يدّعونه له، يتسببون في التشكيك بالحقيق مما قال:

«قال الأصمعي:

مررت بأعرابية، وبين يديها فتى في السياق (يحتضر)، ثم رجعت، ورأيت في يدها قدحَ سويق تشربه، فقلت لها:

ما فعل الشاب؟

قالت: وارايناه.

فقلت: فما هذا السويق؟

فقالت:

عَلَى كُلِّ حَالٍ يَأْكُلُ القَوْمُ زَادَهُم
عَلَى البُؤْسِ والبَلْوَى وَفِي الحَدَثَانِ»[1]

وفي موقف آخر يُري القول انشغال المرء بحاجات

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٦.

أكله وشربه عن حزنه، فنجد القول على النحو التالي:

«قيل لأعرابي: كيف حزنك اليوم على ولدك؟
فقال: ما ترك حبُّ الغداء والعشاء لي حزنا». [1]

ويجتمع العقل والدين في رجل واحد وهو كفء لهذا، وَمَنْ غَيْرُ الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ يجتمع فيه هذان، وقد أنار الله بصيرته، وهدى عقله، وملأ صدره إيماناً، وقلبه يقيناً، فجاء قوله مضيئاً بنور الدين والتقوى، ومشعاً بثمرة التفكير المتأني الصائب فقال القول الآتي عن الجزع والصبر.

«قال عمر بن عبدالعزيز:
إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت فالْه عما أصابك». [2]

يجزع الإنسان عندما يرى مريضاً، تتدهور حالته، وتسوء صحته، فيثير الحزن منظره، ويحرك الشَّجَنَ

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٦.
(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٦٦.

مرضه، ويتألم من حوله لألمه، فيتناوب على أعصابه أمل ويأس، يتجاذبانه طوال الوقت، مما يهدّ ما صمد منه، ويضعف ما كان قوياً، فإذا ما وقعت الواقعة، وحدث المحذور، اختفى عامل الأمل، واستسلم المرء لليأس، يأخذ منه ما شاء، حتى يجد السلوى مدخلاً إلى نفسه، فيلهو بها عما هو فيه، كما رسم عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ.

ويرسم رجلُ تقوًى آخرَ الصورة نفسها عن هذا الأمر، فتأتي الصورة واضحة، وهذا قوله:

«اشتكى بعض أهل محمد بن علي بن الحسين، فجزع عليه، ثم أخبر بموته، فسري عنه؛ فقيل في ذلك، فقال:

ندعو الله فيما نحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما أحب» . (١)

هذا جانب من الجوانب المهمة في التعزية، كان كله عن الموت، وفقد عزيز؛ ولكن التعزية لا تقتصر

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٦٦.

على هذا، وإنما تأتي أحياناً في المال عند فقده، أو عند خسارة محدودة تقع فيه، وتأتي عن زرع يصاب بضرر، وحيوان ينفق، وأهم من هذا أن يعزي الإنسان نفسه بالتبصر في الحادث، والنظر إلى من أصيب بما هو أشد، فإذا قصر الإنسان عن أن يصل إلى هدف، تعزى في أن غيره قصر عما وصل إليه، فطالب شهادة أعلى يعجز عن الوصول إليها يقنع بما وصل إليه مما دونها، وهو ما لم يستطع جاهداً أن يصل إلى ما وصل إليه، فالقناعة فيها من التعزية شيء غير قليل، فهي طريق لدخول الطمأنينة إلى النفس، وهي خزام عن التمادي في أحلام اليقظة والأماني الخيالية.

وهذا الجانب يفتح أبواباً كثيرة، يجدها الإنسان تملأ حياته، بل تكاد تمر به كل يوم، فثوب مزقه مسمار، خير من أن يكون التمزيق في القدم، وحبر وقع على جانب خفي من الثوب خير من حبر يقع في الصدر أمام الناس، وهكذا الأمر يجري وما على المرء إلا أن يتنبه لهذه الأمثلة وسيرى العجب.

العادات والحضارة(١)

لكل أمة عادات وتقاليد، تتصف بها، وتعرف بها، نبعت من بيئتها، وتبلورت مع الزمن، بعد قرون وأزمان، والعادة كيان حي في المجتمع، يتطور مع مرور الوقت، ويتأثر بما يطرأ على المجتمع من أمور تستجد، وكل جيل يضيف أو ينقص.

الأمة التي تعيش على الساحل لها عادات تختص بها، قد لا تشاركها فيها أمة تسكن الجبال، أو الصحاري، أو الغابات؛ والعادة غالباً تكون انطباعاً من البيئة، ونوع المعيشة؛ وقد تختلف العادات في بعض المجالات، فتكون على صفة في الشتاء، تختلف عما هي عليه في الصيف؛ وفي السفر تختلف العادة عنها في الإقامة والحضر.

وتتسم العادات في المجتمعات البدائية، وفي البيئات الصعبة مثل الصحاري، ومواطن الجفاف،

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٥٤) في ٢٠/ ٥/ ١٤١٦هـ الموافق: ١٤/ ١٠/ ١٩٩٥م.

وشظف العيش، بالبساطة، وبخشونة المظهر، وعدم تشذيب العادة وتهذيبها، سواء كان ذلك في الأقوال، أو الأفعال؛ ففي الأقوال في هذه الأجواء الخشنة، والمجتمعات الجافة، لا تجد العبارات الرقيقة التي تجدها في البيئات المتحضرة؛ ومظهر هذه العبارات حسن اختيار الكلمات اللينة، وعدم القفز رأساً إلى الهدف، وإنما الوصول إليه عن طريق ملتو، يدور صاحب الموضوع حوله، ويأخذ جولة، ويصاحبها مع اختيار الكلمات، العبارات المعترضة، مثل الدعاء، بأن يقول: أود أن أوضح ـ حفظكم الله ـ أو ـ رعاكم الله ـ الأمر الفلاني، أو يعمد إلى عبارات تتسم باللباقة والأدب، فيقول أود أن أوضح ـ إذا سمحتم لي ـ الأمر الفلاني، بينما لا يهتم الفريق الآخر، بمثل هذه الأمور الجانبية، وكأن الوقت عنده أضيق من أن يضيعه فيها، ويعمد إلى التعبير عما أراده بأقصر العبارات، وأوضحها.

والمتحضر يحاسب حساباً دقيقاً على مراعاة

العبارات المنتقاة، وأي خروج عن اللياقة والأدب، يثير فيه زوبعة من الاحتجاج أو التأنيب، أو يصل الأمر، إذا كان بين أعلى وأدنى، إلى التأديب. فالغاضب أو المحتج يشعر أنه، مثلما يأخذه النصب في التحري والتحرز، في اختيار الكلمات، ورصف العبارات، على الآخرين أيضاً أن يتعبوا أنفسهم، وأن يكونوا في مستوى حضاري مناسب.

وقد تأتي عادة الكلام في الحاضرة في بدء الخطاب، بالكلمات المختارة التي تأتي ممهدة للجملة، مثل كلمة: يا سيدي، أو سيدي فلان؛ وحتى عند الإشارة إلى شخص ثالث، تجد بعضهم عندما يتحدث عن والده يقول: سيدي الوالد، قال كذا، أو فعل كذا. وقد وصل التأنق في عادة كتابة الخطابات إلى درجة تلفت النظر في زمننا هذا، ولا يستطيع المرء أمامها أن يوقف ابتسامة العجب، فهم يفتتحون الخطاب بقولهم:

«حضرة جناب المكرم العزيز الأفخم الأجل حميد

المكارم والشيم»، وليست هذه أطول عبارة، ولكنها من الصور المتوسطة في ذلك الزمن، وبلغ التأنق الحضاري، في بعض البيئات، أن الحرص على عدم الوصول إلى الهدف مباشرة دخل في الحديث الذي يدور بين الناس، في حديثهم المعتاد، وقد اعتاد أناس في بيئة معينة، أن يسمعوا من أحدهم قوله، عندما يتحدث عن أمر: «من جهة حالة مسألة» كذا؛ وهي أناقة متناهية في الكلام، أصبحت عادة متمكنة عند بعض الناس.

هذا نموذج مما يأتي مُعتاداً عليه في الأقوال، والأفعال، دخلها هذا التأنق، وهو مظهر حضاري، فيه أحياناً راحة لمن يقوم به، فالرجل يرغب في زيارتك، يرسل لك من يتحرى الوقت الأمثل لهذه الزيارة، وبعد أن دخلت الوسائل الحديثة استفاد الناس من الهاتف يسرون عن طريقه رغبتهم في الزيارة، وتحري الوقت الملائم لها. ولكن لا يزال أناس لم يصل التشذيب الحضاري إلى عاداتهم،

فتجد أحدهم يقرع باب بيتك في أي وقت يشاء، فهو الذي يختار الوقت، حسب ما يطرأ له، أو يريحه، وقد يغضب غضباً شديداً إذا لم تستجب، وتفتح له الأبواب، وقد يقل غضبه بعض الشيء إذا لم يجدك، ولكنه حتماً لا يحمل نفسه اللوم، وإنما يحملك أنت، لأن حظك لم يسعدك أن تكون في البيت! أو يقول بلهجة تأنيب: «جئت فلم أجدك، وضاع تعبي».

وأقوال هؤلاء الذين لم تصل إليهم الحضارة بعد، تشبه أفعالهم، فهي تأتي مثل الجلاميد، تصك الآذان، أحياناً، ولكنها مختصرة؛ أو مطولة، تأتي في صلب الموضوع. فهو لا يقول: حضرتك، وهو يخاطبك، ولا يقول: إذا سمحت أو، أذنت، بل يعمد إلى المخاطبة المجردة، فيقول: أنت، أو، أبوك، أو، أمك.

وتأتي مرحلة بين المرحلتين، فتجد الشخص يستأذنك في المجيء، فإذا اعتذرت، أخذ يناقش عذرك، ويحاول أن يثنيك عن العذر الذي أبديته،

ويقنعك بقبول ما اقترحه، ورأيه، في الحقيقة، لم يعد اقتراحاً، وإنما هو أمر. ويضيف إلى هذا طول الوقت الذي يقضيه، فهو قد سلك الطريق السليم في الاستئذان في المجيء، ولكنه عاد لخشونته المعتادة، فقعد مدة أطول مما يحتمل. ولا تنفع معه إشارة عن الضيق، من طول المدة التي قضاها؛ وقد تلمح له بأنك مرتبط بموعد، ولكنه يعتقد بأنك مخطئ في هذا الارتباط، فمادمت قد سمحت له بالمجيء، فعليك أن تعطيه الوقت الذي يريده هو؛ لك أول الأمر، وله آخره. وينسى أنه عندما كلمك، وأردت أن تعتذر له، أكد لك أنه لن يبقى إلا دقائق معلومة، ولم يكذب، فعشر الدقائق معلومة، وخمس مئة الدقيقة معلومة أيضاً، إلا إن العشر معلومات منذ البدء، وخمس المئة لم تعرف إلا بعد أن مرت؛ ومع هذا فقد يدفع لك مقابل هذا التعطيل والتأخير أجرة مجزية، عندما يقول لك: آسف أرجو ألا أكون قد أخرتك عن شيء مهم، أو عفواً، لقد أخذني الحديث،

وكرم أخلاقك، وحسن استماعك، أنساني نفسي، ويأخذ في الاعتذار، وضرب الأمثال، وأنتما واقفان عند الباب، يودع أحدكما الآخر، وتأخذان في هذه الوقفة مدة تساوي المدة التي قضيتماها جلوساً في غرفة الجلوس، إلا أن هناك فرقاً طفيفاً، لا يكاد يذكر، فإنه إن كان الوقت صيفاً، فقد انصليت بحره، وإن كان شتاء فقد ارتعدت أطرافك من برده؛ ولا بأس، فأثر ذلك أيضاً طفيف، زكام حاد، وعطاس متوالٍ، وأدوية لا تحصى، تخفف الزكام، وتوقف العطاس، وتنزل الحرارة!

وللرجال عادات يتبعونها، وتقاليد يسيرون عليها، وللنساء عادات وتقاليد؛ تحكم ذلك طبيعة كل نوع؛ وتتحكم الجبلة أحياناً في الاختلاف بين الجنسين، وتلعب دوراً كبيراً في بلورة العادة وتشكيلها، والمرأة في البادية لها عاداتها، وتختلف فيها عن عادات بنت الحاضرة، وتتسم الأولى بالبساطة، في ضوء بيئتها، وما يتوفر فيها، وما تحتاجه، وخلافها الثانية،

وأمامها من الحاجات ما هو أكثر تعقيداً، ومن المواد ما هو أكثر وفرة.

والشباب لهم عاداتهم، وهي في صورتها الأولى، لم تنضج بعد، ولم يتم لهم إتقان تقليد الكبار، ولهذا كل جيل يدخل من التعديل، بالزيادة أو النقص، ما قد لا يكون له يَدٌ فيه، وعن هذا الطريق يدخل التطور على العادات، والتقاليد، فيأتي تدريجاً وهادياً؛ وهذا أحد أسبابه، وقد يغلبه التطور الذي يأتي نتيجة تطور المجتمع، فالذين كانوا لا يأكلون الأكل إلا بأيديهم، بعد أن لامست حياتهم المدنية الحديثة، سالموا الملاعق والسكاكين والشوك، وبدؤا يألفونها، فأول الأمر أُوقِف نقد مستعملها، ثم بدؤا استعمالها في بعض أصناف الأكل، ثم في المرحلة النهائية تصبح الأداة الرئيسة، مما لا يحتاجون بعده إلى غسل أيديهم.

والذين اعتادوا في زمن مضى أن يناموا بعد صلاة العشاء مباشرة في كل ليلة، إلا فيما ندر، ويستيقظون لصلاة الفجر، فلا ينامون بعدها إلا في وقت القيلولة،

أصبحوا يتأخرون في نومهم إلى ما بعد منتصف الليل، ليتابعوا ما يشوق لهم من برامج التليفزيون، وبعضهم أخذه التأثير الحديث إلى السهر إلى الفجر، ولم تصبح القيلولة عنده قيلولة.

ونتيجة لازدحام الطرق، والاختلاف في أنظمة العمل، وما طرأ على المدن من اكتظاظ في السكان، تسبب في صعوبة المرور في الشوارع والطرقات، تغير زمن الدراسة بدؤه، ونهايته، فبدلاً مما اعتاد الناس عليه من بدء الدراسة في الصباح حتى بعد العصر، أصبح الأغلب ينتهي بعد صلاة الظهر مباشرة، واحتلت العادة الجديدة محل العادة القديمة، وقد تتأثر أيضاً بالصيف والشتاء.

وفي بلادنا، في المناطق المختلفة، كانت هناك عادات وتقاليد تتبع في الأعياد، وفي المآتم، وقد طرأ عليها تغيير كبير في السنوات الأخيرة، نتيجة اختلاف المعيشة، بسبب اختلاف في الاقتصاد، مما أثر في سير المجتمع، ونظرته للأمور، وتوفر إمكانات لم تكن

متوفرة من قبل.

والعادات مع الزمن تتأصل في الإنسان، وتضرب جذورها بعيدة عميقة، فلا يسهل اقتلاعها، خاصة تلك التي تختلط بالمزاج، ويكون لها «خرمة» لا يستطيع الإنسان مقاومتها، إذا جاء وقتها، أو قام ما يوجبها، مثل عادة الدخان وشربه، ومثل نوم «الصفرة»، أو نوم القيلولة، أو تناول طعام وقت من الأوقات، وعمق العادة عند الإنسان قد تختلف عنها في عمق المجتمع، وقد يتنازل الإنسان عن عادته إذا انتقل إلى مجتمع آخر، مهما كانت عميقة، ومتمكنة، فشخص تعود على شرب القهوة، فانتقل إلى مجتمع يصعب عليه الحصول عليها، فإنه، رغم شوقه إليها، يستغنى عنها؛ وإنسان تعود على صنف معين من الأكل، فقده في مجتمع آخر، ينساه تدريجاً في مجتمع لا يجده فيه، والأكل في النهار في رمضان للمسلم يمكن الصبر عنه إلى الليل.

والعادة من فوائدها أنه يأتي منها راحة أحياناً

للذهن، فالإنسان ينفذ ما اعتاد عليه، دون تفكير يتكرر في كل مرة يأتي بالعمل، فأعضاء الجسم إذا اعتادت على عمل، فهي تأتيه آلياً؛ وقد ينشغل صاحبه، وهو يعمله، بعمل آخر، فقد تنسج المرأة، وعينها على التليفزيون، تتابع برامجه، أو أولادها يلعبون في المراجيح أمامها، وهي ترقبهم.

والعادة من فوائدها أيضاً إتقان العمل مع مرور الوقت، لأن في التكرار الذي يؤدي إلى تكوين العادة تدريباً على العمل، وفي كل مرة يزيد الإتقان في العمل، حتى يأتي الإنسان منه بما يدهش، عند المقارنة مع أول مرة أتي فيها العمل. وهذا يصح في كل عمل، صغر أو كبر، قل أو كثر، تافهاً كان أو مهماً؛ فأنت لو قمت بعمل ونظرت إلى ما أنفقت من وقت، وبذلت من جهد، ومدى إتقان ما قمت به، وقارنته بعمل مماثل قمت به، بصفة متكررة، ومتتالية، لوجدت أن الجهد في آخر مرة أقل، والوقت أقصر، والعمل أكثر جودة.

فأنت لو أخذت ورقة كبيرة، وأردت تقطيعها إلى قطع صغيرة، متساوية الحجم، متماثلة الجوانب، لوجدت أنك في المرة الأولى، أخذت وقتاً أطول، لأنك تحتاج إلى تفكير، يحتاج إلى وقت؛ وعند قيامك بالقطع لأول مرة، تجد أنك لم تتقن القطع، وأن القِطَع غير متساوية؛ ولكنك بعد أن تقوم بهذا العمل عدة مرات، تجد أنك تعمل آلياً، ولا تحتاج إلى تفكير، وقد قل الوقت، وتحسَّن مستوى العمل، وأصبحت القطع متساوية.

وإذا رجعنا إلى ما في التراث نجد أن المجتمع العربي دخل عليه من الحضارات المجاورة ما غير عاداته، وطور تقاليده، ولمس ما دق منها وما جل، وأصبح ما تبلور إليه هذا في جيلٍ غريباً على جيلٍ قبله. وفي النص التالي رصد لما يجب أن يكون عليه الإنسان المؤدب في حديثه مع الآخرين، وفيه مظهر شريف من مظاهر الحضارة، يهدي المرء إلى شيء مهم من الخلق الكريم، والشيم الفاضلة:

«وأنهم لا يداخلون أحداً في حديثه، ولا يتطلعون على قارٍ في كتابه، ولا يقطعون على متكلم كلامه، ولا يستمعون على مُسرّ سره، ولا يسألون عما وُرِّي عنهم علمه، ولا يتكلَّمون فيما حجب عنهم فهمه، يتسرعون إلى الأمور الجليلة، ويتبطّؤون عند الأشياء الرذيلة..

ألا ترى أنهم لا يتنخعون (يتنخمون)، ولا يتبصقون ولا يتثاءبون، ولا يستَنثرون، ولا يتجشؤن، ولا يتمطون»[1].

وبعض هذا اهتدوا فيه بنور الدين، وإرشاده، وهم حريصون على متابعة ما يأمر به، أو ينهى عنه، ولا يأخذون عادة في مجتمعهم الإسلامي، إلا إذا كانت تتماشى معه؛ وهم فيما قبلوه في بعض ما ذكرناه، اهتدوا بما قيل أن الرسول ﷺ وجه إليه، مروياً عن أبي هريرة:

«إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، وإن

---

(١) الموشى: ٢١٩.

إحدكم إذا قال: هاها، فإن ذلك الشيطان يضحك في جوفه». [1]

ـ[2] ويعود صاحب الموشى، بعد أن قال ما قال، فيؤكد بعضه في جمل مماثلة، فيقول:

«والظرفاء لا يتثاءبون، ولا يتمطون، ولا يوقعون أكفهم، ولا يشبكون أصابعهم، ولا يمدون أرجلهم، ولا يحكون أجسامهم، ولا يمسون آنافهم؛ خاصة إذا كان أحدهم بين يدي خليله، أو ربيطه، أو حبيبه، أو من يحتشمه، ومن يكرمه». [3]

وبعض هذه التصرفات يُغلب عليها الإنسان، فلا يستطيع دفعها، مثل التثاؤب، فيعالجون ذلك بوضع اليد على الفم، فتغطيه، وكأن منظر الفم مفتوحاً هو ما يتركز العيب فيه، ويبقى مظهر الوجه الذي يتغير كلية، وينقلب من حسن إلى سيء، ولكن لا حيلة في ذلك، ولا سبيل إلى تغطية الوجه.

---

(١) الموشى: ٢٢٠.

(٢) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

(٣) الموشى: ٢٢٠.

والعادات والتقاليد بين الشعوب قد تتضارب، نتيجة اقتناع هؤلاء بمظهر من المظاهر، واقتناع آخرين بمظهر آخر من المظاهر، فيكون التباين واضحاً، والتضاد جلياً؛ وما قد يراه هؤلاء عيباً، لا يراه آخرون خارجاً عن المعتاد، أو منافياً للمقبول. فعند أغلب العرب، نفض الأنف معيب عند الناس، ولو سمع أحد أحداً ينفض أنفه، ولو خلف حاجز، أو جدار، فإنه لا يلبث أن يدعو عليه، بأن ينخر الدود أنفه، إذ يقول بلهجته العامية «سِرُو»، أي دود، ولكن الإنجليزي يدخل يده، وهو على مائدة الطعام ويخرج منديلا، وينفض أنفه ما شاء له أن يفعل، وكأن أمراً معيباً لم يحدث.

والإنجليزي، وأنت معه على مائدة، لو أراد أن يتناول شيئاً بعيداً عنه، مما عليها، فإنه لا يمد يده، بل يسألك، بأدب، جم، ولباقة متناهية، مهما كان مقامك، أن تناوله ما بَعُدَ عنه، من حافظة الملح، أو الفلفل، أو عود الخلة، أو إحدى الصحاف التي

فيها من الطعام ما ليس أمامك؛ وهذا أمر متعارف عليه عندهم، مسلم به، لا يرى أحدهم في طلبه غضاضة، ولا في الاستجابة لطلبه ما يدعو إلى العجب، أو الالتفات.

ولكننا في شرقنا لا نعمد إلى هذا الفعل، بل يمد أحدنا يده إلى أبعد متناول، وقد يمد متنه، أمام جاره الجالس بجواره، كأنه غير موجود، وقد يسكب كأس ماء في طريقه إلى أخذ ما يريد، أو يجد أن كمه قد كرع في أحدى صحاف المرق؛ وأنف جاره في خطر في ذهاب يده ورجوعها، لأن الأنف بارز في الطريق!

ويتبين مدى تغلغل عادات الحضارة عند آبائنا ما يحكيه النص التالي:

«لا يدخل أحدهم الخلاء من حيث يراه أحد». [١]

وهي عادة لا تزال متمكنة من الناس، تجد أحدهم يوري إذا أراد أن يذهب إلى بيت الخلاء، ويعمل

---

(١) الموشى: ٢٢٠.

جهده في ألا يراه أحد، مع أنه لو عطش، وأراد كأس ماء، يطفئ عطشه، لما تردد أن يطلبه على رؤوس الأشهاد، وبصوت عال، دون حياء أو وجل، أما التخلص من هذا الماء فالأمر فيه مختلف.

ويستمر صاحب «المُوَشَّى» في تعداد العادات الحسنة التي أوحت بها الحضارة، وأدخلتها في حيز الأدب والذوق، وفرقت بين من يراعيها ومن لا يهتم بها، ومن بين تلك المظاهر ما يأتي:

ولا يبول بين يدي أحد، وليس من زيهم الإقعاء في الجلسة، ولا السرعة في المشية، ولا الالتفات في طريق قصدوه، ولا الرجوع في طريق سلكوه؛ ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم في المواضع المكنوسة، ولا يستريحون في الأماكن المرشوشة؛ ولا يجلسون في مجلس، فينتقلون منه، ولا يقعدون بحيث يقامون عنه». [1]

كل هذه الأمور وزنت بميزان دقيق، فأحدها

---

(١) الموشى: ٢٢٠.

يبعد الإنسان عن عادات الحيوان وتصرفاته، أو التشبه به في بعض أوضاعه، فبعض هذه الأوضاع قد يشبه فيها الإنسان الكلب في إقعائه، وقد نُهي عن هذه الجلسة في الصلاة، بإرشاد الدين وتعاليمه. وأذكر ونحن صغار، كيف كان أهلنا ينهروننا إذا رأونا نضع إحدى يدينا على الأرض، ونحن جلوس، لأن في هذا قرب من وضع الكلب يده على الأرض، والاستناد عليها.

والالتفات والمرء يسير يدل على خفة، وعدم ثبات، وهو ما يجب أن لا يقع فيه العاقل الرزين، بل إن بعضهم ليفاخر أنه لا يلتفت خلفه، مهما حدث من ضجة وضوضاء توحي بأمر جلل قادم، والرسول ﷺ كان لا يلتفت كما روي، وقد سأل أحدهم إن كان يلتفت في الصلاة؟ فكان الجواب أنه لا يلتفت في الصلاة، ولا في غيرها. وهو ﷺ مثال الرزانة والعقل.

وهم لا يخربون الصالح، بل دأبهم إصلاح الخرب، فإذا وجدوا مكاناً نظيفاً، قد كنس، وأعد

لأن يسر الناظر، ويبهج العين، فهم لا ينفضون ما في أرجلهم عليه، فيعيدونه إلى ما كان عليه من قبل من أذى. وإذا وجدوا مكاناً قد رش بالماء، فهم يتفادون الجلوس فيه، لأن في الجلوس فيه أذى لثيابهم، وهي عنوان خلقهم، ودليل مكانتهم، التي يجب أن يحافظوا عليها.

ومن الخفة أن يجلس أحدهم في مجلس، ثم ينتقل منه إلى مكان آخر، لأن في هذا استخفاف برب المجلس وصاحبه؛ فإن كان المجلس الأول هو الأنسب فلِمَ تركه، وإن لم يكن فلماذا جلس فيه. ويعطون ثقلاً كبيراً لمكان القعود، فهم يطلبون القعود في المكان الذي يليق بهم، ولا يتقدمون من هو أولى بالتقدم، ولا يعرضون أنفسهم للإهانة، لأنهم إذا تخطوا أماكنهم، وتقدموا حينما يجب أن يتأخروا، أقيموا، ووضعوا في المكان اللائق بهم.

ولهم عادات قد نجدها غريبة علينا، وقد لا نفهم بعضها، ولكنها في زمانهم ذات معنى، ولها مدلول،

يحافظون عليه، ويحرصون على مراعاته، ومن ذلك مثلاً ما دون عنهم في هذا في القول الآتي:

«ولا يشربون ماء الأحباب (جمع حب وهو الزير)، ولا الماء في دكاكين الشراب، ولا ماء المساجد والسبيل، وذلك مشنى (مكروه) عند ذوي العقول، ولا يدخلون دكان هرّاس، ولا دكان رواس (طابخ الرؤوس)، ولا يجتازون بدكان مراق، ولا يأكلون شيئاً مما يتخذ في الأسواق، ولا يأكلون على قارعة الطريق، ولا في مسجد، ولا في سوق». [1]

هذه الأمور طلب تجنبها لأنها تلمس المروءة، وجرح المروءة قد يترتب عليه أمور مهمة، فقد لا يقبل القاضي شهادة من استهان بهذه الأمور؛ والمروءة جانب مضيء في الإنسان، ومن السهل جرحه، إذا لم يكن المرء حذراً؛ وجرح المروءة لا يجبر، فليس هناك عمل يقوم به الإنسان، ليمحو أثره.

وإذا دققنا في هذه الأقوال، التي أريد منها أن

---

(١) الموشّى: ٢٢٠.

تكون عادة عند الإنسان، يعملها دون جهد، ويقوم بها دون تفكير، أو يتجنبها دون تعمّل، نجدها، بجانب المروءة، تبعد المرء عما يشين مظهره، فطابخ المرق مثلاً إذا لم يدنس ثوبك أثناء مرورك بجانبه، فإن رائحة المرق تعلق بثيابك، وهو أمر غير مرغوب فيه، والأكل في الأسواق، أو في المساجد، يدل على خلل في البيت، وهو أمر يحاول ذو المروءة أن يستره، لا أن يجاهر به، ويعلنه، ويدلل على بعض ذلك بالأحاديث، حتى يعرف أن تلك العادات مأخوذة من الدين، ومبنية عليه. ويروى في ذلك عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قوله عن رسول الله ﷺ:

«الأكل في السوق دناءة». [1]

وتختلف نظرتهم بين صغير الأمور وكبيرها، ولكن الحكم في نهاية الأمر واحد، فمثلاً هناك انتقاد لمن يدخل دكان حجام، بدلاً من أن يأتي إليه في بيته، ومن يدخل الحمام غير متزر، وشتان بين الفعلين،

(١) الموشى: ٢٢١.

والتهمة تجاه الاثنين في هذا الوضع أن من أقدم على هذا فهو ليس من الظرفاء، والنص هكذا:

«الظريف لا يأخذ شعره في دكان حجام، ولا يدخل بغير مئزر إلى الحمام»[1].

ولا يعني هذا أن البيئات تتماثل في العادات التي تلمس الظرف، أو المروءة، فكل بيئة لها نظرة، ولكن النظرة هذه تحكم المقيم والزائر، وقد يكون لكثرة الزوار، واستقدام عاداتهم معهم تأثير على البيئة الجديدة التي حلوا فيها، وقد يغير الزمن، على ذلك، بعض العادات؛ فإلى زمن الأتراك كان لا يأكل في الدكاكين والأسواق في بعض مناطق الحكم العثماني إلا الرعاع، ولكن بعض المناطق لا ترى في هذا بأساً، بل إن بعض الوجبات بعينها، يتحتم أن تؤكل خارج البيوت، ومن رأى مكة قبل خمسين عاماً يجد كبار القوم يأكلون الكبدة في الصباح عند أحد الطباخين المشهورين.

---

(١) الموشى: ٢٢١.

وأذكر وأنا صغير في عنيزة أن عدد الذين يحلقون رؤوسهم خارج بيوتهم يكادون يعدون على الأصابع، وبقية الناس يأتي إليهم الحلاق في بيوتهم، ويشاركهم في ذلك ما قد يكون هناك من جيران فقراء؛ وكان ساكن عنيزة يدهش إذا جاء لمكة، ورأى كثرة دكاكين الحلاقين، والازدحام عليها قرب العيد!

ويدهش الإنسان من بعض الأمور الدقيقة التي يذكرها الكتاب عن عادات كانت سائدة، أو عادات منتقدة، وقد لا يجد السبب واضحاً في ذلك مثل القول الآتي:

«النظر في مرآة الحجام دناءة». [1]

ويعزى ذلك القول إلى ابن عباس:

حدثنا إسماعيل بن محمد بن راشد بن سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، قال:

«من قلة مروّة الرجل نظره في مرآة الحجام،

(١) الموشى: ٢٢١.

واطلاعه في بيت الحائك» .[١]

ويبدو أن الترف الذي سيطر على ذوي اليسار في العصر العباسي، سيطر أيضاً على نظرتهم إلى الأمور المتصلة بالترف، فأصبح هناك قواعد يجب أن تراعى، وأصول يجب أن يحافظ عليها؛ وقد يذكر السبب لذلك، وقد يهمل، ومن ذلك القول الآتي:

«وقد ينبغي للظريف أن يدخل الحمام على خلوة، لئلا ينظر إلى سوءة، ولا يمد عينه إلى أحد، ولا يعلق ثوبه على وتد، ولا يدلي رجله في البئر التي ينصب إليها الماء، فإن ذلك مما يفعله الأدنياء» .[٢]

ويستمر مؤلف «الموشى» في تعداد ما يخدش المروءة والظرف، ويدخل في نطاق الدناءة، ويوجب الانتقاد، ويأتي بالعمل المرذول، ويعطي السبب فيه مباشرة، فيقول:

«ولا يدلك يديه بخرقة، فإن ذلك مما يستعمله

---

(١) الموشى: ٢٢١.
(٢) الموشى: ٢٢١.

السخفاء، ولا يتمرغ على حرارة أرض الحمام، فإن ذلك مما يفعله سفلة العوام؛ بل ينبغي له أن يدخله متزراً، ويقعد فيه معتزلاً، ولا يقعد مستوفزاً على رجله؛ فإن ذلك طعن على عقله؛ ولا يميل مضطجعاً، بل ينتصب متربعاً، حتى إذا نضب العرق من بدنه، وتحدر على جسده، وكان عرقه بين الكثير والقليل، نشفه عن بدنه بمنديل؛ ثم دعا لرأسه بالغسول والإشنان المنخول» .[1]

وإذا كانت الأسباب قد ذكرت، ووضح ما في ذهن القائل، وإن كان غير مقنع في بعض الأحيان، مثل أن يعاب عليه أن يقعد مستوفزاً على رجله، فإن انتقاده إذا دلك يديه بخرقة، أمر غير مقنع لنا، إلا إذا كان هناك ليفة مخصصة لذلك، أو أداة أخرى مماثلة، كان الأمر يقتضيه استعمالها.

ويبدو أن للحمام العام عادات، وتقاليد، مرعية، ويحرص القوم على مراعاتها ما أمكنهم ذلك؛ لأن

(١) الموشى: ٢٢١.

الناس يجتمعون في الحمامات، وتأخذ منهم وقتاً طويلاً، ويكونون فيها عرضة لكشف العورة، ولهذا دققوا في الأمر؛ وجاؤا فيه بأصغر التفاصيل، ويضيف مؤلف كتاب الموشى إلى ما ذكرنا سابقاً عن هذا الجانب ما يلي:

«فإن كان من أهل المروّات والنعم، وأهل البيوتات والقدر، ممن لا ينسب في فعله إلى شيء ليس من شكله، فليبتدئ دخوله الحمام بالإمساك عن الكلام، والتجرع من الماء الحار ثلاث جرع، وليقعد للعرق فوق نِطع، حتى إذا عرق سَلَت بدنه، وجمع عرقه، فوزنه.

وهذا الفعل لا يصلح إلا لذي نعمة، أو شريف، أو متأدب فيلسوف، وأما سائر الناس من أهل الظرف، فإنهم ينسبون بهذا الفعل إلى السخف». [1]

والمؤلف بهذا يعطي الحق في بعض العادات لأناس، ويمنعها عن آخرين، ويبيح الفعل لفئة، ويحرمها على فئة أخرى، ومع هذا فلم يعطنا الحكمة في جمع

---

(١) الموشى: ٢٢٢.

العرق، ووزنه؛ ولم يعطنا وصفاً للخطوة التي تأتي بعد وزنه. وقد يكون لتجرع ثلاث جرعات من الماء الحار فائدة طبية، منها تعويض الجسم عما فقده من السوائل، نتيجة نضح العرق الشديد المفرز من الجسم؛ وجعلها من الماء الحار، حتى لا يكون هناك تضارب بين حرارة الحمام، وبرودة الماء. وقد سمعت نصيحة من رجل يقال عنه أنه مجرب، وعنده خبرة بالطب، أن من شرب كأس ماء قبل الحمام في الشتاء، أنه لا يضار من الحمام، ولا يصيبه منه برد؛ وما على أحدنا إلا أن يجرب!

وإذا انتقلنا من الحمام ومحيطه، إلى المحيط العام لحياة مجتمعهم، نجدهم يقتنصون ما يوصل إلى محامد الأخلاق، وممدوح الفضائل، فيتبعونه أمراً أمراً، ويقولون عن هذا:

«لا ينبغي لظريف أن يمشي بلا سراويل، ولا يتزر بمنديل، ولا يمشي محلول الإزار، ولا مسبل الإزار، ولا يماكس في الشراء، ولا يركب حمار الكِرَى،

ولا ينزل في خراب، ولا يقبض على كتاب، ولا يشارط صانعاً، ولا يصاحب وضيعاً؛ ولا يشاتم رفيقاً، ولا يغتاب أحداً، ولا يذكر بسوء أخاً، ولا ينم بسريرة، ولا يظهر خبيئة، ولا يخون عهداً، ولا يخلف وعداً، ولا يضرِّب بين اثنين، ولا يفسد بين خليلين، ولا يسعى إلى سلطان، ولا يغمِز بإنسان، ولا يهتك حرمة، ولا يتعرض لسرقة، ولا يتحلى بالكذب، ولا يستهدف للريب، ولا يجاهر بالزنى، ولا ينطق بالخنا، ولا يفسد حرمة الأخ الصديق، ولا حرمة الجار اللزيق» .[1]

وقد دخل بعض ما ذكر في الأخلاق العامة، التي حث عليها الدين، أو تعارف الناس عليها، نتيجة تجربة، أقنعتهم بأهمية السير فيها، والمحافظة عليها، لما لها من تأثير على رفعة المجتمع، وصيانة مظهره، ومخبره؛ وليؤكد هذا استشهد على مراعاة الصديق والجار بأبيات معروفة، ومسلم بما فيها، وهي

(١) الموشى: ٢٢٢.

للأحوص بن محمد الأنصاري:

«قَالَتْ وَقُلْتُ: تَحَرَّجِيْ وَصِلِي
حَبْلَ امْرِئٍ بِوِصَالِكُمْ صَبِّ
صاحِبْ إذًا بَعْلِيْ، فَقُلْتُ لَهَا:
الغَدْرُ مِنِّي لَيْسَ مِنْ شِعَبِي
ثِنْتَانِ لاَ أَدْنُو لِوَصْلِهِمَا
عِرْسُ الخَلِيْلِ وَجَارَةُ الجَنْبِ
أَمَّا الخَلِيْلُ فَلَسْتُ مُخْلِفَهُ
وَالجَارُ أَوْصَانِي بِهِ رَبِّي»(١)

والزي، وما يتعلق به، من الأمور التي أولوها اهتمامهم، لأن المظهر يدل على المخبر، فإذا جاء المظهر قلقاً أو مرتبكاً، دل على أن صاحبه مشوش الفكر، تائه النظرة؛ والزي، مع بعض تصرف الفرد، يحدد المظهر اللائق، ويفرق بينه وبين غير اللائق، والأمر في نظر آبائنا، في ذلك الزمن، هذه حدوده:

---

(١) الموشى: ٢٢٣.

«ومن تكامل ظرف الظريف ظهور بزته، وظهور طيب رائحته، ونقاء درنه، ونظافة بدنه؛ ولا يتسخ له ثوب، ولا يدرن له جيب، ولا ينفتق له ذيل، ولا يُرى في تخاريصه (بنائقه: سعة الملاحم) ميل، ولا في سراويله ثقب؛ ولا يطول له ظفر، ولا يكثر له شعر، ولا يفوح لإبطه دفر (نتن)، ولا لبدنه غمر (دسم)؛ ولا يسيل له أنف، ولا يسودّ له كف، ولا يظهر له شُقَاق (تشقق)، ولا يرشش له بصاق، ولا يقف في مأقه رمد، ولا صواره زبد (الصوار ملتقى الشفتين)». [1]

ويوحون بأن مراعاة هذه الأمور، واتخاذها عادة، يسيرون عليها، هي من وحي الفتوة، وهي تنظيم قام في ذلك العصر، يمثله فئة من الشباب، أخذت نفسها بالكمال، بقدر استطاعتها، ومن مظاهرها ما أورده صاحب الموشى مختصراً، في قوله:

«ولن يعرف الفتى جميل مواهب الفتوة، إلا بسلوك طرائق المروة، وقد ذُكِرَتْ عند بعض العلماء، فقال:

(١) الموشى: ٢٢٣.

إن الفتوة ليست بالفسق، والفجور؛ ولكنها طعام موضوع، وأذًى مرفوع؛ ونائل مبذول، وبشر مقبول، وعفاف معروف، واجتناب للقبيح؛ وأدب ظاهر، وخلق طاهر، وترك أهل الشرور، والسمو إلى معالي الأمور؛ والإحسان إلى من أساء، ومكافأة من أحسن؛ وقضاء حوائج الناس . .

ولهم أيضاً رقة الطبع، والتلطف في كل الأمور، والمداراة، والتملق، والتأني، والترفق. ومن ذلك قولهم: من حَبَّ طَبَّ، أي رفق وداری، ومن ذلك سمي الطبيب طبيباً، لترفقه، ومداراته، والعرب تقول: هو طبّ بالأمور، أي عالم رفيق؛ قال عمر ابن أبي ربيعة:

فَـأَتَتْهَـا طَبَّـةٌ عَـالِمَـةٌ تَخْلِطُ الجِدَّ مِرَاراً بِاللَّعِبْ
تَرْفَعُ الصَّوْتَ إِذَا لانَتْ لَهَا وَتَرَاخَى عِنْدَ سَوْرَاتِ الغَضَبْ

ولهم حسن التأني فيما يريدونه، ولطيف الحِيَل فيما يحاولونه، وحفي التلطف لما يطلبونه؛ حوائجهم سرية، وسرائرهم مخفية؛ وأمورهم باطنة، وحيلهم

لطيفة، يوردون الأمور مواردها، ويصدورنها مصادرها.

ولهم فيما استحسنوا من الهدايا بينهم، والبر، والملاطفة، والمكاتبة، والتحفة من غيرهم، ما يستصغر.

ومن ذلك أنهم ربما أهدوا الأترجة الواحدة، والتفاحة الواحدة، والدَّسْتَبوية (بطيخ أصفر صغير) اللطيفة، والشمامة اللطيفة؛ والغصن من الريحان، والطاقة من النرجس؛ والقطعة من العود، والمخزنة من الطيب، والشيء اليسير، والوَهَطْ (الواهي) الصغير، ونظير ذلك من الأشياء القليلة، الحقيرة، والذليلة، التي لا قدر لها عند ذوي العقول، فيستكثر ذلك منهم، ويتلقى بالقبول؛ وتستحسن هداياهم، وتستظرف، ويفرح بها وتستطرف». [1]

لقد اعتبروا أن هذا في جانب الهدايا يمثل مذهبهم في الفتوة، فهم يهدون من يهدون ما استحسنوه

---

(١) الموشى: ٢٢٤-٢٢٥.

لأنفسهم، قل أو كثر؛ ويعتبرون قيمة الهدية ليس في حجمها الكبير، ولا في مظهرها البراق، ولكن في التفكير الكامن خلفها.

* * *

التهنئة وإطارها[1]

التهنئة تتخللها صورة الهناء، والهناء تخالطه السعادة، والسعادة نعيم للجسم والروح، والروح في هذا هي العماد، وهي المقدمة، وهي المرتكز، وتُدَغْدَغُ الروح بالتهنئة على كسب مقتنى، أو ضرر اندفع، أو جميل ورد، أو قبيح ابتعد.

فالتهنئة فرحة لجانب، ومشاركة من قبيل، وهي بهجة يجلبها ولادة مولود، أو ربح في مال، أو نجاح في روض من رياض الحياة؛ وتأتي على أثر سفر انتهى بعود حميد، أو بنجاح بدراسة سبقها كد وكدح؛ وقد تكون على زواج أو في يوم عيد؛ وقد يكون الداعي إليها مشكلة حُلَّت، أو مقاضاة اكتسب فيها الحكم، أو تهمة زالت، أو صعوبة برزت، فتغُلِّب عليها، أو مبهم مقلق، اتضح الأمر فيه.

والتهنئة قد تأتي من الأدنى إلى الأعلى، أو من

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٦١) في ٢٧/ ٥/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢١/ ١٠/ ١٩٩٥م.

المماثل لمن يماثله، وهي في هذه الحالات متوقعة ومقدرة؛ وقد تأتي من الأعلى إلى الأدنى علماً، أو سناً، أو مقاماً، فتصبح مظهر نبل، ومصدر فرحة غامرة، يبقى تأثيرها زمناً طويلاً، ثم يجترها المهنأ مع الزمن ذكرى عطرة.

والتهنئة فيها روح الأخوة، ومظهر التعاطف، وتبني جسوراً عامرة بين القلوب، تعبر عليها العواطف، وتعمر قصوراً يملؤها الإخاء والمودة، والمهنئ في هذا متفضِّل لسبقه، والمهنأ مقدِّر لهذه الالتفاتة، وأداء الحقوق؛ وبهذا تلتقي عواطف شريفة، ونيات خيرة، وعمل مضيء.

وللتهنئة في غير الأمور الطارئة، والأمور المفاجئة غير المنتظمة، مواسم، يستعد الناس لها كل عام، فهناك مواسم الأعياد، وهي تتكرر حسب الأديان، أو العادات، أو التقاليد؛ ولها مظاهر يتقيد الناس بها، وينتظمون في سلك عملها؛ والأمم تختلف في هذا، أمة عن أمة، بل قد تختلف أمة واحدة في

داخلها، وحسب مناطقها، أو فئاتها، وتأتي بالعادة بما يخالف لفظاً وعملاً.

وهناك احتفالاتٌ، التهنئة فيها دافئة، لأهميتها، وقد لا يأتي بعضها إلا مرة واحدة في العمر، مثل التهنئة بالزواج، وقبله الطهار، وحفظ الصبي للقرآن في الأزمنة الماضية؛ ومثل تخفير البنت، وهو ما يحدث في بعض المجتمعات، وذلك أن البنت، قبل أن تحتجب عن الناس، وتختفي عن أعين الرجال، ممن هم ليسو محارم لها، يدور بها أهلها، وأصدقاؤها، وجيرانها، وأقاربها، في الحي أولاً، وفي الأحياء الأخرى فيما بعد، وهي في زينة غير معتادة، وكأنهم يوحون للناس بأنه إذا كان لأحدهم رغبة في خطبتها، لأحد الشباب، فيما بعد، فها هي أمامهم، فليلقوا عليها نظرة في هيئتها هذه، وليتذكروها عند التفكير مستقبلاً في تزويج أبنائهم؛ وكلمة «التخفر» تعني التحجب، فالبنت تتخفر، ومتخفرة، ومخفرة، وتخفرت منذ كذا، إلى آخر الاشتقاق الذي يمكن أن

يُستَقَى من هذه الكلمة .

والتهنئة من مظاهرها التعبير عن الفرحة، وما يخالج المهني من شعور جميل تجاه المهنأ؛ ويتلو التهنئة دعاء باستمرار أسباب ما هنئ من أجله، تنتقى في هذه الكلمات المعبرة، ويعمد إلى عبارات ومعان أصبحت مصطلحات، قد لا يزيد الناس عليهاولا ينقصون .

والتهنئة وسيلة سهلة لجذب القلوب، وتطهيرها من الأدران التي تعلق بها، نتيجة سوء تفاهم، أو خطأ؛ يعمد إليها المخطئ، أو الأقرب نفساً للتسامح، ونسيان الماضي، فيجعل التهنئة عدته، لاصلاح ما انكسر، وردم ما انحفر؛ وتكرارها يوصل إلى الهدف، ويزيل العقبات، ويسهل الطرق .

فالتهنئة بهذا نوع من البر بالأهل، أو الصديق، أو القريب، أو الجار، والبر سهل على الأنفس الطاهرة المتسامحة، وأدواته سهلة عند من رزقه الله روحاً خيرة، وقد لاحظ هذه الأدوات أحد الشعراء فقال :

«قال ابن عيينة :

بني ، إن البِرَّ شيء هيّن وجه طليق ، وكلام لين»[1]

ما أرخص هذه الأدوات ، وما أقربها في متناول الإِنسان ، وما على المرء إلا أن يختارها .

وكسب القلوب ، ومراعاة عدم كسرها سبق إليه الرسول ﷺ إذ حث الناس على المداراة ، لأنها باب من أبواب صفاء القلوب ، وتحابها ، وتوادها ، وجعل هذا العمل من الصدقة ، إذْ قال ﷺ :

«مداراة الناس صدقة» .[2]

والمداراة سهلة ، وفي المتناول ، مثل الوجه الطليق ، والكلام اللين ؛ ولكن الكسب عظيم ، والربح فائق ، قد يغير حياة الفرد ، أو العائلة بكاملها ، ويبعد أذى ، خاصة إذا كان المدارَى صاحب سلطة ، وجبروت .

ومعاوية ـ رضي الله عنه ـ جاء حكمه في وقت عصيب ، وتغلب على كثير من المشاكل التي قابلته في

(١) محاضرات الأدباء : ١٢٧ .

(٢) محاضرات الأدباء : ١٢٠ .

ترسية قواعد خلافته، بالبر بالناس، والتسامح، والصبر، وسعة الصدر، وله قول حكيم، أصبح يضرب به المثل في حسن السياسة، وكسب القلوب، والقضاء على الفتن في مهدها، إذ كان يقيس المقدمات بنتائجها، فيعالجها في ضوء ذلك، ويضمن التغلب عليها، نتيجة تمسكه بهذه الحكمة وهي:

«قال معاوية: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها» .[1]

لقد صب معاوية مادة حكمه في هذا القالب المكين، فجاء ما يخرج منه سويًّا، وجاء له بالمردود الذي أراده، وخطط له، فكم من مشكلة دخلت فيه، وهي مضطربة، وخرجت منه، وهي مستوية على سوقها، تعجب صاحبها وقبيله. إن معاوية لم يندم يوماً على إتباعه هذه الحكمة، والسير خلفها بولاء وحدب.

وفي هذه الحكمة ينطلق معاوية إلى وسائل تنفيذها،

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٢٠.

وتسيير عمله في ضوئها، فيقول في هذا:

«لا أضع لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجد من السيف بدّاً ركبته». [1]

وهذا يري أن معاوية يضع الأمور في نصابها، فلا يخلط الأوعية، فلا يستعمل أداة في غير ما خصصت له، وهو يتجنب الأقسى إلى الألين ما وسعه الأمر، فإذا ضاق الأمر، ركب الصعب، لأنه لم يعد له بد من ركوبه، ويدخل عمله حينئذ نطاق الحزم الذي لا مناص من اللجوء إليه، إذ لم ينفع التراخي، ولم يفد التساهل، لأن بعض الأنفس شريرة، ولا ينفع معها إلا التقويم بقوة وحزم، وهو منتهى طريق معاوية في المعاملة، إذا استنفذ كل الوسائل التي يفضلها، والتي بَنَى عليها سياسته في حكمه. [2]

والتهنئة قد تأتي بخير عميم، كما حدث لابن

---

(١) المجتـنى: ٥١.

(٢) «أغلظ رجل، فحلم عنه (معاوية) فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا. عيون الأخبار: ١/ ٦٣.

القرّيّة، عندما قام بتهنئة عبدالملك بن مروان بأولاده، وقد خلط التهنئة بالدعاء، فجاءت متكاملة من هذا الجانب، ووضعها ابن القرّيّة في إطارها النفسي؛ فهزت التهنئة بهذه الصورة عبدالملك، فجاء منه عطاء جزيل لابن القرّيّة، والقصة كمايلي:

«ذكروا أن ابن القرّيّة دخل على عبدالملك بن مروان، فبينما هو إذ دخل بنو عبدالملك عليه، فقال:

من هؤلاء الفتية، يا أمير المؤمنين؟

قال: ولد أمير المؤمنين.

قال: بارك الله لك فيهم، كما بورك لأبيك فيك، وبارك لهم فيك، كما بورك لك في أبيك.

فحشا فاه درّاً». (١)

إن تهنئة ابن القرّيّة عبدالملك بهؤلاء الفتيان جمعت وسائل تحريك نياط قلب عبدالملك، فقد هنأه ابن القرّيّة منذ أن بدأ كلامه، فكلمة «الفتية» تحمل التبجيل، إذ لم يقل «هؤلاء الصبية» أو «الغلمان»،

(١) المحاسن والمساوئ: ٤٣٥.

خاصة وأن تصرفهم لم يتبين منه أنهم أبناء عبدالملك، ولعلهم جلسوا في آخر المجلس، أدباً، وتحشماً. ثم إنه دعا لهم بعد أن علم مكانهم، ثم انتقل في دعائه إلى إدخال المدح ضمناً، إذ قال له بطريق غير مباشر: إنك نعم الابن لأبيك، فيما فعلت له، وأَحْرِ بأبنائك أن يعاملوك بما عاملت به والدك.

هذه التهنئة الجامعة في معناها، المسبوكة سبكاً بديعاً في مبناها، جعلت عبدالملك يجود بما جاد به، ويغدق في عطائه.

وتأتي التهنئة مبتدعة ابتداعاً يخلب لب المهنأ، لأن فيها عصارة عقل، ولب فكر، من ذهن صاف، ومن رجل عرف كيف يدخل إلى قلب المهنأ، فيستولي عليه، والقصة هكذا:

«أول كتاب ورد على المأمون بالخلافة كتاب الحارث ابن سباع الخراساني، فإنه كتب إليه:

«قد أظلنا أمير المؤمنين بخلافته، تحت جناح الطمأنينة، وبلغنا به مدى الأمنية، فأدام الله له من

كرامته ما يتطمأن له أقاصي وأداني رعيته؛ وجعله أعز خليفة، وجعلنا أسمع وأطوع رعيته».

فقال المأمون للفضل بن سهل:

أتعرف ما قيمة هذا الكلام؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين.

قال: وما هي؟

قال: تلقيك له بالسرور.

فأعجبه قوله، واستحسنه».[١]

إن المأمون حديث عهد بالخلافة، ويتلقط إضاءات الولاء التي تأتيه من هنا وهناك، وهو في حاجة إلى أن يطمئن على الخلافة بعد النزاع الذي قام بينه وبين أخيه، وما أدى إليه من قتل أخيه، وتفرده بالخلافة، ولهذا فرح بهذه التهنئة الممزوجة بالدعاء، والتفاؤل بالمستقبل في ظل حكمه، وقد طغى الفرح على المأمون، فلم يستطع أن يخفيه، فتبين على وجهه، وفي كلماته، وقد اعتمد الفضل على ما تبين منه في رده على سؤال

---

(١) المحاسن والمساوئ: ٤٤٤.

المأمون. وقد سر المأمون بأنه ليس الوحيد الذي رأى قيمة هذه التهنئة، بل شاركه في ذلك الفضل.

ومن أكثر صيغ التهنئة إضاءة، ومن أقربها إلى الكمال، وأسرعها إلى الوصول إلى الهدف، والتعبير عن القصد، ما قد يأتي منه ﷺ من تهنئة، في أمر من أمور الحياة، التي اعتاد الناس فيها أن يهنئ بعضهم بعضاً، ومن ذلك الزواج، وله صيغه التي تعارف عليها الناس، وداروا حولها معنى، واختلفوا أحياناً تعبيراً؛ والتهنئة في أقواله في هذا المجال يغلب عليها الدعاء، كما هو متوقع، والدعاء خير بضاعة يعود بها المهنأ إلى بيته، أيّاً كان الداعي، فما بالك إذا كان رسول الله ﷺ، وهذا نموذج من النماذج التي رويت عنه في أمر الزواج:

«قال مجاهد: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لمتزوج قال:

على اليمن والسعادة، والطير الصالح، والرزق الواسع، والمودّة عند الرحمن». (١)

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٨.

وصيغ التهنئة في المخاطبة تأتي مختصرة، وهذا يتناسب مع المشافهة، ومع العصر الإسلامي الأول، عندما كانت الرسائل لا تبعث إلا في الأمور الملحة، والأسباب المهمة.

ومثل النص الذي جاء على لسان النبي ﷺ، في التهنئة بالزواج، يأتي نص على لسان أبي الأسود، يقول فيه:

«باليمن والبركة، وشدة الحركة، والظفر في المعركة» .[1]

وقد تأتي التهنئة كتابة، ومختصرة، وهذا نادر في عصور الإسلام المتأخرة، فالكتاب يتبارون في الإطالة، وشحذ الذهن، والغوص على المعاني اللائقة، ويتفننون في هذا إلى حد الملل أحياناً، والتعسف أحياناً. وقبل أن نعطي نماذج مما هو مطول نسوق تهنئة مختصرة جاءت كتابة، لتعطي فكرة عن جانب من جوانب التهنئة، وهي تهنئة أرسل بها أحد الكتاب إلى من

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٨.

سكن داراً جديدة، انتقل إليها، يقول فيها:

«بخير مُنْتَقَلٍ، وعلى أيمن طائر، وَلأَحسن إبّان، أنزلك اللهَ عاجلاً، وآجلاً، خير مَنازِل المفلحين». [1]

وهذه تهنئة جامعة، رغم اختصارها، وتري مقدرة الكاتب في اختيار الكلمات، وقد جملها بالدعاء، وهو خير ختام لأي أمر.

ومن التهاني المطولة تهنئة لائقة، دلت على مقدرة الكاتب في سبكها، بمعان تتماشى مع الغرض الذي قيلت فيه، وقد تدرج الكاتب في خطواتها بما يدل على عقل نير، وروح إسلامية عميقة، وهي تهنئة من أحد الكتاب إلى نصراني أسلم، يقول فيها:

«الحمد لله الذي أرشد أمرك، وخص بالتوفيق عزمك، وأوضح فضيلة عقلك، ورجاحة رأيك؛ فما كانت الآداب التي حويتَها، والمعرفة التي أُوتيتَها، لتدوم بك على غواية، وديانةٍ شائنة، لا تليق بلبك، ولا يبرح ذو الحجا من موجبي حقك، ينكرون إبطاءك

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٩.

عن حظك، وتركك البدار إلى الدين القيّم، الذي لا يقبل الله غيره، ولا يثيب إلا به، فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ .(١)

وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ .(٢)

والحمد لله الذي جعلك في سابق علمه، ممن هداه الله لدينه، وجعله من أهل ولايته، وشرفه بولاء خليفته، وهنأك الله نعمتَه، وأعانك على شكره؛ فقد أصبحت لنا أخا ندين بمودته، وموالاته، بعد التأثم من خلطتك، ومخالفة الحق بمشايعتك، فإن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ .(٣)

ورغم أن مظهر هذه الكتابة التهنئة بدخول الإسلام، وإظهار الفرحة بأن انضم هذا النصراني إلى حظيرة المسلمين، فأصبح له ما لهم؛ إلا أن داخلها الترغيب

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ٨٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ١٩.

(٣) سورة المجادلة: الآية: ٢٢. عيون الأخبار: ٣/ ٨٠.

في التمسك بالدين الإسلامي، وتعديد المكاسب التي اكتسبها هذا الداخل فيه حديثاً، والخسائر التي كان يعانيها قبل ذلك.

وفي هذا الخطاب تبصير ببعض جوانب الدين التي رأى الكاتب أن يبثها في كتابه، وكأنه استطراد طبعي، في حين أن لها مغزى بعيداً، استطاع أن يصل إليه دون تكلف ظاهر.

ـ[1] وإذا كان هذا النص طويلاً، فإنه ممتع، وليس فيه حشو، ولا تقعر، ولا معاناة فيه، أو تعسفاً في اصطياد المعاني، فإن بعض النصوص المطولة، فيها بعض التطويل المتكلف، وما قد يَرَى فيه بعض القراء اقتساراً إلى حد ما مثل التهنئة الآتية:

كتب أحد الكتاب إلى حاكم إحدى الجهات:

«نحن من السرور، بما قد استفاض من جميل أثرك، فيما تلي من أعمالك، وخطمك وزمك إياها بحزمك وعزمك، وانتياشك أهلها من جور من

---

(١) ابتداء الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

وليهم قبلك، بتطاول أيامك، والكون في ظل جناحك، في غاية من تخصّه وتعمه نعمك، وتجول به الحال حيث جالت بك.

فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك، ولم يردد علينا آمالنا منكوسة فيك، كما ردها على غيرنا في غيرك، وهنيئًا هنأك الله نِعَمَه خاصها وعامها، وأوزعك شكرها، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيد فيها». (١)

يدور الكاتب حول المعاني التي غيره، ممن هو أقدر منه، يطرقها مباشرة، ويأتي بها عمداً، مثل شكر النعمة مما يأتي بالمزيد منها، أما هذا فأتى بمثل قوله «منكوسة فيك»، ويتداخل الخاص والعام عنده، فيأتي بذلك مرتين، ويتصيد كلمات نابية وغريبة، أضاف بها مللاً إلى ملل، فمنكوسة، وخطمك، وزمك، وانتياشك، وتجول به الحال، تعبير قلق، وبعضه يتصف بالغرابة، ويزيد الأمر نفوراً أن المجال مجال تهنئة!

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٩.

والشعر وعاء بلور للتهنئة، وطالما تسابق فيه الشعراء، وأخذوا على النثر فيه قصب السبق، ويكاد لا يحصى ما قيل فيه، ومن أمثلة ذلك قول ابن الرِّقاع لمتزوج:

قَمَرُ السَّمَاءِ وَشَمْسُهَا اجْتَمَعَا
بالسَّعْدِ مَا غَابَا وَمَا طَلَعَا
مَـا وَارَتِ الأَسْـتَـارُ مِثْلَهُـمَـا
فِيْمَـنْ رَأَيْنَـاهُ وَمَـنْ سَمِعَـا
دَامَ السُّـرُوْرُ لَـهُ بِهَـا وَلَهَـا
وَتَهنَّا طُوْلَ الحَيَاةِ مَعَا»[1]

ولا يكاد حاكم يرتقي منصباً دون أن يأتي شاعر يهنؤه شعراً بالمنصب، ولا ذو منصب مرموق في المجتمع، دون أن أن يجد لفضله مردوداً في أنفس من حوله من الشعراء، وما على المرء إلا أن يفتح الدواوين، ويمر على ثبت القصائد، وسيجد ما لا يحصى من التهاني، ودوام البركة على من حباه الله بخير ما.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٩.

والحياة مليئة بالأفراح، مثلما هي مليئة بالأحزان وصروف الدهر، وبعض هذا وذاك، سجل عنه في التراث، وطرافته تأتي أنه شامل لجوانب متعددة في الحياة، فقدوم مسافر إلى أهله، فيه لم للشمل، وفيه فرحة للقادم، وفرحة للأهل، وهي فرحة تزيد مع طول المدة، أو خطورة المهمة، أو انعدام الأمن في الطريق؛ وفيها ما قد يكون القادم فاز به في سفره من مال أمل أن يحصل عليه، أو صيت رجا أن يجلله، أو غنم من أي نوع كان، يزيد قدره في مجتمعه.

ومما قيل في قدوم غائب، ما كتبه رجل إلى صديق له، وهو كمايلي:

«قد بلغني ما هيأ الله لك من اجتماع الشمل، بضم الأهل، فَشَرِكْتُكَ في النعمة، وكنت اسوتك في السرور، وشاهدك بقلبي، ومَثَّلْتُ ما أنت فيه لعيني، فحللت بذلك محل المعاين للحال، وزينتها، فهنيئًا هنأك الله ما قسم لك، وبالرفاء والبنين، وعلى طول التعمير والسنين». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٩.

وهذا قول سلس في مجراه، واضح في معناها، أجاد قائله القول، إلا فيما قد يلاحظ على جملة: «بالرفاء والبنين»، لأنه ورد نهي عنها في نص هكذا:

كان رسول الله ﷺ ينهي أن يقال: «بالرفاء والبنين». [1]

ولعله بالأمكان أن توصف بعض الأقوال بأنها أدب التعزية والتهنئة، والسبب كثرة النصوص في هذا، والمقدرة على الجمع بين التعزية والتهنئة، بمقدرة مدهشة، رغم دقة الأمر، وما فيه من أشواك، لتناقض طبيعة كل منهما، فهذا في اتجاه، وهذا في اتجاه مغاير، ومن تتبع النصوص الواردة في كتب التراث يجد أن قائليها، أو كاتبيها، ذوو مقدرة فائقة على التغلب على طبيعة التعزية والتهنئة، ينتقلون بلباقة متناهية من واحدة إلى الأخرى، وهم في هذا في موقف مثل موقف حسان في هجوه لقريش، دُون المساس بالرسول ـ عليه السلام ـ وأصحابه.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٨.

ويقال إن أول من هنأ وعزى في مقام واحد عطاءُ ابن أبي صيفي الثقفي، وقد عزى يزيد بن معاوية بأبيه، وهنأه بالخلافة، ففتح للناس باب الكلام، فقال:

«أصبحتَ رزئت خليفةً، وأُعطيتَ خلافة الله؛ قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة، وكنتَ أحقَّ بالسياسة؛ فاحتسب عند الله أعظم الرزيّ، واشكر الله على أعظم العطية؛ وعظّم الله في أمير المؤمنين أجرك، وأحسن على الخلافة عونك». [1]

وإذا كان هذا حظ الرجال من التعزية والتهنئة، والتفوق فيهما، وحدث هذا في أوائل زمن بني أمية، ومع ثاني خلفاء الأمويين، فقد حدث مثله، وبطل القول فيه امرأة، وفي زمن العباسيين، ومع ثاني خليفة عباسي، والنص هكذا:

«قالت أعرابية للمنصور في طريق مكة، بعد وفاة أبي العباس:

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٨.

أعظم الله أجرك في أخيك، لا مصيبة على الأمة أعظمُ من مصيبتك، ولا عِوضَ لها أعظمُ من خلافتك» .[1]

لقد أحسنت هذه الأعرابية في كلمتها؛ أجملت القول، ووفت المعنى، فحافظت على طبيعة الأعراب، في الحرص على ما قل ودل، والمقدرة هنا ظاهرة واضحة، لأنها استطاعت أن تطرق هذا المجال الصعب، الجامع للنقيضين، في عبارة مختصرة، بما لا يمكن أن يسمح المجال بأقل منه؛ أما لو أطالت، حتى لو وفت، لصارت مثل غيرها، ولم تبز أحداً في هذا المجال.

وعندما قام ابن القرّيّة بإبلاغ رسالة الحجاج إلى هند بنت أسماء، في خطبته إياها، وقبولها الزواج من الحجاج، عاد ابن القرّيّة ليخبر الحجاج بهذا القبول، فجاء إخباره بصورة تهنئة، هذه كلماتها:

«أقر الله عينك، وجمع شملك، وأنبت رَيعك،

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٨.

على الثبات والنبات، والغنى حتى الممات؛ جعلها الله ودوداً ولوداً، وجمع بينكما على البركة والخير» .[1]

ورغم الشك الذي يرافق شخص ابن القرّيّة، وأنه لا وجود له إلا في خيال من تخيله، وأنه شخص وهمي، وُضعت على لسانه الحكم، وصيغت باسمه أقوال مأثورة، تحمل معاني تدل على العقل والاتزان، وتحري الواقع، ووصف الحقيقة فيما يقول، ورغم الشرط الذي وضعه الحجاج، وقيد به ابن القرّيّة، في ألاّ يزيد في مخاطبته هند عن ثلاث كلمات، وهو شرط لا يليق بحاكم له عقله، واحترامه، وهيبته، ولا يليق بالخاطب المختار، فهو لا يحمل الرسالة إلا وهو ثقة، مما يوجب الاعتماد على حسن اختياره للكلمات، دون تحديدها، ولو كان التحديد في الكلمات، ومدلولها، لوجد لذلك تعليل، أما تحديدها بالعدد فأمر لا يليق بابن القرّيّة، ولا بهند، ولا بالحجاج، إلا أن الفكرة وجدت من يستطرفها

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٩.

من مدوني التراث، وساعد على ذلك بريق الكلمات الصادقة التي حملت التهنئة، وقد صيغت بقالب العقل الناضج، الذي يُظْهَر به ابن القرّيّة دائماً.

وبعض العقلاء لا يفوته أن يلاحظ مرامي التهنئة، ومعانيها، إذا جاءت مثيرة للنقد وحملت خميرة الزلل؛ لأن التهنئة يجب أن تكون صافية من درن اللفظ والمعنى، فالشائبة تشينها، وتقلل من قيمتها، وقد تخرجها من مجرى الحمد إلى مجرى الذم، حتى لو كانت نية المهنئ صافية الهدف، نقية من الأعمال أو التهاون، وقد لاحظ الحسن البصري على أسلوب بعض التهاني، وعاب الصيغة بطريقة لا تدع مجالاً لإهمال رأيه، فقد رسم صورة مفزعة لما تصوره من مرمى من مرامي التهنئة التي سمعها، وهدى إلى القول الذي يمكن أن يحل محلها، ويمحو الصورة الأولى، والقصة كمايلي:

قال رجل: ليهنك الفارس.

فقال: الحسن: لعله يكون بَغَّالاً، ولكن قل:

شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، وبلغ أشده، ورزقت بره» .[1]

والحج في حياة المسلم مناسبة لها في نفسه منزلة عظمى، لما فيها من رجاء الثواب، وما يلازمها في بعض الأزمان من مشاق، وصعوبات، وما يكتنفها من أخطار، ولهذا فهي من أبرز المناسبات التي تستثير التهنئة، وتستدر الاغتباط؛ ونحن نجد أن التهنئة بأداء فريضة الحج تأخذ حيزاً واسعاً في كتب الأدب والتاريخ؛ وهي مكملة في بعض العصور للاحتفالات التي تقام عند عودة الحجاج إلى بلادهم، وقد أدوا نسكهم، وعادوا سالمين غانمين. ومن الأمثلة على التهاني في هذا المجال التهنئة الآتية؛ وهي واحدة من عدد جاء به صاحب «عيون الأخبار» :

«الحمد لله على تمام مهاجرك، وسلامة بدأتك ورجعتك، وإعْظام المِنّة بأوبتك، وشكر الله سعيك، وسر حجك، وتقبل نسكك، وجعلك ممن قلبه

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٧٧.

مُفلحاً مُنجحاً؛ قد رَبِحَتْ صفقته، ولم تَبُرْ تجارته، ولا أعدمك نيةً تفضل عملك، وتوفيقاً يحوط دينك، وشكراً يرتبط نعمتك، فهنأكم الله النعمة، وجمعكم في دار الخلافة، وجعلكم ساسة الأمة، والمتقدمين عند الإمام ـ أيده الله بالطاعة والنصيحة ـ فإنكم زين السلطان، وعمدة الإخوان، وأضداد أكثرِ أهل الزمان». [1]

وأول التهنئة يخالف آخرها في قوته، ولا يستبعد أن يكون آخر التهنئة مضافاً إلى الأصل، من قبل من استفاد مما وضعه الأول؛ ويبلغ الضعف منتهاه، والابهام غايته من الجملة الأخيرة: «وأضداد أكثرِ أهل الزمان».

وأغراض التهنئة قد لا تحصر، وقد يأتي بعضها معجبا، غير متوقع، فمثلاً يتوقع أن يهنأ المرء على ولادة طفل أو طفلة، أو زواج ابن أو بنت أو سلامتهما، أما أن يهنأ الوالد على فطام ابنه، فهذا أمر يمكن أن

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٨٠.

يطلق عليه: ترف التهنئة، وهذا مثل من أمثلة ذلك، يُري المعاني المطروقة، والأسلوب المختار، والجمل المصوغة:

«أنا ـ أعزك الله ـ لما حملني الله من أياديك، وأودعني من إحسانك، وألزمني من شكرك، آخذ نفسي بمراعاة أمورك، وتفقد أحوالك، وتعرف كل ما يحدثه الله عندك، لأقابله بما يلزمني، وأقضي الحق فيه عني، بمبلغ الوسع، ومقدار الطاقة، وإن كان لا يبلغان واجبك، ولا يستقلان بثقل عارفتك؛ وكل ما نقَّل الله الغنى، وبلغه من أحوال البلوغ، ورقاه فيه من درجات النمو، فنعمة من الله حادثة تلزم الشكر، وحق يجب قضاؤه بالتهنئة.

وكتب إليَّ وكيلي، المقيم ببابك، يذكر ما وهبه الله من سلامته عند الفطام، وصلاح جسمه عند الطعام، وسلوته عند أول الغذاء، وسرورك، ومن يليك، بما وهب الله في هذه الحال من عافيته، وحسن المدافعة عنه، فأكثرتُ لله الحمد، وأسهبتُ

في الدعاء والرغبة، وتصدقت عنه بما أرجو أن يتقبله، وكتبت مهنئًا بتجدد النعمة عندكم فيه.

فالحمد لله المتطول علينا قِبله بما هو أصله، والمجري لنا فيما يوليك على حسن عادته؛ وهنأك الله النعم، وصانها عندك من الغِيَر، وحرسها بالشكر، وبلغ بالفتى أقصى مبالغ الشرف، وجعلك من الأمل فيه، والرجاء له، على العيان واليقين، بمنِّه وفضله» .(1)

والولاية تولى، والمنصب يعطى، حاكماً كان، أو قاضياً، أو قائد جيش، أو وزير بلاط، أو رئيس قافلة، أو رأس مهنة، أو قائما على وقف، أمور تؤكد ارتفاع المنزلة، وعلو المكانة، والتهنئة بهذا لازمة، وكذلك الدعاء بالبقاء في المكان المختار، والتوفيق في أداء واجبه، وثبوت أن المرء عند حسن الظن، وهو ما يتوقع أن تختم به التهنئة، وهذا أحد الكتاب يهنئ بتولي ولاية، والكُتَّاب خير من يجيد

---

(1) عيون الأخبار: ٣/ ٨١.

صيغ المخاطبة، لما يعرفونه من الأصول المتبعة، مما تبلور إليه الأمر، مما أصبح أشبه بالاصطلاح على الأسلوب، وهذا ما قاله:

«فإنه ليس من نعمة يجددها الله عندك، والصنع الجميل تحدثه لك الأيام، إلا كان ارتياحي له، واستبشاري به، واعتدادي بما يهب الله لك من ذلك، حسب حقك الذي توجبه، وبِرِّك الذي أشكره، وإخائك الذي يَعِزّ وَيَجِل عندي موقعُه.

فجعل الله ذلك فيه وله، ووصله بتقواه وطاعته.

وبلغني خبر الولاية التي وليتها، فكنت شريكك في السرور، وعديلك في الارتياح، فسألت الله أن يعرفك يمنها وبركتها، ويرزقك خيرها وعادتها، ويحسن معونتك على صالح نيتك في الإحسان إلى أهل عملك، والتألف لهم، واستعمال العدل فيهم، ويرزقك محبتهم وطاعتك[1] [كذا]، ويجعلهم خير رعية»[2].

---

(١) لعلها طاعتهم.

(٢) عيون الأخبار: ٣/ ٨٢.

هذا أسلوب رضيه القوم في ذلك الزمن، وشاع عندهم، ولكن زمنه لم يطل، لأن فيه من التكلف ما هو ظاهر حتى إن بدء التهنئة تأخر كثيراً، فجاء في جزء يدعو إلى الالتفات إليه، بعد أن أخذ الصدرَ قول ليس له من الأهمية ما يجعله يتصدر المخاطبة. وأحياناً إذا لم يكن الشعور صادقاً، فإنه يأتي زحفاً، يجر قدميه جراً، وهو ما يبدو لنا في الأسطر الأولى من المخاطب؛ ولم يستقم الأمر إلا عند الدعاء، والدعاء دائماً هو أقوى ما في المخاطبة، لسعة مجاله، وحفظ الناس لمعانيه، وتشعب طرقه، وتعدد مراحله، فالدعاء بالصحة والعافية، أحياناً، والدعاء بالتوفيق أحياناً أخرى؛ والنجاح والفلاح دعاء، ودوام النعمة كذلك، وأن يكون المرء تحت رعاية الله وحفظه، أمل أي مسلم، وسداد الأمر مطلوب من رب العالمين، وهكذا ولا غرو حينئذ أن يأتي القول مهتزاً في بعض مراحله، وينهض من عقال عندما يدلف إلى روض الدعاء، والابتهال إلى الله. وما علينا إلا أن نراقب

مثل ذلك، حتى نرى الأمر جلياً ثابتاً.

والتهنئة بالمنصب، وتوليه، قد لا تعوز فيه المعاني المسبغة، والأقوال المسهبة، والصور السهلة، ولكن التعزية في العزل هي العقبة الكأداء؛ وهي تحتاج إلى عقل نيّر، وخيال واسع، حتى يمكن الإتيان بما يكون مقبولاً، ومضموناً من الزلل، لأن التعزية دقيقة الجوانب، يوشك المقدم عليها أن يقع منها في جرف هارٍ، أو يسقط في حفرة عميقة، وهو الحريص على السلامة، ولعل فيما سوف نسوقه ما يكشف شيئاً من هذه الصعوبة، وهذه مخاطبة يواسي فيها أحدهم معزولاً:

«فإن أكثر الخير فيما يقع بكُرْه العباد، لقول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ (١).

وقال أيضا: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (٢).

(١) سورة البقرة: الآية: ٢١٦.
(٢) سورة النساء: الآية: ١٩.

وعندك ـ بحمد الله ـ من المعرفة بتصاريف الأمور، والاستدلال بما كان منها على ما يكون، مَغْنًى عن الإكثار في القول. وقد بلغني انصرافك عن العمل على الحال التي انصرفت عليها من رضَى رعيتك، ومحبتهم، وحسن فعلهم وقولهم، لما بَقّيْت من الأثر الجميل، عند صغيرهم وكبيرهم؛ وخلّفت عن عدلك، وحسن سيرتك في الداني منهم والقاصي من بلدهم، فكانت نعمة الله عليك في ذلك علينا، نعمةً جل قدرها، ووجب شكرها.

فالحمد لله على ما أعطاك ومنح فيك أولياءك، وأرغم به أعداءك، ومكّن لك من الحال عند من ولاك؛ فقد اصبحنا نعتد صرفك عن عملك منحاً مجدداً، يجب به تهنئتك، كما يجب التوجع لغيرك». [١]

يشعر أحدنا وهو يقرأ هذا النص بما كان يعانيه كاتبه من قلة زاد الكلمات، وضحالة غدير المعاني، وكأنه في سيارة تسير في رمل، وقوفها أكثر من

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٨٢.

حركتها، وحركتها تأتي بعناء.

ولا يلام الكاتب فالأمر ليس من اليسير، فهو كمن يقول للمريض الحمد لله الذي أمرضك حتى تبقى في الفراش، فلا تتعرض للأخطار خارج بيتك، نتيجة العدوى، أو دهس السيارات.

ولا يتوقع أن تكون التعزية عن العزل مثل التهنئة بالولاية، ولا التأسي على الفقد مثل الابتهاج بالوجد، ولهذا صال أصحاب التهنئة وجالوا، وراحوا وجاؤا، في ميادين وجدوها بارحة، ومسارح غنية بما تمدهم به بما يشتهون، هذا إذا كان عندهم الاستعداد والمقدرة؛ وخلاف ذلك أصحاب مواساة المعزول فإنهم يبعدون عن الفاظ التعزية الخاصة بالموت، والمعاني التي تأتي منها، فلا يجدون أنهم في هذا الحقل ولا ذاك، فيضيعون، وتضيع معهم محاولتهم.

ومع هذا فلكل بحر عميق سابح، ولكل جواد جامح راكبٌ كابح، عندما تعطى القوس باريها، ويعطى العمل للبارع فيه، ويأتي صاحب السليقة،

والفطرة التي لم تدنس، فيتصدى للأمر، فيأتي بالدرر، وينثر الجوهر وهذا مثل من أمثلة المواساة الناجحة الموفقة:

«كتب محمد بن الحنفية إلى ابن عباس، حين سيره ابن الزبير إلى الطائف:

أما بعد:

فقد بلغني أن ابن الزبير قد سيرك إلى الطائف، فأحدث الله لك بها ذكراً، وحط عنك وزراً». [١]

ولعل الله - سبحانه وتعالى - قد استجاب عوة محمد بن الحنفية، فأصبح الطائف مقترنا باسم ابن عباس، واسم ابن عباس مقترنا بالطائف، ولم يضر ابن عباس بعده عن مكة، ولا ابتعاده عن ابن الزبير إلى هذا المصيف، الذي أصبح منذ ذلك الحين حديقة الموسرين من الهاشميين. كانت تصب فيه الثروات التي يأتي بها الفاتحون والمرابطون في الثغور، ممن أثروا من الغنائم، مالاً وجواهر ورقيقاً.

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٥٣٣.

ونجاح ابن الحنفية في قوله جاء من أنه اعتمد الدعاء عموداً لقوله، ولم يخلطه بغيره.

وهذه بعض ملامح للتهنئة، وهي قليلة من كثير مما تعج به كتب الأدب والتاريخ؛ وكتب التاريخ لا تكاد تخلو صفحاتها من تهنئة ملك تولى الملك، يأتي هذا نثراً، ويأتي شعراً. والوقائع المسرة في حياة الناس تكاد لا تحصى؛ ودواوين الشعر شاهد على ذلك وفيها صور بديعة مبتكرة، جاء الشعراء بما لا يحصى منها، مما يدل على عقل وخيال، وحسن اختيار، ولباقة متناهية، ولن يعدم المتتبع من أن يجد أنه لا معنى يخطر في هذا المجال بالبال إلا جاؤا به. وما جاء هنا ما هو إلا لمحة سريعة، أرجو أن تكون أعطت من الالتفات ما يوجب المتابعة والاستفادة من كتب التراث في هذا المجال.

❊ ❊ ❊

لمحة عن القضاء[1]

القضاء عمل لا يَستغني عنه مجتمع، ولا تستوي بدونه أمة من الأمم؛ فهو مركز مهم، يُلجأ إليه عند النزاع، ويُراجع عندما يغمض أمر، أو تُبهم مسألة؛ القائم به عادةً حكيم مجرب، وموثوق به من عامة أهل المجتمع، إنْ باديةً أو حاضرة، مدينةً أو قرية؛ صاحبه محترم، مبجل، لما يقوم به من عمل، ولما يتصف به من خلق، ولما يَعترف له به أفراد المجتمع من فضل؛ يُفاخِر مجتمع غيرَه بالحَكَم، أو القاضي، يبرز، لفكر نير، وقول مصيب.

وحكم القاضي العادل يأتي بلسماً لجراح الاختلاف بين الناس، فهو ميزان عدل، يجد الناس فيه إنصاف بعضهم من بعض، والمنصف من نفسه يفرح بالحكم، حتى إذا لم يكن في صالحه، لأنه وفر عليه، كما يقول التعبير العامي «ماء الوجه»، فلا ينسحب في الموقف

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٦٨) في ٤/ ٦/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٥م.

غير العادل، الذي وقفه خطأ، من نفسه، بل يكون ذلك بحكم الحَكَم، أو القاضي، والعرف يوجب، في المجتمعات الأولى، أن يحترم الحُكْم، ويقبل على أنه الحق، من رجل يفترض فيه أنه رأى من الحقائق، والأسس، ما لم يره المتنازعان، أو المتنازعون؛ وحكمه فصل فيما يتقدم به الخصوم، ولا يلحق أي الطرفين ملامة؛ فالمنازِع الذي ليس معه الحق، لم يكن يعرف هذا، وإنما إنساق وراء رأي موهم، استبدّ به، وحجب عن عينه ما رآه خصمه أولاً، والقاضي تالياً.

وفي كثير من الأحيان لم يكن الاحتكام أو التقاضي نتيجة خصومة، أو بسبب نزاع، ولكنه أقرب إلى طلب النصح، والرأي، في أمر عسر على المتنازعين معرفة الصالح في العمل الذي وقفا حائرين أمامه، فهما يبحثان عمن يهديهما إلى الحل الملائم، بحيث لا يهضم حق أحد؛ وتجربة الحَكَم، وعلمه، وفهمه، وتجرده، ونظره إلى الأمر من بعد، كفيل أن يوصل

إلى النتيجة المرضية، التي يبحث عنها المتحاكمان، أو المتحاكمون.

هذه هي الصورة في الأزمنة الأولى، في المجتمعات غير المتحضرة، والحَكَم يُنْصب عرفاً ليحكم بالتراضي بين الأفراد، أو بين مجتمع ومجتمع؛ وقد يكون هناك أكثر من حَكَم، إذا كان النزاع بين فريقين أو قبيلتين؛ وكم استطاع حكام مَنْع نزاع أن يستفحل، وحرب أن تتقد نارها، أو يتطاير شرارها؛ إما بالجلوس معاً، أو بتبصير كل حكم قومَه بما يهدّئ النفوس، ويأتي بالحقوق عن طريق السلم، والتفاهم، لا عن طريق الحرب والتنازع.

وفي المجتمعات المتحضرة، في الأزمان الغابرة، كان هناك قضاة معينون، لهم قواعد يسيرون عليها، ونظام لا يخرجون عنه، حكم هؤلاء القضاة في المدن الكبرى، والمجتمعات المزدحمة بالسكان.

وجاء الإسلام، وعرب الجاهلية يحكمهم حكماء أو عرافون مشهورون، تضرب لهم أكباد الإبل؛

يأتيهم المتحاكمون من أقصى بقاع الجزيرة، طلباً لفتواهم في الأمور المغيبة، والأمور المبهمة، والأمور المعقدة، فيحكمون بينهم، ويظهرون لهم ما خفي من الأمور، ويصدرون الحكم بجمل مسجوعة، تضفي على الحكم هيبة، وتساعد على بقاء الحكم محفوظاً في الأذهان.

والأحكام التي أصدرها هؤلاء العرافون سجلها الأدباء والكتاب، ودخل بعضها النحل أو الزيادة؛ خاصة تلك التي تدعي علم الغيب، والتنبؤ بما سلف مما هو غير معروف، أو ما سيأتي؛ وأوجدت هذه القصص تبجيلاً، واحتراماً، لهؤلاء الأشخاص، سواء أثناء حياتهم، أو بعد موتهم.

وكان أغلب الأحكام الصائبة التي تروى عن بعضهم، يرتكز على الفراسة، التي تقوم على استقراء بعض الحوادث، ودراسة بعض الظواهر، مما يوحي ببعض الأمور، التي يأتي استنتاجها بالنتائج المدهشة؛ مثل قصة هند بنت عتبة، وما اتهمها به زوجها مما

حدا بوالدها أن يأخذها إلى عراف في اليمن، أصدر حكمه ببراءتها؛ وليتأكد عتبة من قدرته على معرفة كنه الأمور اختبره بأن خبأ حبة قمح، في مكان لا يخطر ببال أحد أن يعرفه، وقد عرفه العراف، ونجح عند الامتحان؛ وإذا صح هذا، فلعل العراف ممن يقرأ الأفكار، فقرأ فكر عتبة؛ وقراءة الأفكار أصبحت معروفة في العصر الحديث؛ وإذا كان هؤلاء العرافون، وهم قليلون نادرون، يقرؤون الأفكار، فهذه ملكة تعطيهم المقدرة على ما يدور في ذهن المتنازعين، فتصبح كأنها اعتراف صريح بما فعل أحدهم، أو نوى أن يفعله، وهذا يجعل الحكم سهلاً؛ والعراف يعمد إلى كشف بعض ما تبين له من قراءة أفكار المتخاصمين، حتى يهيء أنفسهم للحكم، فلا يفاجؤا، أو يصبح حكمه غير مبرر، فإذا كان الأمر أمر قتل، فإنه يكشف عن خطة الاستدراج التي تدور في ذهن القاتل، وهو لا يدري أن فكره يقرأ، وهذا يذهل القاتل، ويشل أي نية عنده للإعتراض،

وقد يداخله الخوف في أن يكشف العراف ما هو أشد من قتله شخصاً آخر، وهكذا.

وأما ما لم يحدث بعد، مما يدخل في علم الغيب، فهو يعطي أقوالاً عامة، وجملاً تحتمل المعنى وضده، وقد يجر المذنب أمامه إلى التفكير فيما سوف يفعله مستقبلاً، فيقرأ فكره عنه، فيكشف العراف طرفاً من الأمر، فيحذره، فيكسب العراف بهذا سمعة متناهية؛ والحقيقة أن العراف لا يعرف إلا ما يعرفه من أمامه، لأن الله أعطاه ميزة قراءة الفكر، التي لم يعطها إلا لأناس قلائل، اعتبروا فيها من أصحاب الفراسة الفائقة، وهي لا تعدو أن تكون ميزة مثل ميزة الطبيب القادر على التنويم المغناطيسي، وهو علم أصبح اليوم يدرس، واعترف به في الطب، إلى الحد الذي سُمح فيه لأطباء الأسنان أن ينوِّموا، مغناطيساً، مرضاهم الذي لا يرغبون في التخدير المعتاد.

وجاء الإسلام بنوره الساطع على الأذهاب، وأشعته المضيئة على النفوس، فانكسفت شمس

العرافين، وأظلمت دنياهم، واستقام أمر الحكم والقضاء، معتمداً على الدين والعقل، والفراسة والنباهة، ولم يعد في الأمر جوانب مظلمة، ولا زوايا مبهمة، ولم يعد أمام المتحاكمين والقاضي، إلا الحقائق الواضحة، يتبع هذا حلف اليمين، أو شهادة الشهود، أو هما معاً؛ ويصدر الحكم جلياً واضحاً، مثل وضوح الشمس، ومثله الأسباب التي أدت إليه.

وكان أول القضاة في الإسلام الرسول ﷺ، بما جاء به من دين، وما أصدره من فتوى، وما حكم به من أحكام. ثم سار على نهجه الخلفاء الراشدون ـ رضي الله عنهم ـ قضاة بأنفسهم، لما يعرض عليهم، أو من يعينونه على القضاء، نائباً عنهم، في المدن التي هم فيها، أو من يبعثونهم إلى بلدان أخرى، حُكّاماً فيها وقضاة، أو قضاة فقط مع حاكم آخر منفذ.

ثم تطور الأمر حتى صار في كل مدينة قاضٍ، أو أحياناً أكثر من قاض؛ وكان يجلس في بعض الأحيان بجانب القاضي من العلماء والفقهاء من يكون

مستعداً للاستشارة إذا أوجب الأمر، كأن تبرز أمام القاضي مسألة فيها شبهة، أو صعوبة، أو اختلفت فيها الأقوال، والآراء.

وكان الأمر في أوله طبعياً، سهلاً، مبسطاً، يحكم القاضي وهو يسير في الطريق من بيته إلى المسجد، وأحياناً ينتظم جلوسه للناس في بيته، أو في المسجد، أو في مكان ملحق به؛ ودُوِّن عن ذلك صفات وأحوال، تبين تطور الأمر من زمن إلى زمن، ومن خطوة إلى خطوة، ونظرة الناس، أو القاضي، إلى مكان القضاء، والمناسب منه، والمفضل؛ ودُوِّن عن صفة مجلس القضاء بعض المعلومات المفيدة في معرفة نمو مهنة القضاء، وتطورها، من أخذ معاش عنها، أو عدمه، ومن تحرز تجاه هذا، أو إقدام، وما قام حول هذا من جدل، وما قدم من اعتراض، وما قبل من ذلك، وما ردّ.

ودُوِّن كثير عن التخوف من القضاء، والهيبة منه، وما اتخذه الحكام من خطوات لاختيار القضاة،

وما قابلوه من قبول، أو تمنع؛ والجهود التي بذلوها في إقناع من اختاروا للقضاء ممن لم يرغب فيه، وما اضطروا إليه من إجبار من اختاروا للقضاء عليه، حتى وصل الأمر إلى الإهانة والسجن؛ وما جاء أثناء ذلك من حيل يلجأ إليها العلماء المؤهلون للقضاء حتى يتفادوا أن يقعوا فيما يعتقدون أنهم سوف يأثمون فيه أكثر من أن يؤجروا.

وما دون في هذا المجال لم يخل بعضه من طرافة، ومن فائدة، وكشف لما كانت عليه الحياة في ذلك الزمن، وبيان لما كان عليه فكر أصحاب الشأن في هذا المجال، وما كانوا يقابلونه لقاء قيامهم بعملهم، وصلاح مجتمعهم.

والخوف من القضاء مرده إلى التقوى، وخشية الزلل، ومن يُرغم على القضاء يعتبره بلوى، كما عبر أحدهم عن ذلك، قبل ما يقرب من مئة عام؛ إذا استهل وثيقة من الوثائق التي كتبها في حكمه لمتقاضيين، بقوله: «سنة ابتليت بالقضاء». وتقشعر

أبدان التقي منهم، ويصاب برعب عندما يتذكر قول الرسول ﷺ :

«من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح من غير سكين» .

وهو قول له مدلوله، وله صداه، تتجاوب له جنبات صدر القاضي، ويرن في نفسه .

ويؤكد الخشية في قلب القاضي التقي قول الرسول ﷺ :

«القضاة ثلاثة، فرجل علم، فقضى على علم، فجار فيه، واعتدى؛ فذاك في النار، ورجل جهل فقضى على الناس، فأتلف حقوقهم، وأهلكها بجهله، فذاك في النار؛ ورجل عَلِم، فقضى بما علم، فوافق ذلك الحق، فهو في الجنة» .

والحديث مروي بعدة صُور، وما على ألسنة الناس : «القضاة ثلاثة : قاضٍ في الجنة، وقاضيَان في النار» ، يرددونه دائماً في هذا الصدد .

وأحد الذين طلبوا للقضاء، واستعفى، كعب، والقصة الآتية تبين الجدل الذي قام بينه وبين ولي الأمر، عندما أراده على القضاء:

«عن ابن مسعود عن كعب:

بعث عمر إلى كعب: إني جاعلك قاضياً.

قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين.

قال: لِمَ، يا كعب؟

قال: إن القضاة ثلاثة: فقاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: قاض علم، وترك علمه، فقضى بجور، وقاض لم يعلم، فقضى بجهالة، فهو معه في النار، وقاض قضى بعلمه، ومضى عليه، فهو من أهل الجنة.

فقال: يا كعب، فإنك قد علمت؛ تقضي بعلم، وتمضي عليه.

قال: يا أمير المؤمنين، أختار لنفسي أحب إليّ من أن أخاطر بها». [1]

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ١٦.

وقد أراد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ابن عمر على القضاء، فاستعاذ منه، وذكر الحديث، واحتج به، فلما ألح عثمان عليه قال:

«أما سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من استعاذ الله فأعيذوه؟» وأنا أعوذ بالله أن أكون على القضاء» .[1]

ويأتي قول آخر للرسول ﷺ تنقله الكتب، زيادة على التشديد في القضاء:

«ما من حكم بين الناس إلا أتي به يوم القيامة، ومَلَكٌ آخذ بقفاه، فيوثقه على شاطئ جهنم، ثم يرفع رأسه، فإن قيل له ألقه، ألقاه في مهواه، يهوي فيها أربعين خريفاً» .[2]

وتمتلئ كتب التراث بصور الرهبة من القضاء، والتخويف منه، وتأتي القصص تباعاً في ذلك، ومن ذلك القصة الآتية:

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ١٨.
(٢) أخبار القضاة: ١/ ١٩.

«قال محمد بن سيرين :

كنت عند عبدالله بن عتبة، وبين يديه كانون، فيه نار، فجاء رجل، فجلس معه على فراشه، فسارّه بشيء، ما ندري ما هو. فقال له ابن عتبة :

ضع لي إصبعك في هذه النار.

فقال الرجل: سبحان الله! تأمرني أن أضع لك إصبعي في النار!

فقال له: أتبخل عليّ بإصبعٍ من أصابعك في نار الدنيا، وتسألني أن أضع جسديَ كله في نار جهنم!

فظننا أنه دعاه إلى القضاء». [1]

ويتوالى قص القصص التي تري رأي العلماء في أمر القضاء، وما مر ببعضهم من دعوة واعتذار، وإلحاح، وعزوف؛ ويتبين أن أعلم الناس بالقضاء أشدهم له كراهة.

ـ[2] ويكشف العلماء، في حديث بعضهم مع بعض،

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٢.

(٢) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في «عكاظ».

عما يجول في أذهانهم عن الرغبة عن القضاء، وخوفهم منه، وتوقعهم الزلل فيه، رغم إيمانهم بأهميته، ووجوب وجود قاض يحكم بين الناس فيما يشجر بينهم، وهذه إحدى القصص التي تبين جانباً من جوانب الجدل في القضاء:

«قال أيوب:

طُلب أبو قِلابة للقضاء، فلحق بالشام، فأقام زمانا، ثم قدم، قال:

فقلت: لو وليت قضاء المسلمين، فعدلت بينهم، كان لك بذلك أجر.

قال: يا أيوب، السابح إذا وقع في البحر، كم عسى أن يسبح؟» .[1]

ومما يؤكد نظرتهم إلى أهمية القضاء، وحرصهم على أن لا يليه إلا الكفيء التقي، رغم محاولة ابتعادهم عنه، وحرصهم على تجنبه، وتحرزهم عن ألاّ يَلُونه، القصة الآتية:

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٣، عيون الأخبار: ٢/ ٤٠٢.

«قال المعلّى بن رؤبة:

قال لي رجاء بن حيوة: ولّى الأمير اليوم عبدالله ابن موهب القضاء، ولو اخترت بين أن أحمل إلى حضرتي، وبين ما وُلِّي ابن موهب، لاخترت أن أحمل إلى حضرتي.

فقلت له: فإن الناس يتحدثون أنك أنت أشرت به!

قال: صدقوا، لأني نظرت للعامة، ولم أنظر له». (١)

وانتقال الفكر من مصلحة فرد إلى مصلحة الجماعة، أمر يطرق ذهن الخيّرين، الذين يجيلون الفكر في سبل الصلاح والتقوى، ويراعون الله فيما يفعلون، فيعطون كل ذي حق حقه، ويتجنبون الحيف، والوقوع تحت تأثير فكرة واحدة، تستولي على الذهن، وتحرمهم من تقليب الأمر على جميع جوانبه، ومثل القصة السابقة في نصح الفرد بما يفيده، ونصح ولي

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٣.

الأمر بما ينفع الناس، القصة الآتية:

«استشار زيادُ بن عبيدالله الحارثي عبيدالله بن عمر في أخيه أبي بكر، أن يوليه القضاء، فأشار، فبعث إلى أبي بكر، فامتنع عليه، فبعث زياد إلى عبيدالله، يستعين به على أبي بكر، فقال أبو بكر لعبيد الله:

أنشدك الله أترى لي القضاء؟

قال: اللهم لا.

فقال زياد: سبحان الله! استشرتك، فأشرت به، ثم اسمعك تنهاه!

فقال: أيها الأمير، استشرتني، فاجتهدت لك الرأي، ونصحتك، ونصحت للمسلمين، واستشارني، فاجتهدت له رأيي، ونصحته». [1]

إن مجرى التفكير واحد في ذهن كل من صاحبي القصتين اللتين مرتا بنا، ولا يختلف فيهما إلا الزمن، والتفكير السليم الصافي الموحد هذا، أوجده الإسلام بهذا الضياء الوهاج.

---

(١) سراج الملوك: ٢٤٦.

وتأتي التعبيرات المنفرة عن القضاء بصيغ مختلفة، تدل على عدم التهافت على هذا المنصب الخطير، ويأخذ التفكير في ذهن أصحاب هذه الأقوال مناحي مختلفة، جاءت نتيجة نظرات مختلفة الزوايا، متفقة المحور، واضحة الهدف، وهذا أحد هذه الأقوال:

«حدث عبيد بن الوليد الدمشقي، قال:

أخبرني أبي، قال: أخذ بيدي مكحول، فقال:

ما أحرصك يا ابن أبي مالك على القضاء! لو خيرت بين القضاء، وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي» . (1)

رجح هذا الرجل التقي قطع رقبته على توليه القضاء، وعافت نفس آخر سواري ذهب بحجم سواري المسجد والقصة كمايلي:

«دعا عمر بن هبيرة رافعاً، ليوليه القضاء، فقال:

ما يسرني أني وليت القضاء، وأن سواري مسجدكم

---

(1) أخبار القضاة: ١/ ٢٤.

هذا لي ذهبا» .[1]

وثالث يأتي بفكرة أخرى، تدل على نفرته من القضاء، والصورة تنفر من هذا المنصب، وتخيف منه، وتجعل لقبوله مغرماً كبيراً، والقصة كمايلي :

«قال الفضيل بن عياض : إذا ولي الرجل القضاء فليجعل للقضاء يوماً، وللبكاء يوماً» .[2]

وإذا كان أحد العلماء هرب إلى الشام بعداً عن القضاء، ورهبةً من حِمله الثقيل، فإن هناك من أقدم على الجنون، وتظاهر به؛ واختار ذلك على ما فيه من سهام النقد، سعيداً مرتاحاً، وهذه هي القصة :

«عن حريش بن أبي الحريش، قال :

طُلب رجل للقضاء؛ فتجانّ، وتحامق، وركب قصبة، واتبعه الصبيان .

قال : وكان رجل حلف ألا يتزوج حتى يستشير أول من يلقاه، فلقيه، فاستشاره، فقال :

(١) أخبار القضاة : ١/ ٢٤ .

(٢) أخبار القضاة : ١/ ٢٤ .

البكر لك، ولا عليك؛ والثيب لك، وعليك، وذات الجلاوز (أم الأولاد) عليك، ولا لك؛ خلّ سبيل الجواد.

فقال له: ما قصتك؟

قال: إن هؤلاء أرادوني على ذهاب ديني، فاخترت ذهاب عقلي. امض لسبيلك» .[1]

وافتعال العلماء للجنون هرباً من القضاء يأخذ صوراً مختلفة، تدل على مدى ما يعتمل في أنفسهم من رهبة وتصميم تجاه القضاء، ويصل الأمر بأحدهم إلى تشويه صورته الحسنة التي أنعم الله بها عليه، وهذه هي القصة:

«قال حماد بن كثير الأسدي: رأيت القاسم بن الوليد الهمداني ـ وأرسل إليه يوسف بن عمر يوليه القضاء ـ فرأيته يكحل عينيه بالزيت، ويجز لحيته. فلما دخل على يوسف قال: هذا مجنون، أخرجوه» .[2]

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٥.

(٢) أخبار القضاة: ١/ ٢٦.

وتؤكد بعض المواقف أنه في زمن من تلك الأزمان كان العالم لا يقبل القضاء إلا مضطراً، وكان الواحد منهم يدافع ذلك ما أمكن، وفي القصة الآتية ثلاثة علماء، إثنان منهما احتالا حيلاً طريفة تدل على ذكاء، والثالث أجبرته الحاجة إلى القبول، وهذه هي قصتهم:

«قال حميد بن الربيع:

جيء بعبدالله بن إدريس، وحفص بن غياث، ووكيع بن الجراح، إلى هارون الرشيد؛ دخلوا ليوليهم القضاء؛

فأما ابن إدريس فقال:

السلام عليكم؛ وطرح نفسه كأنه مفلوج؛ فقال هارون: خذوا بيد الشيخ؛ لا فضل في هذا.

وأما وكيع فقال:

يا أمير المؤمنين، ما أبصرت بها منذ سنة.

ووضع إصبعه على عينه، وعنى إصبعه؛ فأعفاه هارون.

وأما حفص فقال:

لولا غلبة الدين والعيال ما وَليت» .[1]

وقد لا يقبل العذر، ويرغم العالم على القضاء، أو يورد السجن، أو يضرب، ومن أمثلة الحالات التي سجن فيها القاضي لرفضه قبول منصب القضاء، القول الآتي:

«قال موسى بن سعيد بن سالم:

لقد رأيت في سجننا هذا، يعني سجن البصرة، رجلاً محبوساً في أمرين متفاوتين: رأيته محبوساً في الشطارة؛ ثم رأيته محبوساً في أن أبى أن يلي القضاء» .[2]

وهذه رواية طريفة، وموقفان عجيبان، يستوجبان الدهشة، فالشطارة يصاحبها الخبث والصعلكة، والقضاء يصاحبه العلم والتقوى. ويبدو أن الرجل

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٧.

(٢) دعا أبو جعفر أبا حنفيفة إلى القضاء، فأبى، فحبسه، ثم دعا به، فقال له: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء؛ فقال: كذبت. فقال أبو حنيفة قد حكم علي أمير المؤمنين بأني لا أصلح، لأنه نسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذباً فإني لا أصلح، وإن كنت صادقاً فقد قلت إني لا أصلح، فرده إلى الحبس. البصائر: ٩/ ٢١٢، أخبار القضاة: ١/ ٢٧.

في أول شبابه كان مزعجاً لأهله، وأعياهم منه عدم استقامته، فظنوا في حبسه صلاحاً له، وكفًّا له عن الأذى، فأدخلوه، أو أدخله غيرهم، السجن بسبب تعديه وشره، ثم فتح الله عليه، وأولجه باب العلم، وأسبغ عليه منه ثوباً ضافياً، أَهَّله للقضاء، ولكن تقاه، وورعه، منعاه من قبول ذلك، فحنق عليه الحاكم، وأدخله السجن؛ ولعل في هذا تكفيراً له عن ذنوب له سابقة.

والرجل الخيّر الذي قال عن القضاء ومنصبه أنه ابتلاء، لم يأت بالكلمة من عنده، وإنما استقاها مما يقال إنه حديث عن الرسول ﷺ روي من عدة وجوه وبعدة صور، أحدها:

«عن أم سلمة قالت:

قال رسول الله ﷺ: إذا ابتلي أحدكم بالقضاء فلا يُجْلِسْ أحد الخصمين مجلساً لا يجلسه صاحبه؛ وإذا ابتلي أحدكم بقضاء، فليتق الله في مجلسه، وفي لحظه، وفي إشارته». [1]

(١) أخبار القضاة: ١/ ٣١.

ولعل وصف وظيفة القضاء بالابتلاء جاء من أنها مجال للتحرج، والخوف من الزلل؛ والحاكم أحياناً مضطر إذا وجد الكفيء أن يرغمه على العمل لخدمة المجتمع، لأن ترك ذلك فيه ضرر على الناس، مما يستوجب على الحاكم أن يسد باب هذا الضرر، لأن صورته أعظم من صورة تخوف العالم، وخشيته من الزلل؛ وهذا هو مأتى منطلق الحاكم أحياناً، كما حدث في العصر العباسي، في أن يجلد ويسجن من تأبى عن قبول منصب القضاء.

والأمر حسب النية، فإذا قبل العالم أن يكون قاضياً، وقصد العدل، وصالِحَ الناس، أعانه الله على عمله، وفتح له الأبواب المغلقة، من المسائل الغامضة، وألهمه الصواب في أحكامه، وبصره بأمر الخصوم، وما يدور في أذهانهم، هم والشهود، من قول الحق فيما يلفظون به، أو قول الزور فيما يدلون به؛ وقد روي عن الرسول ﷺ في عون الله للعبد، ذي النية الحسنة، الراغب في الصلاح والإصلاح، قوله:

«إذا جلس القاضي في مكانه هبط عليه ملكان، يسددانه، ويوفقانه، ويرشدانه، ما لم يَجُر؛ فإذا جار عرجا، وتركاه». [1]

وإذا كان هناك أقوال له ﷺ تخوف من القضاء، فله مثل هذه الأقوال، التي توحي أن هناك في القضاء مجالاً للاحتساب، والسعي لكسب الأجر والثواب.

والقاضي ذو سلطة عظمى في المجتمع، لأن يده تمتد بالدين، تعطي وتمنع في ضوئه، تثيب وتعاقب في هديه؛ وكلما كان عادلاً قوي مركزه في مجتمعه، ودخل قلوب الناس، وصار ـ بإذن الله ـ سبباً من أسباب سعادة المجتمع، وازدهاره؛ وهذا يجعل مسؤوليته كبرى، ثوابه في إتقانها كبير، وإثمه في الجنوح عن السبيل المستقيم كبير كذلك. والقاضي الناجح الموفق هو الذي يراعي الله، وينسى الناس عند هذا، مهما كبر مقامهم، أو قويت سلطتهم.

ولا تكفي القاضي النية الحسنة، والقصد النبيل،

(١) أخبار القضاة: ١/ ٣٦.

ولا العلم الغزير، وإنما يحتاج إلى الفراسة، ومعرفة ما وراء تصرف الناس؛ وتفيده فوق ذلك التجارب، وما تخزنه ذاكرته مما يمر به من مواقف، وما يقابله من أمور؛ وقوة الذاكرة نعمة من الله تضاف إلى نعمه الأخرى التي يحتاجها القاضي، ليطمئن إلى أنه في مأمن من الغفلة، وختل المتقاضين، وغشهم وخداعهم؛ فالمتقاضون في بعض الأزمنة، وفي بعض المجتمعات، لا يألون جهداً في محاولة كسب ما نازعوا من أجله حتى إن كان باطلاً؛ والرشوة قد تكون من محاولاتهم في هذا المجال.

والرشوة آفة باترة في مجال القضاء، سواء كان ذلك في وقوع القاضي نفسه في الرشوة، أو أحد معاونيه؛ وقد سجل التراث بعض الوقائع الغريبة في هذا المجال، ولهذا جاءت الأحاديث منبهة إلى الرشوة بجميع المشتركين فيها.

ولا يتصور المرء أن في قلب من يرتشي خوفاً من الله، أو استحضاراً لقدرته، أو تذكراً لما نهى عنه، في

تلك اللحظة التي يطغى فيها بريق الرشوة، وما تأتي به الرشوة من مكاسب؛ وما هو إلا أن يرتشي المرء مرة، فيسري مال الحرام في دمه، فيصبح متعلقاً به، مدمنا عليه؛ وإذا كان في أول الأمر عرض عليه الارتشاء، وأغري به، فإنه فيما بعد يكون هو البادئ، وهو المطالب، وهو الذي يعطل المصالح حتى «يدهن سيره»، ويعطى الدفعة التي تحرك ما وقف من مفاصل عمله.

وقد يبدأ الأمر صغيراً، وهذا هو طعم الشيطان، ثم يكبر ويكبر، حتى يتعدى حدود المعقول، نوعاً وعدداً؛ والأمر أمر مبدأ، فإذا ما كسر المبدأ ران الباطل على القلب، ولم يعد يُرى إلا هو؛ والأمر يبدأ بتبرير مضلل كأن يقارن الشخص بينه وبين آخر، فيدعي أن مماثله أخذ أكثر مما أخذ، وبما أنه لم يعط حقه فعليه أن يأخذ حقه بيده، وبالطريق التي يراها موائمة؛ ثم ينتقل إلى خطوة أخرى، وفيها يصبح غير محتاج إلى مقارنة حاله بآخر، وإنما يرى

أنه مهضوم الحق عند رؤسائه، وأنهم لا يقدرونه حق قدره؛ وأنه بتجربته، ومقدرته على العمل أكثر من غيره، فإنه في حاجة إلى الحافز، والتقدير، وإن عليه أن يحصل عليه دون حاجة إلى أن يمر بالطريق السليم، فالغاية واحدة، وهي جيبه، وهكذا حتى يصبح الشر عنده عملاقاً مسيطراً، يغطي بجسمه الضخم أي بصيص لنور الحق والاستقامة، ويصم أذنه عن صوت الخير والعدل.

والرشوة لما فيها من شر نبه إليها الرسول ﷺ بكل أركانها ومقوماتها، ورأى أن مقاومتها لا يكفي أن تأتي من واحد من أطرافها، بل يجتمع فيها كل واحد منهم، فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ:

«عن ثوبان، قال:

لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما» .(1)

وقد جاء هذا اللعن في عدة روايات مختلفة،

---

(1) أخبار القضاة: ١/ ٤٧.

ومنها:

«عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: لعن الله الآكل والمطعم الرشوة». [1]

«وعنه أيضاً:

الراشي والمرتشي في النار». [2]

ويبدو أن الرشوة، وهي نقيصة تنتشر في بعض المجتمعات، ويتصف بها بعض الناس، لم يسلم منها عهد الصحابة، بل إن الخليفة الراشد، الحازم اليقظ، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لم يسلم من محاولات رشوة أحد الناس له؛ وجاء هذا عن تخطيط، وتدبير، ولكن الله تدارك عمر، ولم يجد الشيطان إليه طريقاً، وعاد الشيطان من محاولته خاسئاً وهو حسير. والقصة كمايلي:

«حدث أبو جرير الأزدي قال:

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٤٧.

(٢) أخبار القضاة: ١/ ٤٧.

كان رجل لا يزال يهدي لعمر فخذ جزور، قال: إلى أن جاء إليه ذات يوم بخصم، فقال له:

يا أمير المؤمنين، اقض بيننا قضاءاً فصلاً، كما تفصل الفخذ من سائر الجزور.

قال عمر: فما زال يرددها علي (حتى) خفت على نفسي.

فقضى عليه عمر؛ ثم كتب إلى عماله:

أما بعد، فإياي والهدايا، فإنها من الرشا». (١)

ويقال إن التي حاولت أن ترشي عمر امرأة، وليس رجلاً، والمهم هو أنه حتى في ذلك الزمن، والناس قريبو عهد بزمن الرسول ﷺ وهم في زمن عمر على شدته وحزمه، لم ييأس الشيطان من محاولة الاستفادة من مكامن الضعف من نفوسهم.

وهناك قول يدل بوضوح على أن أمر الهدايا لفتت النظر منذ زمن الرسول ﷺ مما أوجب منه التفاتة، وإرشاداً، والقصة كمايلي:

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٥٦. الإشراف: ٢٥١، ٢٩٤، ٢٩٥.

«استعمل النبي ﷺ ابن اللُّتبية على الصدقة، فجاء بالمال، فدفعه إلى النبي ـ عليه السلام ـ فقال: هذا مالكم، وهذه هدية أهديت إليَّ:

فقال النبي ﷺ: أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك، فتنظر أيهدى إليك أم لا؟

ثم قام النبي ـ عليه السلام ـ خطيباً، فقال:

ما بال أقوام نستعملهم على الصدقة، فيقولون: هذا لكم، وهذه هدية إليّ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا» .[1]

وهذا مجال للزلل، ومدخل للشيطان، يوحي للمرء بالفرق بين ما جبي على أساس الشرع، وبين ما أهدي رضى وقناعة، ظاهراً، ولكنه في الباطن تحبباً إلى الجابي، ومحاولة للتأثير عليه؛ وقد بـيَّنَ الرسول ﷺ الأمر، بأنه لم يهد له إلا لمنصبه، ولو لم يكن في هذا المنصب لما التفت إليه أحد.

وقد التبس الأمر على رجل تقي، فاستشار ولي

(١) أخبار القضاة: ١/ ٥٧.

الأمر، وكشف له عما يدور في نفسه في أمر الهدية تهدى له، وهو عامل الخليفة، والجابي للصدقة لبيت المال، وقصد تطهير نفسه من الإثم، وإبعاد الشبهة عن فكره، والقصة كمايلي:

«استعمل عليّ ـ رضي الله عنه ـ رجلاً من بني أسد، يقال له: ضبيعة بن زهير؛ فلما قضى عمله أتى عليّاً بجراب فيه مال؛ فقال:

يا أمير المؤمنين، إن قوماً كانوا يهدون لي حتى اجتمع منه مال، فها هو ذا، فإن كان لي حلالاً أكلته، وإن كان غير ذلك، فقد أتيتك به.

فقال عليّ: لو أمسكته لكان غلولاً.

فقبضه منه، وجعله في بيت المال». [1]

ومداخل الشيطان على جباة الزكاة كثيرة، وواسعة، ولا ينجو منها، إلا من تداركه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعنايته، فمنظر المال، والحاجة، وتقرب أصحاب الدواب، أو الزراعة، كلها أمور تساعد على ضعف

(١) أخبار القضاة: ١/ ٥٩.

الإنسان، وتنبت في صدره الحجج التي يستطيع عن طريقها أن يخدر وسائل المقاومة عنده، فتضعف حراسة طرق الخير في نفسه، فيدخل الشر مطمئناً متوغلاً متمكناً.

وفي الأبيات التي ساقها عبدالملك في موقف من مواقف الرشوة في القضاء صورة واضحة لدخول عوامل الشر لنفس الإنسان مما يضطر عوامل الخير إلى الخروج، إذ لا يستقيم الإثنان المتضادان في مقعد واحد. والقصة هكذا:

«كُتب إلى عبدالملك بن مروان في قاضٍ ارتشى؛ فكتب إليه عبدالملك:

إِذَا رِشْوَةٌ حَلَّتْ بِبَيْتٍ تَوَلَّجَتْ
لِتَـدْخُـلَ فِيْـهِ وَالأَمَـانَـةُ فِيـهِ
سَعَتْ هَرَبًا مِنْهَا وَوَلَّتْ كَأَنَّها
تَوَلِّي حَكِيْمٍ عَنْ جَوَابِ سَفِيْهِ»[1]

لقد رسمت هذه الأبيات صورة حسية ملموسة،

(١) أخبار القضاة: ١/ ٥٦.

لدخول غير مرحب به، وخروج مظلوم صاحبه، ومعتدى عليه؛ والأمانة ضحت بمكانها الدافئ المستقر لأنها لا تستطيع برائحتها الجميلة، وضيائها الباهر، أن تعايش رائحة نتنة، وظلمة داكنة.

ومنذ جاء الإسلام وهو يهدي إلى التي هي أقوم، ومن ذلك أحكام القضاء وطرقه، وإذا كان الرسول ﷺ هو الذي يحكم بين الناس، ويقضي بينهم في المدينة، وكان الصحابة يتعلمون من أحكامه، ويتفهمون روحها، والنسق الذي تسير عليه؛ فإنه ﷺ حرص على أن يعم العدل من أسلم خارج المدينة، فأرسل القضاة إلى ما قصي من البلاد الإسلامية، فأرسل عليًا ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن، يعلمهم أمر دينهم، ويقضي بينهم، ولم يجد عليّ صعوبة في تعليمه الدين لهم، لأنه قد تشربه منذ نعومة أظفاره، ولكنه جفل من القضاء، لصغر سنه بجانب من أرسل لهم، ولصعوبة القضاء، فدله الرسول ﷺ على الطريق في هذا، والأحاديث في هذا كثيرة،

ومنها:

«قال عليّ - رضي الله عنه -:

بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن، فقلت: إنك تبعثني إلى قوم يسألونني، ولا علم لي.

قال: فوضع يده على صدري، وقال:

إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك؛ فإذا قعد بين يديك الخصمان، فلا تقض حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول؛ فإنه أحرى أن يتبين لك.

قال عليّ: فمازلت قاضيا، وما شككت في قضاء بعد». (١)

إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - واثق من عقل عليّ، مطمئن إلى تفكيره، فوضعه على الطريق الصحيح، كيف يبدؤه، وأبان له أساساً مهماً من أسس التحاكم، وقاعدة رئيسة من قواعد التقاضي؛ وبما لديه من عقل وفراسة ودين سوف يصدر الحكم العادل.

(١) أخبار القضاة: ١/ ٨٧.

ومثلما اهتم ـ صلوات الله عليه ـ بهذا الجانب من علم القضاء، اهتم بجانب آخر مع معاذ عندما أرسله إلى اليمن، ووضع معه القاعدة الثانية، التي أصبحت أساساً ثابتاً لكل قاض بعد ذلك في الإسلام:

«بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن، فقال له:
كيف تقضي إن عرض لك القضاء؟
قال: أقضي بما في كتاب الله.
قال: فإن لم يكن ذلك في كتاب الله؟
قال: أقضي بسنة رسول الله.
قال: فإن لم يكن ذلك في سنة رسول الله؟
قال: اجتهد رأيي، ولا آلو.
قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره بيده وقال:
الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ». [1]

ويقتدي الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاؤه منهم بعده، فيسيرون في ضوء تعليمه، ويعين بعضهم

(١) أخبار القضاة: ١/ ٩٨.

بعضاً قضاة، ومن بين هؤلاء عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي دخلت الأمة في عهده في طور جديد، إذ اتسعت رقعة أرض الإسلام، وبدأ امتزاج الشعوب المفتوحة أراضيها، والداخلة في الإسلام، مما أوجد مجتمعاً جديداً، كثرت فيه الخصومة، وتطلب الأمر قضاة يذهبون، ومعهم تعليمات، يسيرون في هدي تفصيلها، وهذه إحدى وصايا عمر، وتوجيهه لأحد عماله وقضاته، وفيها ما فيها من الأسس وأعمدة القواعد، ما لا مزيد عليه:

«كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى أبي موسى الأشعري، فقال:

أما بعد:

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك الخصم، وأنفذ إذا تبين لك؛ فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له؛ واس بين الاثنين في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس وضيع من عدلك. الفهم الفهم فيما يتلجلج في

صدرك، ويشكل عليك، ما لم ينزل في الكتاب، ولم تجربه سنة؛ واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعضها ببعض، فانظر أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق، فاتبعه، واعمد إليه؛ لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، فإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

المسلمون عدول بعضهم على بعض، لا مجلوداً حدّاً، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء، أو قرابة؛ واجعل لمن ادعى حقاً غائباً، أمداً ينتهي إليه، أو بينة عادلة، فإنه أثبت للحجة؛ وأبلغ في العذر، فإن أحضر بينة إلى ذلك الأجل أخذ بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء.

البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر؛ إن الله ـ تبارك وتعالى ـ تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات؛ وإياك والقلق والضجر، والتأذي بالناس، والتنكر للخصم في مجالس القضاء، التي يوجب الله فيها الأجر، ويحسن فيها الذخر. من حسنت نيته،

وخلصت فيما بينه وبين الله، كفاه ما بينه وبين الناس؛ والصلح جائز فيما بين الناس، إلا ما أحل حراماً، أو حرم حلالاً؛ ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه الله، فما ظنك بثواب الله في عاجل دنيا، وآجل آخرة. والسلام». [1]

هذه وثيقة ضافية، سطر فيها عمر - رضي الله عنه - عصارة علم وتجربة، ونتيجة ملاحظة وتبصر، ودراسة لأحوال الناس، ومعرفة بكنه تصرفاتهم، أيّاً كان موقعهم، وسواء كانوا قضاة، أو متخاصمين، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يضاف، وهذه هي الأداة المتقنة، فمن أحسن عملها نجح، ومن لم يحسن جاءه النقص في حدود ضعفه، وقصوره.

وتستمر التجربة تتراكم تبعاتها في ذهن عمر، ويتبين له منها ما يحتاج إلى من ينبه عليه، ويكتب كتاباً لمعاوية، مثل كتابه لأبي موسى، فيضع خطوطاً متقنة لما يجب عليه أن يراعيه حاكماً وقاضياً ويمكن

(١) أخبار القضاة: ١/ ٧٠.

الرجوع إليه في أخبار القضاة.[1]

وإذا كان هذا ما يقوم به القاضي، وما يراعيه عند حكمه، فما هي الصفات التي يجب أن يبحث عنها من سوف يختار القاضي؟ وهي مرحلة مهمة من أمر القضاء، فليس كل إنسان يمكن أن يؤتمن على القضاء، لخطورته، ولاتصاله بالحقوق والأعراض؛ ولتأثيره في حياة الناس، وقد أبان عمر بن عبدالعزيز ما يعتقده واجب التوافر في القاضي، حتى يطمأن إلى حسن سيره في عمله، وقدرته على أداء فروض العمل، فقال:

«لا يصلح القاضي إلا أن تكون فيه خمس خصال:

يكون صليباً، نزهاً، عفيفاً، حليماً، عليماً بما كان قبله من القضاء والسنن».[2]

وهذه أمور أساس في مجال القضاء، ونقص واحدة تسقط القاضي من النظر في تعيينه؛ وقد زاد آخرون ما رأوا أن فيه تكملة للصفات التي مر ذكرها، وهذا

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٧٤.

(٢) أخبار القضاة: ١/ ٧٧.

ما ورد في هذه الإضافة:

«قال المغيرة بن محمد بن عبدالعزيز:

لا ينبغي أن يكون الرجل قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال:

يكون عالماً قبل أن يُستعمل، مستشيراً لأهل العلم، ملقياً المرثع، منصفاً للخصم، محتملاً للأئمة»[1].

والعلم مشترك بين هذا القول، وما سبقه، وزاد صاحب هذا الرأي استشارة أهل العلم، وما ذكره عن المرثع، ولعله يقصد العجلة في أمره، أو إخوان السوء، أو المرجفين، أما احتماله للائمة، فلعل المقصود به أن لا يهمل أحداً منهم في معرفة رأيه، إذا كان له رأي في الأمر الذي أمامه.

وهناك أمور تتبع هذه الصفات يجب أن يستكملها القاضي في نفسه، ومنها الابتعاد عن الحكم إذا كان غاضباً، لأن الغضب يعمي عن رؤية الحق، ويجعل المرء تأخذه العزة بالإثم، فيقدم على ما يندم عليه إذا

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٧٨. الإشراف: ١٤٦.

زال الغضب، وقد ورد عن الرسول ﷺ قول في هذا، وهو:

«لا ينبغي للقاضي أن يقضي بين اثنين وهو غضبان»[1].

والقاضي لا يخيفه فقط توقع الزلل، والحيف دون أن يدري بين المتخاصمين، ولكن البغض الذي تتركه أحكامه في الناس، لأنه بين كل اثنين لابد من غاضب، وأحياناً يأتي الغضب ممن يحرص القاضي على عدم إغضابه، مراعاة للولاء الذي يدين به له، ولكن العدل يوجب عليه أن يعطي الحق، دون مراعاة أحد؛ وأحياناً الغاضبون على القاضي وحكمه، يوغرون صدر الخليفة عليه، ولكن الله يظهر الحقيقة، فبدلاً من الغضب يأتي التقدير والاحترام، والقصة الآتية تبين شيئاً مما كان حدث في هذا الجانب في العصر العباسي؛ وهو العصر الذي انتشر فيه القضاء، حتى أصبح في المدينة أكثر من قاضٍ:

(١) أخبار القضاة: ١/ ٨١. الإشراف: ٩٧.

«قال الأصمعي :

كتب المنصور إلى سوار القاضي في شيء كان عنده بخلاف الحق ، فلم ينفذ سوارٌ كتابه ؛ وأمضى الحكم عليه ؛ فاغتاظ أبو جعفر عليه ، وتوعده .

فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنما عَدْل سوار مضاف إليك ، وزين لخلافتك .

فأمسك عنه» . [1]

صدق ناصح الخليفة المنصور ، وجليس الأخوة والصدق ، فقد نبه الخليفة إلى أن عدل القاضي جوهرة في عقد الخلافة ، تلمح معلنة عن عهد نزيه ناضج ، والقاضي العدل زينة الملك ، ومفخرة الحاكم ، وطالما تمنى الحكام أن يجدوا القاضي التقي النزيه ، ليرتاح بالهم ، وتطمئن أنفسهم إلى أن رعيتهم تلقى في ظل حكمهم خيراً ؛ وأن جانباً من عملهم مسدد ، لا يشكو خللاً ، ولا يتعرض لخطل .

ومع علم القاضي وورعه وتقواه ، لابد أن تكون

---

(١) البصائر : ٥/ ١٤٧ .

له فراسة تزداد مع الوقت، وتنصقل بالتجارب، فيكون لمّاحاً لما قد لا يفطن له الآخرون؛ والفراسة، والتصرف الذكي يكون كل منهما عنصراً مهمّاً للوصول للحكم، وقد لا يكون الحكم صعباً، ولكن الوصول إلى حقيقة ما يدعيه الخصمان هو الصعب، وهذه إحدى القصص التي لعبت الفراسة والذكاء فيها دوراً رئيساً، أدى إلى معرفة الحقيقة، التي هيأت للحكم العادل، والرأي الصحيح:

«اختصم إلى أسد بن عبدالله اثنان في كبة غزل، فقال أحدهما:

هذه كبتي، وجاء ببينة.

وقال الآخر: هذه كبتي، وجاء ببينة.

فقال لأحدهما: على ماذا كببت؟

قال: على لوزة.

وقال للآخر: على ماذا كببت؟

فقال شيئاً آخر.

فنقضت الكبة، فوجدت على لوزة؛ فأعطاها

صاحب اللوزة» .[1]

لقد وفق القاضي أسد بن عبدالله إلى معرفة الطريق إلى الحقيقة، وقد يبدو لنا الأمر سهلاً الآن، بعد أن رأينا ما فعله أسد، ولكن هذا الأمر لم يتبين للخصمين في ذلك الوقت، مما احتاج منهما إلى اللجوء إلى قاضٍ يحكم بينهما، ويجد الطريق إلى ما يحق الحق، ويبطل الباطل، أو يزيل اللبس.

والقاضي إياس بن معاوية يضرب به المثل في الذكاء، وقوة الفراسة، ومع علمه، وفضله، تجمعت عنده تجارب تساعده على سرعة البت في الحكم إلى الحد الذي لفت نظر مراقبيه، وأبدى أحدهم ملاحظته لإياس، فرد عليه رداً مقنعاً، جاء بطريقة عمل، لا تدع مجالاً للشك فيما ذكره، والقصة هكذا:

«قيل لإياس بن معاوية: لم تعجل بالقضاء؟

قال: كم لكفك من إصبع؟

قال: خمسة.

---

(١) البصائر: ٥/ ١٦٥.

قال: عجلت.

ثم قال: لم يتعجل من قال بعد ما قتل الشيء علماً». [1]

وقصده بقتل الشيء علماً كثرة التجارب التي مرت به، ففكر فيها، وأصبح مع الوقت يعرفها معرفة جيدة، لا تحتاج معها إلى تأن أو تفكير؛ فهو يعرفها كما يعرف أحدنا عدد أصابع يده.

وإذا كان ذكاء إياس ساعده على هذا الرد المفحم فإن فراسته اجتمعت مع ذكائه، ودلته على حل لغز جاء به إليه خصمان متنازعان، والقصة مشهورة، وهي كمايلي:

«جحد رجل مال رجل، فاحتكما إلى إياس بن معاوية؛ فقال للطالب:

أين دفعت إليه هذا المال؟

قال: عند شجرة بمكان كذا.

قال: فانطلق إلى الشجرة لعلك أن تتذكر كيف

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٩٤.

كان الأمر!

فقال إياس بعد ساعة: أترى خصمك بلغ موضع الشجرة؟

فقال: لا، بعد.

قال: يا عدو الله، أنت خائن.

فقال: أقلني، أقالك الله.

وأقر». [1]

الحكم في هذه القضية سهل، ولكن الطريق إليه هو الصعب، ولم يكن بالإمكان الوصول إليه إلا عن طريق حيلة ذكية، لا تنبت إلا في ذهن ذكي، مثل ذهن إياس. وقد اشتهرت هذه الواقعة، حتى لا يكاد أحد يجهلها.

والتواضع مما يزين القاضي، وقد أثر عن كثير منهم ذلك، فعندما عينوا في القضاء، لم يصطنعوا ارتفاعاً في المقام، وبقوا على ما كانوا عليه من التواضع، ويحيى بن سعيد أحد من عرفوا ببقاء حاله بعد أن

(١) الإشراف: ٧٩٩.

تولى القضاء، فلم يتغير فيه شيء، وهذا ما قاله عنه محمد بن القاسم:

«كان يحيى بن سعيد، خفيف الحال، فاستقضاه أبو جعفر المنصور، وارتفع شأنه، فلم يغير من حاله؛ فقيل له في ذلك، فقال:

من كانت نفسه واحدة لم يغيره المال، والإكثار» .[1]

وليس هذا هو مظهر التواضع الوحيد، ولكن هناك مظاهر أخرى، لعلها أهم من هذه، وهي التخلص من العقد التي تقيد النفس، فلا يستطيع المرء منها فكاكاً؛ كأن يخطئ في حكم، فيتبين له أن العدل في غير ما قضى به، فيصر على موقفه، ولم تكن هذه الخلة المشينة، والكبرياء المصطنعة، عند الشعبي مثلاً، فقد روى عنه ابن شبرمة مايلي:

«قال ابن شبرمة: كنت عند الشعبي، فقضى بين اثنين، فبصَّرته بَعْدُ، فرجع إلى قولي» .[2]

---

(١) البصائر: ٥/ ١٨٥. الإشراف: ١٠٣.

(٢) الإشراف: ١٤٧.

لم تأخذ الشعبي العزة بالإثم، فيكابر، ويقف عند رأيه الذي لابد أنه كان مبنياً على أساس متين، وإنما رأى ضياء الحق فاتبعه، وهجر ما كان رآه سابقا.

ومن المظاهر الخيرة قبول الاستعانة ببعض العلماء المتعمقين، تُطلب منهم الاستشارة، ويُلتمس عندهم الرأي، وهذا سفيان يقول عن زمنه:

«كانت القضاة لا تستغني أن يجلس إليهم بعض العلماء يقومهم إذا أخطؤا». [1]

ولعل من هذا ما حدث لابن شبرمة عندما نبهه نوح بن دراج إلى خطئه، فاعترف بخطئه، وبفضل ابن سراج، وسجل ذلك في بيت شعر خلد الحادثة، والقصة كمايلي:

«قال سفيان: سئل ابن شبرمة عن مسألة، فأفتى فيها، فلم يصب، فقال له نوح بن دراج، انظر فيها، تثبت يا بن شبرمة!

فعرف أنه لم يصب، فقال:

(١) الإشـــراف: ١٤٧.

ردوا علي الرجل، ثم أنشأ يقول:

كَادَتْ تَزِلُّ بِنَا مِنْ حَالِقٍ قَدَمٌ
لَوْلاَ تَدَارَكَهَا نُوْحُ بنِ دَرَّاج»[1]

وخوف الله، والتقوى التي تملأ نفوس بعض القضاة، تجعل ذكرهم عاطراً، لأنهم يأتون بما لا يخطر على بال أحد أن يأتي منهم؛ لأنه يخرج عن نطاق ما يتوقع منهم، ولكن التقوى، وطلب الأجر، والاحتساب، عند الله، تجعلهم يتقربون إليه بما يزيد عن أعمالهم الموكلة إليهم، وهم يفعلون ذلك سداً لباب شبهة أن يلحق به وزر مثل القصة الآتية:

يقول صاحب ذيل تاريخ بغداد:

«سمعت من أثق به يحكي أن شيخنا القاضي، أبا محمد بن السادي، قصده رجل تاجر بعد صلاة المغرب في منزله، وذكر له أن له غريماً في الحبس، وأنه قد أذن في إطلاقه، لأنه متوجه إلى السفر في سحرة تلك الليلة.

(١) الإشـراف: ١٤٨.

فلم يقدر القاضي في تلك الساعة على أحد من الغلمان بباب الحكم، لينفذه إلى الحبس، فاتكى على يد الرجل حتى أتى الحبس، فأخرج المحبوس، وقال:

ما كان الله ليراني وقد حبسته هذه الليلة عن مصالحه، وقد أفرج عنه خصمه.

ثم عاد إلى منزله ـ رحمة الله عليه». (١)

وكان ورعهم يُري بعض تصرفاتهم الخيّرة، ومن ذلك ما تبين من رقة شعور إياس بن معاوية في القصة الآتية:

«قال حميد: إن إياس بن معاوية لما استَقضى أباه الحسنُ، فبكى إياس. فقال له الحسن: ما يبكيك؟.

قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة ثلاثة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى، فهو في النار، ورجل اجتهد، فأصاب، فهو في الجنة.

فقال الحسن: إنه فيما قص الله ـ عز وجل ـ من

---

(١) ذيل تاريخ بغداد: ٢/ ١٣٠.

داود وسليمان ما يرد قول هؤلاء، يقول الله عز وجل: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا ﴾[1] فأثنى الله على سليمان، ولم يذم داود» .[2]

وتتبين الرقة، ومدى خوف الله في القصة الآتية:

«قال معاوية بن قرة: أن رجلاً قال لعمران بن حصين:

والله لقد قضيت علي بغير الحق.

قال: الله!!

قال: الله.

فأتى ابن زياد فاستعفاه» .[3]

لقد أخذ بيمين الرجل، فقرر الاستعفاء من القضاء، وكأنه قضى على نفسه بالعزل، في مجلس القضاء هذا، وأخذ يمين الرجل على أنها يمين في

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) الإشراف: ٢٢١.

(٣) الإشراف: ١٧٣.

مجلس الحكم .

وذكاء القاضي يلعب دوراً في الحكم ، وقد يكون سبباً في صلح لم يخطر بالبال ، كما حدث في المحاكمة الطريفة الآتية :

«قال أبو حامد : قدمت امرأة بعلها إلى أبي عمر القاضي ، فادعت عليه مالا ، فاعترف به ، فقالت :

أيها القاضي ، خذ بحقي ، ولو بحبسه .

فتلطف بها لئلا تحبسه ، فأبت إلا ذلك ، فأمر به .

فلما مشى خطوات صاح أبو عمر بالرجل ؛ وقال له :

ألست ممن لا يصبر على النساء؟

ففطن الرجل ، فقال :

بلى ، أصلح الله القاضي .

فقال : خذها معك إلى الحبس .

فلما عرفت الحقيقة ندمت على لجاجها ، وقالت :

ما هذا أيها القاضي؟!

فقال : لك عليه حق ، وله عليك حق ، وما لك

عليه لا يبطل ما له عليك .

فعادت إلى السلاسة والرضى» .[1]

إنها لفتة ذكية من أبي عمر ، أوجد بها جسراً بين المرأة وزوجها ، وأوصدت هذه اللفتة باباً من اللجاجة ، قد فتح على مصراعيه ، وكاد يبعد بين زوجين ، لعل الغضب جلب لهما ما جلب من النفرة والخصام .

والقاضي التقي الخير ، يظهر طيبه وخيره في كل أوان ، وليس في أوقات المحاكمة والمخاصمة فقط ، وإنما في كل وقت وزمان ، وهذا مثل من أمثلة حسن الخلق ، وطيب العنصر ، في القاضي .

«قيل لبعض قضاة البصرة :

إن فلاناً يعضهك (يبهتك) فقال :

لكني أجعل صداقته ستراً لقلبي عن قبول سيئته .

فبلغ ذلك المأمون ، فقال :

هذا والله عين الضن والصداقة» .[2]

---

(١) البصائر : ٦/ ٣٨ .

(٢) ربيع الأبرار : ١/ ٤٣٨ .

والقاضي في الغالب، إذا تحاكم عنده إثنان، لا يسلم من سخط أحدهما، لإن كُلاًّ منهما جاء وفي ذهنه أنه على حق، أو أن عنده المقدرة والذكاء على التضليل، بحيث لا يكشف القاضي كذبه وتزويره، فإذا خيب القاضي ظن هذا الظان، حنق عليه، وسلقه بألسنة حداد، وقد جاء هذا السلق في إحدي المحاكمات شعراً قال فيه صاحبه في القصة الآتية مايلي:

جاء أعرابي إلى ابن أبي ذئب، فاستفتاه، فأفتاه بطلاق زوجته، فقال الأعرابي:

انظر يا ابن ذئب!

قال: قد نظرتُ، فولى، وهو يقول:

أَتَيْتُ ابنَ ذِئْبٍ أَبْتَغِيْ العِلْمَ عِنْدَهُ
فَطَلَّقَ حِبّى البَتَّ بُتَّتْ أَنَامِلُه
أُطلِّقُ فِي فَتْوَى ابن ذِئْب خَليلَتِي
وعند ابن ذِئبٍ أَهْلُهُ وَحَلائِلُه»[1]

(١) الإشراف: ١٦٢.

ومن الصفات التي كان يوصف بها بعض القضاة، ما جاء في ذيل تاريخ بغداد، وصفاً للقاضي عبيدالله ابن السادي، فقد قال عنه:

«كان فقيهاً فاضلاً على مذهب أبي حنيفة، عارفاً بالأحكام والقضايا، ورعاً متديناً، عفيفاً نزهاً؛ عليه مهابة ووقار، وله جلالة في النفوس ومكانة، وعلى وجهه أنوار الطاعة، وهيبة الدين، وكان يقيم جاه الشرع، ويستوي عنده القوي والضعيف، والشريف والدني، في مجلس الحكم؛ وإذا وجب حق على فقير، وسأل صاحب الحق حبسه، أدى عنه من ماله، مع قلة ذات يده. بقي نيفا وخمسين سنة يشهد، ويقضي بين الناس على أحسن طريقة، وأجمل سيرة، يشكره الخاص والعام». [1]

والعلم يرفع شأن صاحبه، ويعلي قدره، وينسي ما قد يكون في أصله من نظرة توجب الالتفات، كأن يكون من بيت امتهنوا مهنةً نظرةُ الناس إليها متدنية،

(١) ذيل تاريخ بغداد: ١٧/ ١٢٨.

والقصة الآتية تعطي مثلاً لذلك :

«حدث عبيد بن جناد الحلبي الكلابي قال :

قال لي المأمون : ما مهنتك؟

قلت : قَلاَّء ، وما قلوت شيئاً قط ، وكان لي غلمان قلاؤون .

فقال : وهل تضع المهنة أحداً؟

فولاني القضاء» .(1)

والقاضي مطلوب منه أن يكون واسع الصدر ، يتحمل ما يأتي من المتخاصمين من لجاجة ، ورفع صوت ، وتكرار للأقوال ، ومقاطعة للقاضي أو الخصم ؛ ولا يستطيع ذلك من القضاة إلا ذوو العزم ، وهناك قصة القاضي النطاح ، وكان إذا أجهده الخصم نطحه ؛ ويقال إن الأمر بلغ الخليفة ، فعاتبه على ذلك ، وبيّن القاضي للخليفة أن هذا لا يحدث إلا بعد أن لا يكون لقوس الصبر منزع ، وبعد أن تصل الروح الحلقوم ؛ ولكن الخليفة لم يقتنع ، فاقترح عليه القاضي

(1) ذيل تاريخ بغداد : ١٧٥ .

أن يأتي متخفياً إلى مجلس الحكم، وأن يجلس خلف ستار، قرب مجلس القاضي، فوافق.

وجاء متخاصمان أحدهما من عامة الناس، والثاني من علية القوم، فطلب الذي من علية القوم أن يُميز في الجلوس، فأُفهم أن هذا ليس من آداب المقاضاة، ولما طلبت منه البينة ترفع عن ذلك، وقال مثله لا يشك في قوله، ولما طلب منه أن يحلف رأى أن في هذا إهانة، لأن مجرد قوله يساوي حلف خصمه. ولم يصبر الخليفة عند هذا الحد، وهمس قرب أذن القاضي: إما أن تنطحه، وإلا خرجت أنا ونطحته. فأفهمه القاضي أن الأمر لم يصل بعد إلى هذه المرحلة من التصرف.

حينئذ اقتنع الخليفة بفعل القاضي، بعد أن رأى بعينه اللجج الذي يوجب العقاب.

وقد اتخذ رجل موقفاً مماثلاً لهذا في اختبار أحد القضاة، ونجح القاضي في الاختبار، ونال احترام مختبره، الذي اتقن التمثيل، والقصة هكذا:

«قال النضر بن شميل :

كان بمرو قاض، فأتاه رجل من وجوه أهلها، يدّعي على رجل مالاً، وأتاه بشاهد واحد، وحلف له؛ فأبى أن يقبل منه.

فقال: أيها القاضي، أترى مثلي في قدري، وحالي في العامة، ادّعى على هذا الرجل هذا القدر اليسير، باطلا؟

فزاده إباءً، فقال:

الحمد لله الذي ولّى أحكامنا مثلك؛ فوالله ما لي على هذا شيء، ولكنني أحببت أن أمتحنك، وأعرف صلابتك في الحق؛ وكذلك شاهدي هذا». [1]

هذا قاضٍ أمين، تمسك بالأصول التي يسير عليها القاضي ليوصل الحق إلى أهله، وقد اطمأن مُختَبِره إلى أنه محل الثقة.

وليست كل الخطوات الموصلة إلى الحكم العدل واضحة كل الوضوح مثل هذه؛ فأحيانا لا يصل

(١) البصائر: ٥/١٩٦.

القاضي إلى الحقيقة إلا بالتمعن والتبصر، وتحري الحقيقة في المتخاصمين وشهودهم، فالشاهد ركن رئيس في أي محاكمة، ولابد للقاضي، إذا لم يكن يعرفه، أو لم يزك ممن يعرفه، ويوثق فيه؛ فلابد من مساءلته، والأخذ والرد معه، والقاضي الذكي يجد الموضوع الملائم لذلك؛ وقد وجد شريح القاضي المدخل على أحد الشهود، إذْ أراد أن يعرف صدقه، فجاءه في غفلة من أمره، وسأله سؤالاً، أدى إلى كشف أمر، قَصَدَهُ شريح، والقصة كمايلي:

«قال الأعمش: أخبرني تميم بن سلمة أن رجلاً شهد عند شريح، وعليه جبة ضيقة الكمين، فقال شريح:

أتتوضأ وعليك جبتك؟

قال: نعم.

قال: احسر عن ذراعيك.

فحسر، فلم يبلغ كم جبته إلى نصف الساعدين؛ فرد شهادته»[1].

---

(١) البصائر: ٦/٣٠٦.

هذا الاختبار أظهر أن الشاهد كاذب، أو أنه لا يسبغ وضوءه، وكلا الأمرين يدنس صفحة شهادته عند القاضي.

والشاهد يختبر القضاة عقله، ويسبرون غور أمانته، ويتلمسون أحياناً ما يدل فيه على خرق، يجعله عرضة لرد شهادته؛ ولقد بلغ من أحدهم أن رد شهادة من يركب البحر، بناء على أنه رجل يلقي بنفسه إلى التهلكة، وهذا هو الخبر:

«كان شريح لا يقبل قول من يركب البحر، ويقول: هذا لم يحفظ نفسه على نفسه، كيف يحفظ أمور المسلمين عليهم» .[1]

ونعود إلى زمن الصحابة، ونرى كيف أن عمر ـ رضي الله عنه ـ رضي أن يبرئ ذمته بالتحاكم إلى قاض، يزيل الشبهة التي حدثت بسبب بيع بينه وبين أعرابي؛ والقصة كمايلي:

«ساوم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أعرابياً

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٣٣.

بفرس له، فلما قامت على ثمن أخذها عمر على أنه فيها الخيَار، إن شاء أمسك، وإن كره رد؛ فحمل عمر عليها رجلاً، فسوّرها.

قال: فوقع في بئر، فهلكت الفرس.

فقال الأعرابي: ضمنت فرسي، يا أمير المؤمنين.

قال: كلا، إني لم أضمنها.

قال الأعرابي: فاجعل بين وبينك رجلاً من المسلمين.

فجعلا بينهما شريحاً، فقص عليه القصّة، فقال: ضمنت يا أمير المؤمنين فرس الرجل، لأنك أخذتها على شيء معلوم، فأنت لها ضامن حتى تردها عليه.

قال: فقبل ذلك عمر - رضي الله عنه - وبعث شريحاً على قضاء الكوفة» [1].

لم يتبين عمر أنه ضامن للفرس، التي أخذها، وجشمها ما جشمها بإركاب شخص عليها، أوردها البئر، فتلفت، ولكنه رضي أن يُحكِّم ثالثاً، وهو أمير المؤمنين، لم يأنف من هذا، بل حرص أن يظهر

(١) البصائر: ٦/ ٣٢.

نفسه بالحكم .

ولم يكتف بالحكم ، ولكنه اكتشف من جرائه مقدرة شريح على الفصل بين المتخاصمين ، خاصة وأنه لم تلمه في الله لائمة ، وحكم لأعرابي على أمير المؤمنين ، فعينه قاضياً على الكوفة ، ومع هذا لم يتركه لعلمه ، بل زوده بما رأى أنه أساس من أسس القضاء ، فقال له :

«ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك في كتاب الله ، فاتبع سنة رسول الله ؛ وما لم يتبين لك في السنة ، فاجتهد برأيك» .[1]

وعمر وضع أسساً في القضاء وغيره ، سواء بأفعاله أو بأقواله ، لأن زمنه كان يقتضي التفاتته لوضع الأسس ، ومن الأفعال التي أبان فيها جانباً من جوانب القضاء القصة الآتية :

«قال القاضي إياس : كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا كثر عليه الخصوم صرفهم إلى زيد ؛ فلقي رجلاً ممن صرفهم إلى زيد ، فقال له :

(١) البصائر : ٦/ ٣٢ .

ما صنعت؟

قال: قضى عليَّ يا أمير المؤمنين.

قال: لو كنت أنا لقضيت لك.

قال: فما يمنعك وأنت ولي الأمر؟

قال: لو كنت أردك إلى كتاب الله وسنة نبيه فعلت، ولكني أردك إلى الرأي، والرأي مشترك» .[1]

هذا هو عمر، وهذا هو رأيه،، إنه مادة من مواد القضاء.

هذه لمحة خاطفة، ونظرات سريعة عن القضاء، وفيه؛ تعطي فكرة عما كان عليه القضاء، وكيف بدأ، وإلى ماذا تطور، مع بعض قصص تُري جوانب من الأحكام، وما قام من نزاع، أو أنشئ من فتوى.

وهناك فصول في كتب، وكتب قائمة عن القضاء بأنواعه، لا حصر لها، تلمسه من جانب، وتعالج أموره من جانب، ولا أحسب أن من أراد المزيد يجد صعوبة في هذا، ليسر المراجع وكثرتها.

---

(١) البصائر: ٥/ ١٧٢.

طلب الخير[1]

الدعاء طلب تمتد به اليد لتكسب، به تستغيث، وبه تستزيد من الخير؛ به تطلب نفع الدنيا، وبه تقتنص نفع الآخرة، أنبله الطلب من الله سبحانه وتعالى، وأدناه الطلب من الأعلى أو الأدنى، في جلب نفع، أو أداء خدمة؛ هو التفاتة تبدي الحاجة، وتطلب قضاءها؛ له عبارات منتقاة، تُقال وتَحمل في ثناياها نغمة الرقة، والتعطف، وكلما زاد ذلك فيها رجي لها الاستجابة، بعد صفاء النية.

وفي الدعاء يبلغ الانكسار منتهاه، خاصة إذا كان الدعاء مرفوعاً إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وما يرفع إلى الله يمتاز بأنه طلب كبير، أو عسير، لا يقدر على الاستجابة له إلا هو، وصاحب الحظ يكون دعاؤه لله لمكسب في الآخرة. وقد وضع الدين الإسلامي الصيغ التي يدعو المسلم بها ربه؛ وحدد لكل مناسبة

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٧٥) في ١١/ ٦/ ١٤١٦هـ الموافق: ٤/ ١١/ ١٩٩٥م.

دعاءها، فأصبح المسلمون، المطلعون، المتمسكون بالسنة، موحَّدين في هذا؛ المسلم في دعائه في اليابان وهو منها، مثل من هو في انجلترا وهو منها، ومثل المسلم في مكة وهو منها.

وينزل الدعاء إلى أبسط الأمور، وأقلها، وأدناها، فأنت تدعو ابنك ليعمل عملاً، وتدعوه ليقلع عن عمل، وتدعوه ليذهب، وتدعوه ليعود؛ ويتخلل ذلك طريقة المناداة، وتتوقف عادة على صلة المنادِي بالمنادَى، فإن كان المنادِي أسن من الآخر، قلت العناية باختيار الجملة، والمقدمات التي تسبق الدعاء والمناداة، والتوابع التي تلطف الجملة وتُزَخْرِفُها؛ وإن كانت من الأدنى من الناس إلى الأعلى، احتاج الأمر إلى اختيار الجملة، حتى تضمن الاستجابة، والموافقة على الطلب.

والصوت يلعب دوراً كبيراً في نقل الرغبة في الدعاء إلى من وجه الدعاء أو النداء إليه، قرب مكانه أو بعده، والصوت يتبع نوع الجملة المختارة،

ومكان المدعو. وتعبير الوجه يعضد الجملة والصوت، ويأتي مكملاً للصورة التي عليها داخل المنادِي أو الداعي. فهذه العناصر الثلاثة تتعاون في انجاح الهدف، والوصول إلى الغرض، ونيل المطلوب.

وفي التراث طرائف من صيغ الدعاء، جاءت طرافتها من بساطة أصحابها، وانعكاس بيئتهم على تفكيرهم؛ ونظرتهم إلى الأمور نظرة تختلف عن نظرة غيرهم؛ وسوف نسوق بعض أمثلة من هذه الأدعية التي لفتت نظر المؤرخين والأدباء، والكتاب، فسجلوها لنا، فأصبحت مما يتداول في الكتب.

ومن هذه الأدعية دعاء جميل، رغم أن باعثه الحنق، ولكنه مرّ ببوتقة خيرة، صاحبها قريب من الله، ولا يأتي منه إلا الأمور المضيئة، المتمشية مع تعاليم الإسلام السمحة، وهذه هي القصة:

«يروى علي بن عبدالحميد الغضائري بحلب يقول:

سمعت السريّ السقطي - ودققت عليه الباب، فقام إلى عضادتي الباب، فسمعته يقول:

اللهم اشغل من شغلني عنك بك» .[1]

لقد قطع الغضائري على السقطي تعبده، وجاء ليشغله لبعض الوقت عنه؛ وهذا أغضب السقطي، لأن الغضائري صرفه عن عبادة ربه؛ ومناجاة خالقه؛ ولكن الرجل لم يترك الغضب يتحكم به، فلم يقل: اللهم اشغله بنفسه، فيكون هذا دعاءاً عليه، وإنما دعا له بأن ينشغل بالله وذكره؛ ولعل الله استجاب دعاءه؛ لأن المقرئ روى عن بعض أصحابه أن الغضائري قال:

«كان من بركة دعائه أني حججت أربعين حجة على رجلي، من حلب، ذاهباً وراجعاً» .[2]

لقد انشغل الغضائري حقاً بالذهاب والأياب للحج على قدميه أربعين سنة، وهذا من أكثر الأمور أجراً، وانشغالاً في الله، وفي سبيله .

وعلى ذكر الحج على الأقدام، كان كثير من الناس

(١) تاريخ بغداد: ١٢/ ٣٠ .
(٢) تاريخ بغداد: ١٢/ ٣٠ .

يحجون على أقدامهم، من بلادهم، مهما بعدت، فبعضهم كان يأتي من الهند، سيراً على الأقدام، عن طريق ما أصبح يسمى اليوم باكستان، مروراً بإيران، فالعراق، ثم يقطعون الصحراء، حتى يصلوا إلى مكة، أو المدينة، وبعضهم كان من «المهراجات»، وكبار القوم في الهند، ومن أكبر أغنيائهم، يأتون على أقدامهم، احتساباً للأجر، وأملاً في الثواب. وبعضهم كان يكرر الحج سنوات متعددة، بهذه الطريقة، فلا يكاد يعود إلى بلاده، حتى يبدأ الرحلة من جديد، طوال السنة، وهو يسير على قدميه، لا يكل ولا يتعب، ولا يشكو؛ يتعرض للأخطار فلا ينكل، ولا يقلع.

روى أحد أهل نجد، من منطقة القصيم، أنه في أوائل هذا الزمن، كان يتاجر مع الكويت، وكان له عدد من الجمال، تأتي على الكويت وتروح، وكان يسافر معها أحياناً، وأحياناً يسبقها، وأحياناً يتبعها بعد سفرها بأيام، حتى يُدخل جزءاً منها هذه البلدة،

وجزءاً آخر تلك. وكان هذا دأبه لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً. وقد عاش في أول عمره في الهند، حيث كثير من أهل القصيم كانوا يذهبون إليها، في أول حياتهم، أو إلى العراق، أو إلى الشام. وتعلم لغة أهل الهند، حيث أقام بها اثني عشر عاماً، أصبح بعدها من الموسرين.

في عصر أحد الأيام، وهو يقطع الصحراء قرب نفود السرّ في نجد، لاح له عن بعد حركة لم يستطع تفسيرها، فلا هي ذيل ثعلب، ولا ذيل ذئب، ولا حية، وكانت الشمس تميل للغروب، فحاد عن الطريق، وقاده حب الاستطلاع إلى هذا الشيء الغريب، الذي تحرك حركة لم يستطع تفسيرها. فلما وصل إلى مكانها رأى عجباً، رأى «درويشاً» رجلاً من الهند، قد حفر قبراً، ونزل به، بعد أن نفد زاده، والماء الذي معه، وأمل أن يموت في هذه الحفرة، التي أمل أن تطمرها الرياح الذاريات، فتسلم جثته من تمزيق السباع والطيور، فحادثه

الرجل بلغته، وعرف منه قصته، وأنه آت من الهند على قدميه، وأنه ضل الطريق، فوصل حاله إلى ما وصل إليه، حتى لطف الله به، وأرسل إليه من سوف ينقذه.

فعرض عليه الرجل أن يردفه معه إلى بلدة «عنيزة» في القصيم، وبإمكانه أن يركب مع ركب حاج عنيزة، فيأمن من الضياع والخطر، فأبدى رغبته أن يوصله فقط إلى أقرب ماء، وسوف يواصل رحلته الشاقة كما خطط لها، وتم له ما أراد، وافترقا عند أول مورد.

واستمر الرجل النجدي على عادته في تجارته مع الكويت، طوال ثماني سنوات تلت؛ وفي يوم من الأيام، ومعه ركب من التجار أمثاله، من أهل بلدته، رأوا من بعيداً ناراً بعد أن خيم الظلام، وهم في طريقهم إلى غايتهم. وكان يجب أن يكونوا حذرين في مثل هذه الحالة، لأن من حول النار قد يكونون «قوماً» أي من عصابات الصحراء، لأن الحكم لم

يكن قد استتب للملك عبدالعزيز، وكانت لا تزال البادية تخيف الطرق. فذهبوا يتوجسون، ويتحرون، ومن حسن حظهم أن تبين أن من حول النار من جماعتهم، وأهل بلدتهم؛ فأناخوا عليهم، وقضوا الليلة معهم، واستأنسوا بوجودهم.

لاحظ صاحبنا أنه عندما أناخ بعيره، قفز رجل من الجلوس، وقادها بعيداً عن مناخها، وأبعدها قليلاً، وأنزل عنها شدادها. وفرش فراش صاحبها بجانبها، ووضع بجانبه ابريق ماء. ولم يشك صاحبنا إلا أن هذا الرجل هو أحد مساعدي الفريق، عرفه، فخدمه هذه الخدمة. وعادة الناس في البر، وهم في رحلة الجمال هذه، أن يتلثموا، حتى لا تجف شفاههم، ولا يعطشوا، ولا تضر الشمس صفحة وجوههم، ولهذا لم يتبينه هذا، مع ظلام الليل، وليس هناك نور إلا ضحاح النار، وبريق اللهب.

وفي الصباح عندما أذن المؤذن لصلاة الفجر، واستيقظ الرجل، وكان الوقت شتاءً، وجد بجانبه

ابريق ماء حار، فتأكد له أن بين القوم من جماعته من أراد إكرامه. وبعد أن صلى الفجر، وأفطروا، وبدأ وجه الصبح يطل، فجأة تكلم الرجل الغامض، وقال لصاحبه باللغة الهندية:

ألا تعرفني، صاحب!؟
وهل أنا أعرفك حقا؟
نعم، وقد رأيتني من قبل، وصحبتني.
هل رأيتك في كلكتا، أو في دهلي، أو في كراشي؟
لا، لقد رأيتني هنا في الجزيرة.
هل رأيتك في مكة، أو في المدينة؟
لا. أنا الرجل الذي أنقذته قبل ثماني سنوات، عندما عثرت عليه، ضامئاً، جائعاً مستهلكاً؛ وقد حفر قبره، وانتظر خروج الروح.

قال له الرجل: ألم تتعظ مما حدث لك، ألم تخش أن تضل، فتجوع وتعطش، وتشرف على الهلاك مرة أخرى.

قال الهندي: لا، فأنا لي ثماني سنوات الآن،

أحج كل عام على قدمي، جيئة وذهابا، وأرجو أن أكمل عشراً، قبل أن أكتفي بها، وأستقر.

إنها حادثة كالخيال، هذه الصحراء المترامية الأطراف، التي يضيع فيها جيش، ويضل فيها سكان مدينة، يجتمع فيها غريبان، بعد ثماني سنوات، وفي مكانين متقاربين!

وبين كبار الهنود، وتجارهم، متعبدون، غلبوا كل متعبد، وبلغ إخلاصهم أعمق الدرجات وأبعدها؛ كانت الهند مقاطعات يحكمها من يسمون ملوكاً؛ وكان أحدهم من التقوى، والإخلاص في العبادة، بحيث لا يرضى أن يأكل أو يلبس إلا من عمل يده، فبعضهم وقف حياته على كتابة القرآن، فإذا أنهى نَسْخَ نسخة من القرآن باعها، وعاش على ثمنها، حتى ينهي الأخرى. وهذه النسخ اليوم تباع بأغلى الأثمان إذا وجدت؛ ودخل المملكة واحدة على الأقل، أهديت لمن يستحق أن يهدى له مثلها.

وقبل ستين سنة ويزيد كانت نجد تجيش

«بالدراويش» ، وهم هنود فقراء ، حسب الظاهر ، يأتون للحج مشياً ، ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، تراهم في ذهابهم وإيابهم ، ويستجدون أكلهم وشربهم ، وأصبحت كلمة «طهين» «طهين» «دقيق» «دقيق» على ألسنة الأطفال ، يقولونها عندما يمرون بأحدهم ، لأنهم وهم يستجدون يرددون هاتين الكلمتين ؛ يُعطون الدقيق والطحين ، فيعجنون خبزهم بأنفسهم ، ويعملون منه «شربة» أحياناً ، ومعهم وعاء في الغالب ، وخريطة أصبحت مشهورة ، لأنها تجمع خليطاً مما يعطى لهم ، من تمر ، وكليجا (نوع من البسكويت) ، ومعمول (نوع منه أيضاً) . وأصبح هنا مثل لما اختلطت أنواعه ، يقال بيته أو دكانه كأنه خريطة درويش ، أي يجمع فيه كل ما وهب ودب .

والحج على الأقدام ، وهو ما قادنا إلى هذا الاستطراد ، ليس غريباً على الأديان كلها ، والإسلام عرفه منذ أن بزغ فجره ، ومن أشهر الرحلات إلى

الحج على الأقدام رحلة هارون الرشيد، وغيره كثير ممن لا يحصون، حتى أهل مكة وساكنيها، يذهبون للحج على الأقدام، وهي رحلة شاقة، وإن كانت لا تقارن برحلات من يأتون من الهند ومن المغرب، وما أكثرهم!

وإذا كان السقطي قد دعا للغضاري، وأن دعاءه - كما يبدو - قد استجيب، فهناك دعاء قبله قد استجيب، وكان في زمن الرسول ﷺ ونعم الاستجابة كانت هذه الاستجابة. والقصة كمايلي:

«عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة، قالت:

«قال رسول الله ﷺ: إذا أصابت أحدكم مصيبة، فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم عندك أحتسب مصيبتي، فأجرني فيها، وأبدلني بها خيراً منها.

فلما احتضر أبو سلمة، قال:

اللهم اخلفني في أهلي بخير مني.

فلما قبض أبو سلمة: قلت:

اللهم عندك أحتسب مصيبتي، فأجرني فيها.

فكنت إذا أردت أن أقول: وأبدلني بها خيْراً منها، قلت: ومن خير من أبي سلمة. فلم أزل، حتى قلتها.

فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر، فردته، ثم خطبها عمر، فردته، ثم بعث إليها رسول الله ﷺ قالت:

مرحباً برسول الله ﷺ». [١]

والدعاء ليكون مستجاباً لابد أن يخرج من القلب، وأن يكون قائله بَرّاً خيراً، حتى يكون لدعوته القبول، الذي يؤمله، أما إذا كانت يد ممدودة إلى الله، والأخرى تعبث في أكباد خلق الله، قولاً، أو فعلاً. فكيف يرجو صاحبها الالتفاتة إليه، من رب يعرف نيته، وقوله، وعمله، ولا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء.

والأعراب تروى عنهم طرائف، يراد بها كشف سلامة نياتهم، وتبيان سذاجة تفكيرهم وحياتهم،

---

(١) تاريخ بغداد: ١١/ ٣٥٥.

وبعدهم عن التكلف، والتدليس، أو التزويق، يقولون على ألسنتهم ما يمر على قلوبهم، فظاهرهم صورة صادقة لما يدور داخلهم، مما يجعل التعامل معهم مريحاً. ودعاء الأعراب مصبوغ بهذه الصبغة، فهم يخاطبون ربهم، بدالتهم على رحمته وعطفه، وعلى ما يرجونه من كرمه ومنته.

يقول أحدهم في دعائه، وهو رجع صدى تفكيره، ونظرته الساذجة، دون تكلف، ولا مراء، ولا تزويق:

«حج أعرابي فقال:

اللهم إن كان رزقي في السماء، فأنزله؛ وإن كان في الأرض، فأخرجه، وإن كان نائياً، فقرّبه؛ وإن كان قريباً، فيسّره». [1]

لقد حاول هذا الأعرابي أن يقرّ ضمناً بجهله أين رزقه، وأن يكل أمره بمن هو أعرف منه، وقد حدد في حدود قدرته ما يعرفه، وأحاط به كاملاً، وترك ما لا يعرفه مسلماً أمره لله.

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٥.

وتأتي نصوص في هذا المجال، لا يعرف أصحيحة هي أم مركبة، فالأدباء، يعرفون عن سذاجة الأعراب، وصفاء نيتهم، وأن ما يكون في قلوبهم ينساب سهلاً رُخاء على ألسنتهم؛ شجاعتهم لا تجعلهم يخفون شيئاً، وحسن نيتهم تجعلهم يعلنون للملأ ما في سريرتهم؛ لهذا يسجل الكتاب كثيراً مما يأتي طريفاً منهم وعنهم، وقياساً على هذا يأتون بما يجول في ذهنهم من طرائف، ويركبونها عليهم، وهم منها براء، والخبر الآتي يتأرجح بين الصحة، والاختلاق:

«سمع رجل بمكة رجلاً يدعو لأمِّهِ، فقا له:
ما بال أبيك؟
قال: هو رجل يحتال لنفسه». [1]

الدعاء طريف، ويمكن أن يخطر ببال الأديب، فيجد أن من المناسب تعليقه على مشجب يتفق معه، وليس أفضل من الأعراب لهذا!

ومن الأدعية الطريفة، وفيها منطق، وتلفت

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٨٢.

النظر، لأنها اختيرت لأمر ثابت متكرر، تحمله الأكياس، والبضائع، والسلع، فيتردد عليها وليس على اللسان، الدعاء الآتي:

«كان على رشوم عمر بن مهران التي كان يرشم بها على الطعام (يمهر بها):

«اللهم احفَظْه ممن يَحَفَظُه» .[1]

ـ[2] ويقابل دعاء الأعرابي لأمه، والتعليل الذي جاء به في عدم دعائه لأبيه، دعاء أعرابي لأبيه، دون أمه، ولعل من قرأ أحدها، جاء بالثاني، ليعدل كفة الميزان مع الأخرى، وقد جاء بتعليل ساقه أمام قوله حجة، يعذر بها على ما قاله. والقصة هكذا:

«قال عروة بن سليمان العبدي:

كان عندنا رجل من بني تميم، يدعو لأبيه، ويَدَعُ أُمّهُ، فقيل له في ذلك، فقال:

إنها كلببية!» .[3]

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٨٠.

(٢) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٢٨٢.

أراد مَنْ ساق هذا الخبر أن يستفيد عما يعرف عن العرب، واعتزازهم بأعمامهم؛ ولكنه نسي أنهم أيضاً يفاخرون بأخوالهم، وأن الرجل لا يصاهر إلا من قبيلة تماثل قبيلته، أو تفوقها في سُمعتها، شجاعة، وكرماً، وإباء، وما إلى ذلك من الأمور التي يقيم العرب لها وزناً.

والدعاء سلاح يشهره الضعيف المضطهد، والعاجز المظلوم؛ يسله سيفاً لامعاً في وجه القوي الظالم، والمفتري المتجني، اعتماداً على ما هو معروف من استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعاء المظلوم، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

ولكن السيف هذا إذا سل في وجه العادل لا يخيفه، ولقد سلّ أحد الصحابة هذا السيف، أو هدد بسله، على عمر، فلم ترتعد فرائص عمر، ولم يخف من ذلك، ورَدَّ رَدَّ المطمئن، الواثق من عدل ربه، لأنه حسب ما يعرف عن نفسه لم يَظْلم، ولا يمكن أن يفكر في الظلم، وهو الذي يرفع درته في وجه الظالم،

وينزلها على المعتدي، وعلى المقصر، وعلى المهمل، لا يمل الركض لصالح أمة المسلمين، ولا يعطي نفسه الراحة التي يعطيها أمثاله، بل جعل خوف الله أمامه، يخشى من حسابه، ويؤمل في رضاه وعونه، وله قصة في هذا المجال مع سعد بن أبي وقاص (وكان يسمى مستجاب الدعوة) هذا مؤدّاها:

قال سعد لعمر، حين شاطره ماله: لقد هممتُ.
فقال له عمر: لتدعو الله عليّ؟
قال: نعم.
قال: إذاً، لا تجدني بدعاء ربي شقياً». [1]

ولعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في أمر الدعاء موقف جميل، وقول قوي، وطريف، يدل على قوة عقل، وفطنة وذكاء، والموقف كمايلي:

قال عمر بن الخطاب: إن في يوم كذا وكذا من شهر كذا لَسَاعة، لا يدعو اللهَ فيها أحدٌ، إلا استجيب له.

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٧.

فقال له قائل: أرأيت إن دعا فيها المنافق؟
قال: فإن المنافق لن يوفق لتلك الساعة». [1]

وبلغت الحضارة أوجها في زمن العباسيين، ورقت الكلمات، ولانت المخاطبات، ابتعاداً من جفاء البادية في مخاطباتهم، وتأثراً بالأمم التي دخلت في الإسلام، ممن يغلب عليهم نعومة الألفاظ، حتى لو خالفت ما بداخل ضمائرهم، وبدأ العرب يتنبهون لمثل هذه الأمور، فيضعونها في صيغة نصائح، وارشادات، يهتدي بها الشادون، ويراعي مدلولها الناشئون؛ ومن هذه النصائح عدم تشميت الملوك والحكام، إذا عطسوا[2]؛ لأن مقامهم لا يسمح بذلك، وهذا أمر عجيب، لأنه يخالف تعاليم الدين، ولكن الناس يتساهلون أحياناً.

ومن جملة ذلك طريقة الدعاء عند السؤال عن صحة المريض، فهم يرون أن مخاطبة الملوك والحكام،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧٩.

(٢) قال الجاحظ: «من حق الملك إذا عطس لا يشمت، وإذا دعا أن لا يؤمن على دعائه». ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٤.

يجب أن تختلف عن مخاطبة عامة الناس، والقول الآتي يبين ذلك:

«كان الفضل بن الربيع يقول:

المسألة للملوك من تحية النوكى؛ فإذا أردت أن تقول: كيف أصبحت؟ فقل:

صبحك الله بالخير.

وإذا أردت أن تقول: كيف تجدك؟ فقل:

أنزل الله عليك الشفاء والرحمة!» [1].

ونعود إلى الأعراب، وهم من قلنا أنهم مادة للوضع، يعلق عليها الأدباء والمفكرون الآراء التي تعن لهم، ويعجبون بها، والأصمعي من الذين يجدون أنه من القبول أن يعلقوا الرواية عليه، وهو منها أحياناً بريء، ولكنه عرف برواية الطرائف، وبالقصص الغريبة، ففتح على نفسه بذلك باباً للنحل واسعاً، والقصة الآتية جمعت النحل في شقيه، في النحل على الأعراب، وفي النحل على الأصمعي:

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٢٨٦.

«قال الأصمعي:

سمعت أعرابياً يدعو، وهو يقول:

اللهم ارزقني مالاً، أكبِت به الأعداء، وبَنِين أصول بهم على الأقرباء» .[1]

إذا كان القرآن يقول: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ .[2]

فراوي القصة عن الأعراب، وضع هذا المعنى في قالب تفكير الأعراب، فالمال عندهم لإغاظة الأعداء، والبنون ليُتقوى بهم على الأقرباء؛ والطرافة أن هذا القول جاء، في الحقيقة، مخالفاً لما يستعمل الأعرابي المال له، وما يُحتاج إلى البنين فيه؛ فالمال يحتاجه لإكرام الضيف، وتحمل الديات، والغذاء والشرب، ودفع مهر بنات خِيرة القبائل، وهذا قد يغيظ الأعداء، ولكنه ليس الأساس؛ والأبناء قوة للقبيلة كلها، وقد يحتاجهم والدهم لتقوية مركزه في القبيلة،

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

ولكن فائدتهم تزيد عن هذا كثيراً، ولكن ما جاء في الرواية طريف، وهذا ما ساعد النص أن يأخذ طريقه إلى التدوين، والتسلسل مع زلف الزمن، ودرجاته.

ومع الأعراب أيضاً، ودعائهم، وهذه المرة، سوف نرى الدعاء ضمن الاستجداء، وجاء شعراً، والموضوع نفسه طريف، ومواقف الاستجداء جذابة، خاصة إذا كان المستجدي أعرابياً؛ لأن حديثه سوف يكون ممتعاً، وقد أوحى مثل هذا للحريري، وغيره، أن يؤلفوا المقامات الممتعة، التي لا تزال، حتى يومنا هذا، تجذب القارئ، وتستولي على ذهنه، ويطير معها في الخيال الذي رسمه الكاتب، وحلق فيه في سماء عالية، باهرة الألوان، والموقف الذي اخترناه في هذا الصدد هو:

قال الأخفش: سأل أعرابي، ومعه بنتان له، فقالت ابنته لما رأت إمساك الناس عنه:

يَـا أَيُّهَـا الـرَّكْـبُ ذُو التَّعْـرِيـسِ
هَـلْ فِيْكُـمُ مِـنْ طَـارِدٍ لِلْبُـؤْسِ

عَنْ ذِيْ هُدَاجٍ[1] بيِّنِ التَّقْوِيْسِ

بِفَضْـلِ سِـرْبَـالٍ لَـهُ دَرِيْـسِ

أَو فَـاضِـلٍ مِـنْ زَادِهِ خَسِيْـسِ

أَثَـابَـهُ الـرَّحْمٰـنُ بِـالنَّفِيْـسِ»[2]

ووصف الحال، والرجاء جاء في جميع الأبيات، والدعاء جاء في آخر شطر منها. وصُور الأعراب المتسولين في التراث كثيرة مما يلفت النظر، ويخشى أن يكون القصد منها رسم صورة سيئة لهم، خاصة إذا جاءت متدنية مثل هذه الصورة، التي تطلب فيها ابنة الرجل الخسيس مما فضل من الزاد، والسربال الدارس.

ومحمد بن واسع عرف بالتقوى، والصلاح، وله موقفٌ الدعاء فيه يأخذ أهمية تتساوى مع أهمية الجيش الغازي، والجند المرابط أمام عدو المسلمين؛ وفي مثل هذه المواقف تتعلق القلوب بالله، وترفع

(١) الهداج: اضطراب المشية.

(٢) البيان والتبيين: ٤/ ٧٨.

الأبصار إليه، فبِيده وحده النصر، وإليه الملتجا والمفر، ولهذا أعطى قائد الجيش أهمية لما كان عليه محمد بن واسع في المعركة، وهذه هي القصة:

«لما صاف قتيبة بن مسلم الترك، سأل عن محمد ابن واسع، فقيل: هو في أقصى الميمنة جانحاً على سية قوسه، مُنْضَفِناً بأصبعه نحو السماء.

فقال قتيبة: تلك الأصبع الفاردة أحب إليّ من مئة ألف كتيبة، بسيف شهير، وسهم طرير»[1].

والذين يعرفون الله، ويؤمنون به حقاً، يعرفون قيمة الدعاء، والتوجه بالقول المخلص إلى الله، ويشدهم، ويوقفهم ليكون لهم منه نصيب المعتبر المطيع، وقد كان لمعروف الكرخي موقف شده الدعاء فيه، وحارت رجله أمامه، فلم يستطع إلا أن يكون تجاهه الرجل المؤمن المطيع، والقصة كمايلي:

«مر معروف الكرخي بسقاء يقول:

رحم الله من يشرب من هذا الماء.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٤.

فشرب، وهو صائم، وقال:
عسى الله أن يستجيب» .[1]

إن معروفاً انتقل من تقوى إلى تقوى، وخرج من طاعة إلى طاعة، لقد اجتذبه الصيام طلباً لرضاء الله، ثم اجتذبه الإفطار طمعاً في رضى الله. نرجو أن يكون الله قد قبل منه، كلا العملين الطيبين.

وعمر بن الخطاب رجل نابه، ويكشف ما وراء الأمور بنور الله، ويخشى الشُّبَه، ويخاف الزلل، ويريد الناس ألا يبعدوا عن طرق الدين المعروفة، حتى لا تزل أقدامهم، فيقعوا في الخطأ، وقد أرادوا الصواب؛ وينحرفوا، وقد طلبوا الاستقامة؛ وتغشاهم الظلمة، وهم يبحثون عن النور. ووجد عمر أنهم مثل من يمشي في صحراء، فيها طريق واضح المعالم، بيّن الرسوم، من سلكه وصل إلى غايته، ومن خرج عنه بغية الاستعاضة منه بغيره، فقد عرض نفسه للهلاك، فقد يتيه في الصحراء الواسعة، والدوّ المنقطع الطرق.

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٤.

ولعل هذا ما شعر به عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما سمع دعاء لم يعتده، فأنكره، ورغم أن الداعي برر دعاءه، معتمداً على آي من القرآن، إلا أن عمر، خاف أن يتخذ إبليس من هذا منطلقاً، يكون له فيه حق أريد به باطل، فأوقف الرجل عما أقدم عليه، ونهاه عن التجديد غير المأمون، وأمره بأن يدعو الدعاء المسموع، الدعاء المتعارف عليه، والمأخوذ من الرسول ﷺ فهذا أسلم في المدى البعيد، وأقرب للاقتداء ممن قد يسمع، والدين أغلب متبعيه مقلدون، والموقف الذي واجهه عمر كمايلي:

«سمع عمر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يقول:

اللهم اجعلني من الأقلين!

فقال: ما أردت بهذا؟

قال: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

فقال: عليكم من الدعاء بما يعرف» .[1]

قفل عمر الباب قَفْلاً مصمتاً، فرغم قوة حجة الرجل، إلا أن ما في ذهن عمر أبعد، وهو الخليفة اليقظ، الحامي لأمور المسلمين، أحس أن في هذا المسلك فتح باب للخلل، فحسم الأمر، وأعاد الرجل للجادة الواضحة، حتى لا يضل هو أو غيره مِنْ بعده.

ومن الدعاء الذي يأخذ منحى يجلب النظر، وقد أعجب في زمنه من دوّنه، فجاء إلينا لنجد فيه ما يمكن أن يقال، فالسؤدد قد يراه بعض حامليه عبئاً ثقيلاً، يحتاج إلى كتفين قويتين، فله مؤونة مضنية، لا يستطيع توفيرها إلا ذو حظ عظيم، ولهذا دعا مسلمة بن عبدالملك، وهو الخليفة، ربه تجاهها فقال:

«عونك اللهم على أعباء السؤدد» .[2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٣.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٤.

هذا وهو الخليفة، فكيف بغيره من رؤساء القوم.

ويمن شخص بالدعاء، فلا يدعو لأخيه المسلم، وهذا قد يبدو غريباً، ولكن وراءه ما وراءه، والقصة الآتية تبين ذلك:

«عطس شبيب بن شيبة، عند عمرو بن عبيد، ثلاث مرات، كل ذلك لا يشمته. وشبيب يرفع صوته بالتحميد، فقال له عمرو بن عبيد في الثالثة:

لو تقطعت نفسك ما سمعتها مني، أو تتوب»[1].

والمعروف شرعاً أن العاطس إذا عطس، وحمد الله، يشمته من حوله بقول: يرحمك الله، فيرد بقوله: يهدينا ويهديكم الله، أو يهديكم الله ويصلح بالكم. إلا أن القاضي عمرو بن عبيد بخل بها على شبيب، لأنه يرى منه بعض المعاصي، ويريد له رحمة الله بعد أن يقلع ويتوب؛ وهذا غريب من عمرو، وكان عليه أن يدعو له بالهداية والرحمة، ورحمة الله واسعة.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٤٣.

ومثل عمر بن الخطاب نجد طحاناً لا يخاف من الدعاء عليه، لأنه يعرف أن الله عادل، لا يقبل من الدعاء إلا الصادق، أما إذا جاء الدعاء من مُتَجَنٍّ، أراد أن يستفيد من الدعاء تهديداً وسلعة يتعامل بها مع الناس، فهو أبعد ما يكون عن رضى الله، ومَنْ بَعُد عن رضى الله، بعدت عنه الاستجابة، والقصة فيها طرافة، وفيها عقل:

حمل رزام بن حبيب إلى طحّان، طعاماً، فقال: أنا مشغول عنك.

فقال: إن طحنت، وإلا دعوت على حمارك، ورحاك.

قال: أمستجاب الدعوة أنت؟

قال: نعم.

قال: ادع الله ـ تعالى ـ أن يصير حنطتك دقيقاً، فهو أروح لك». [1]

ما أروع الحكمة تأتي ممن لم تتوقع منه؛ إن المتوقع

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٠.

أن الطحان مستواه الذهني محدود، ولكن هذا فاق ابن حبيب، وفاجأه برده المتقن.

ويأتي دعاء منتقى منتخب، استخرجه من القلب، طغيان المعروف عليه، وزيادة الفضل على صاحبته، فنطقت بدعاء مبتدع، في قصة طريفة هكذا:

«حين فتح خالد بن الوليد عين التمر، سأل عن الحرقة، فأتاها وسألها عن حالها، فقالت:

لقد طلعت علينا الشمس، وما من شيء يدبّ، حول الخورنق، إلا تحت أيدينا، ثم غربت، وقد رحمنا كل من يدور به؛ وما من بيت دخلته حبرة إلا دخلته عبرة. وأنشأت تقول:

بَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالأَمْرُ أَمْرُنَا
إِذَا نَحْنُ مِنْهمُ سُوْقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فـأُفٍّ لِـدُنْيَـا لاَ يَـدُوْمُ نَعِيْمُهَـا
تُقَلِّـبُ تَـارَاتٍ بِنَـا وَتُصَـرِّفُ

وأتت سعد بن أبي وقاص، في جَوَار لها في مثل

زيها، فقال سعد: قاتل الله عدي بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إِنَّ لِلـدَّهْـرِ صَـرْعَـةٌ فَـاحْـذَرَنْهَـا
لاَ تَبِيْتَـنَّ قَـدْ أَمِنْـتَ الشُّـرُوْرَا
قَدْ يَبِيْتُ الفَتَى مُعَافًى فَيَرْدَى
وَلَقَـدْ كَـانَ آمِنًـا مَسْـرُوْراً

ثم أكرمها، وأحسن جائزتها؛ فلما قامت، قالت:

أحييك تحية أملاكنا بعضهم بعضاً:

لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا نزع عن عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه». (١)

«الحرقة» هذه هي إحدى ابنتين للنعمان بن ماء السماء، وهو النعمان الأصغر، الذي قتله أبرويز تحت أرجل الفيلة، قبل مبعث الرسول ﷺ بسنتين.

وصاحب كتاب «الديارات» يذكر دعاءًا آخر

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٦٩.

قالته لخالد بن الوليد، عندما أكرمها :

«شَكَرَتْ لك يد افتقرت بعد غنى ، ولا وَصَلَتْكَ يد استغنت بعد فقر ؛ وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا أزال عن كريم نعمة إلا جعلك سبباً في ردها» .[1]

ويأتي دعاء مختصر ، يختاره داعيهِ ، مختلفاً عما اعتاد الناس عليه ، ويقرنه بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فيأتي مقبولاً عند السامع :

«يقال : كان من دعاء «مكحول» :

«يا رازق النعاب في عشه» .

وذلك أن الغراب إذا فقص عن فراخه ، فقص عنها بيضاً ، فإذا رآها كذلك نفر عنها ، فتفتح أفواهها ، فيرسل الله عليها ذبابا ، فيدخل أفواهها ، فيكون غذاءَها ، حتى تسودّ ، ثم ينقطع الذباب ، ويعود الغراب» .[2]

وهو حين يقرن دعاءه بقدرة الله الخارقة ، التي

---

(١) الديارات : ١٦٦ .

(٢) البصائر : ٥/ ١٤٧ .

لا يقدر عليها إلا هو ، كأنه يقول إنه لجأ إليه فيما لا يقدر عليه إلا هو ، فهو القوي القادر .

ونعود إلى الأعراب الذين فتن بهم الكُتّاب ، يروون عنهم ، وينحلونهم ـ كما قلنا ـ ما يطرأ على فكرهم من أمور طريفة : وهذا دعاء طريف ، في جزء منه مرارة ، ولكنه لم يصل إلى حد الدعاء على من حرموه ، وإنما انصب على الاتجاه إلى القادر القوي ، الذي يرجى منه أكثر مما يرجى من خلقه :

«سأل أعرابي قوماً ، فحرموه ، فقال :

اللهم اشغلنا بذكرك ، وأعذنا من سخطك ، فقد ضن خلقك على خلقك برزقك ، ولا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك» . (١)

ولعله أرجع عدم جود الناس عليه ، إلى عدم رضى الله عليه ، لأنه غفل عن ذكره ، وعقد سببه بسبب الناس ، بدلاً من أن يتجه بطلبه إلى ربه ؛ ذاكراً له ، ومستعيذاً به ، وشاكياً الخلق عليه ـ سبحانه ـ ومستغنياً

(١) البصائر : ٣/ ١٦٥ .

به عنهم.

والدعاء عند الموت يتسم بالإخلاص، والاندماج التام في معاني الدعاء؛ لأن المرء على وشك أن يغادر الدنيا، فما له بها أرب، ونظرته في هذه اللحظات على الآخرة، فهو يرجو المغفرة عن ذنوب اقترفها، والرحمة من لدن مالكها.

وهذا معاوية، خليفة المسلمين، وقد استعرض حياته، والتفت إلى ربه في لحظات تَبْهُت عندها جميع لحظات الدنيا، يقول:

«لما احتضر معاوية، رفع يديه، وقال متمثلاً:

هُوَ المَوْتُ، لاَ أَدْهَى مِنَ المَوْتِ
أُحَاذِرُ بَعْدَ المَوْتِ أَدْهَى وَأَفْظَعَ

ثم قال:

اللهم فأقل العثرة، واعف عن الزلة، وعد بحلمك على جهل من لا يرجو غيرك، ولا يثق إلا بك، فإنك واسع الرحمة، تعفو بقدرة، وما وراءك

مذهب لذي خطيئة موبقة، يا أرحم الراحمين» .[1]

ومن الأدعية الغريبة عند النظرة الأولى، ولكنها ليست غريبة عند التبصر والتدبر، الدعاء الآتي، وهو يليق بصحابي صحب الرسول ﷺ ويتوقع منه أن يكون عف اللسان، عادلاً في دعائه، على من اختار أن يدعو له، بما يشبه الدعاء عليه. والدعاء جاء على لسان أبي هريرة، كان يقوله إذا استثقل أحداً، وهو:

«اللهم اغفر له، وأرحنا منه!» .[2]

ويأتي دعاء مغلف ببعض الحنق، ولكنه دعاء منصف، على ما فيه من مظهر الغضب:

«كتب إبراهيم بن سيابة إلى صديق له كثير المال كثير الدخل، كثير الناض (الدراهم والدنانير)، يستسلف منه نفقه، فكتب إليه:

العيال كثير، والدخل قليل، والدين ثقيل، والمال

(١) البصائر: ١/ ٢٢٣.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٤٠٣.

مكذوب عليه.

فكتب إليه إبراهيم:

إن كنت كاذباً، فجعلك الله صادقاً، وإن كنت مُلِيماً، فجعلك الله معذوراً» .[1]

ويضيء دعاء يعلّمه الرسول ﷺ لأصحابه إذا غزوا، يُتبع هذا الدعاء ارشاداً لهم، بأن لا يتمنوا لقاء العدو، فإن هذا يدخل في حدود البغي، والباغي تدور عليه الدوائر:

«قال رسول الله ﷺ لا تمنوا لقاء العدو، فعسى أن تبتلوا بهم، ولكن قولوا:

اللهم اكفنا، وكف عنا بأسهم» .[2]

ومن الأدعية التي قالها مهموم، فزال همه، وسجين فأفرج عنه:

«كان رجل مظلوم في سجن الحجاج مغموماً، فأتاه آت، فقال له:

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٤٠٥.

(٢) عيون الأخبار: ١/ ١٨٥.

ادع الله .

قال : وبم أدعو؟

قال : يا من لا يعلم كيف هو إلا هو، ولا يعلم قدرته إلا هو، فرج عني ما أنا فيه .

فقالها، فأطلق الله سبيله» .[1]

ويأتي الدعاء من الصحابة والتابعين سائراً على ما تعارفوا عليه، من رجاء واضح القول، مستقيم الهدف، لا يتقعرون فيه، ولا يتشدقون، تجده جامعاً مانعاً، كدعاء عبدالله بن عمر، عندما قيل له : لو دعوت لنا بدعوات :

فقال : اللهم اهدنا، وعافنا، وارزقنا» .[2]

وفي ما يروى عن دعاء الأعراب اقتضاب، يتناسب مع ما تعارفوا عليه، من أن الفصاحة في الاختصار، وما زاد ففضول .

ومن أدعية الأعراب التي تتصف بالاختصار

---

(١) بهجة المجالس : ٣/ ٣٦٧.

(٢) بهجة المجالس : ١/ ٦١ .

قول أحدهم:

«اللهم إني أعوذ بك من الفاجر وجدواه، والغريم وعدواه». [1]

ودعاء مختصر لأعرابي آخر، يقول فيه:

«اللهم اقذف في قلبي هواك، واقطع رجائي عمن سواك». [2]

ولعله لو كان حضرياً لاختار كلمات أرق، فقال مثلا:

«اللهم انزل في قلبي هواك، واكفني برجائك من سواك» ولكن «اقذف» و «اقطع» اختيرت لتناسب جفاء ابن البادية!

ودعاء أعرابي، لمن أطعمه، بدعاء لا يخلو من اختصار، والدعاء هو:

«أطعمك الذي أطعمتني له ما يطعم في الجنة رسله؛ فقد أحييتني بقتل جوعي، ودفعت عني ما لم يكن

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٠٩.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٠٩.

بمدفوع» .[1]

وهذا أقرب إلى تحبير الأدباء، ولعله قد دخل فيه محو وإثبات، ليبدو وكأنه من أقوال البادية، ولكنه بعيد عنها، لما فيه من تعقيد، واستعارة متصيدة، وسجع مثلها. والجملة الأولى بعيد أولها عن آخرها، وهذا يتنافى مع أسلوب البادية وأقرب إلى دعاء الأعراب القول الآتي:

«قيل لأعرابي: أتحسن أن تدعو؟

قال: نعم، اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة، ونحن نسألك» .[2]

والأعرابيات لهن دعاء، ودعاء مختصر، منتقى مسجوع:

«قالت أعرابية: وقاكم الله هول المطلع، وصرف عنكم سوء المضطجع، وأحسن إليكم في المرتجع» .[3]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١١.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١١.
(٣) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٢.

ودعاء لأعرابي يقول فيه:

«صرف الله مَحْلَه، وحمل رحله، وسر بأوبته أهله، ولا زال آمنا، مقيماً وظاعناً» .[1]

وهذا من أقرب النصوص إلى أقوال البادية، لبساطة كلماته، وانتزاعها من بيئة الصحراء، وما فيها، وما يمر بها.

ومثل هذا في البساطة، وحسن إصابة الهدف في اختيار الكلمات دعاء الأعرابي الآتي:

«اللهم إنا نبات نعمتك، فلا تجعلنا حصاد نقمتك» .[2]

وتأتي أعرابية فتدعو، وتختصر، وتغرف دعاءها، وكلماته من بيئتها التي تعرفها، ومظاهرها التي تراها، فتجعلها مقدمة لطلبها من ربها، وهذا الطلب لم يدونه الكاتب، واكتفى بالمقدمة، التي رأى فيها ما أعجبه:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٢.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٣.

«دعت أعرابية بالموقف، فقالت:

أسألك بسرك الذي لا تزيله الرياح، ولا تخرقه الرماح». [1]

ويأتي دعاء تكمن وراءه فلسفة عميقة، وقد قيل أن داعيه أعرابي، إلا أن ما فيه من فكر بعيد عن ذهن الأعراب، ولكنها فكرة عميقة، اعتز بها الأديب، الذي نمت في ذهنه، وتبلورت، فَلِيُقبل وضعها على لسان أعرابي، والدعاء كما رواه هكذا:

«حج أعرابي من طيء، فكان يدعو، ولا يستغفر، فقيل له، فقال:

إن تركي الاستغفار، مع ما أعلم من عفو الله، ورحمته، لَضَعف؛ وإن استغفاري مع ما أعلم من إصراري لَلُؤْم». [2]

ويحنق أعرابي على قوم سألهم فردوه، واستجدى منهم فلم يعطوه، ولم يدع عليهم من أجل ذلك؛

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٣.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٣.

ولكنهم هم دعوا له، فرد دعوتهم بملاحظة أبداها على نيتهم غير المخلصة في الدعوة، التي دعوا له بها، والملاحظة، لا شك، أنها في محلها، وهي ملاحظة ذكية وقريبة، ولكنه لا يقع عليها إلا قلب محترف بخيبة الأمل، مثل قلب الأعرابي في هذا الموقف:

«سأل أعرابي قوماً، فقالوا له:

بورك فيك.

فقال: وكلكم، والله، إلى دعوة لا تحضرها نية»[1].

«بورك فيك» كلمة توازي ما نقوله نحن اليوم للمستجدي: «على الله» أو «ربنا يعطيك»، ونحن نقصد صده، ونوحي إليه بقطع أمله فيما عندنا، ولكنها كلمة مُؤَدَّبَة، ظاهرها الدعاء، وباطنها النهر والصرف، لا تعضدها نية، ولا يقف خلفها معنى، إلا معنى الرفض والإبعاد، فظاهرها غير باطنها: ظاهرها جميل، وباطنها بشع؛ ظاهرها الدعاء، وباطنها الرفض والإبعاد، ظاهرها العطف، وباطنها

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٥.

الاستثقال. لهذا قال الأعرابي ما قال، ولم يقل إلا الحقيقة، والناس يعرفون هذا، ولكن ليس لديهم إلا هذه الوسيلة إذا أرادوا أن يتمسكوا بأذيال الحضارة؛ فإن لم يتبنّوا هذا الموقف فليس أمامهم إلا أن يبعدوه بكلمات جارحة، أو ألفاظ قاسية، وقد يعطيه بعضهم درساً في تحسين العمل، والكد والكدح، بدلاً من الاستجداء، وسؤال الناس.

ويروى دعاء من أعرابي لعبدالله بن جعفر، وهو المعروف بجوده، المتناهي في كرمه:

«لا ابتلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك؛ وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك. أبقاك الله ما تناسق الليل والنهار، وتناسخت الظلم والأنوار». [1]

لقد أخذ هذا الأعرابي جانباً مهماً في الحياة، فاختاره مادة لدعائه، فجاء مقبولاً بمعناه، وبصيغته.

ومن الأدعية المعقدة التي لا تتواءم عباراتها مع عبارات الأدعية المبسطة، وتعزى إلى أعرابي، وهذا

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٩.

يجعلها أبعد، وهذا هو الدعاء:

«اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أنعم بترك النعيم، طمعاً بما وعدت، وخوفاً مما أوعدت».[1]

هذه الجمل المغتصبة، والتطابق المتكلف، والتجانس المقتسر، أفقد الدعاء جوّه، وأبعده عن محيط الخشعة، والانقطاع إلى الله، وذَهَبَ الفكر يَنْجُر الألفاظ، ويبني الجمل؛ وظن واضع هذا الدعاء، أنه سوف يُقبل بمجرد أن يعزى إلى أعرابي، ونسي أن كلماته فضحته، وأسلوبه كشفه.

وتقبل الدعوى على الأعرابي بأنه قال الدعاء الآتي:

«لا ترك الله له شفراً ولا ظفراً».[2]

ويقول صاحب كتاب «ربيع الأبرار» أن القصد لا ترك الله له عيناً ولا يداً، ولعل المقصود مالاً ولا دابة، أي قطعةُ من خيري الدنيا؛ وهذا الأختزال،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٤.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٠.

والاقتصار على هذه الجملة المختصرة، الوافية المعنى، المحيطة بالهدف، تليق بالأعراب، خاصة وأن ألفاظها من بيئتهم، ونسقها نسق كلامهم. ومثلها الجملة الآتية:

«جعل الله رزقك فوت فمك».

أي تنظر إليه، ولا تقدر عليه». (١)

ويأتي دعاء هو موضع شك، ولا نجزم إن كانت الأعرابية، أتت بما أتت به، أو قالت ما قالته، ويحتاج الأمر إلى دراسة ومعرفة ما إذا كان الفعل الذي جاءت به مما يحدث في البادية؛ وهو لا يستبعد، لأنهم في الحاضرة، إذا سافر من يفرحون بارتحاله، لثقل ظله، أو أذاه؛ قالوا: «اكسروا خلفه شَرْبَة»، فإن كان ظله رسخاً وحديداً قالوا: «اكسروا زِيراً»؛ وهذا ما فعلته الأعرابية ودعت به:

«خرج أعرابي، وكانت له امرأة تفركه، فاتبعته نواة، وقالت:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٠.

شطت نواك، ونأى سفرك.
ثم اتبعته روثة، وقالت:
رثيتك، وراث خبرك.
ثم اتبعته حصاة، وقالت:
حاص رزقك، وحص أثرك». [1]

ويعزى إلى أعرابي دعاء، فيه من ألفاظ البادية، وفيه حرص على السجع، لأن الدعاء نبيل، والسجع نبيل، وليس لهذا إلا هذا؛ حتى الكتاب إذا كتبوا كتاباً أطلقوا فيه العبارة، حرصوا أن تكون المقدمة مسجوعة، لأن لها المقام البارز، فهي المدخل، وهي التي تعطي الفكرة الأولى عن الكاتب، وهم عندما يكتبون رسالة من خليفة إلى خليفة، أو من ملك إلى ملك، يحرصون على السجع؛ وجاء وقت اعتز السجع فيه، وطغى على الكتابة؛ وكان الذين بدؤوه يتقنونه، ثم جاء قوم فسدت لغتهم، فتكلفوا السجع، فانحط معهم إلى دركات متدنية، ودرجات واطئة.

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣١.

وفي الدعاء المسجوع قول نسب إلى أعرابي، قال فيه:

«لا رشد قائده، ولا سعد رائده؛ ولا أورى قادحه، ولا أدلى مانحه، ولا أصاب غيثاً، ولا وافق إلا ليثاً». [1]

ومثله في الكلمات الصحراوية، التي تمثل حياة البدوي، وما حوله من جمال، وأغنام، وبعض أجزاء جسمها، مما يتماشى في حروفه مع ما اقتنصه الداعي من سجع، وما ركبه من جمل، فإن كان الأعرابي قاله حقيقة، فليس بعيداً ما جاء به مما يمثل حياته وبيئته؛ وإن كان قيل على لسانه من حضري حبر القول، وحسنه، وشذبه، فقد أجاد التقليد، وأتقن تعمية الأثر، والدعاء هو:

«لا ترك الله لك خفاً يتبع خفاً، ولا ظلفاً يتبع ظلفاً، وخلعك من أهلك خلع الوظيف، وأحوجك إلى بيع الطفيف». [2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٢.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٢.

ونتقل إلى دعاء امرأة، هو أقرب إلى الأمنية، وجاء شعراً، مما أضفى رونقاً على القول:

«قالت امرأة من بني ضبة في زوجها:

وَمَا دَعَوْتُ عَلَيْهِ حِيْنَ أَلْعَنُهُ
إلاَّ وَآخَرُ يَتْلُوْنِي بِآمِيْن
فَلَيْتَهُ كَانَ أَرْضَ الرُّوْمِ مِنْزِلُهُ
وَأَنَّنِي قَبْلَهُ صُيِّرتُ بالصِّين»[1]

وإذا كانت هذه دعت على زوجها، ولعنته، ووجدت من يؤمن على دعائها؛ فإن هناك من دعا دعاءًا أكثر غرابة، فقد دعا على نفسه بالصمم، ولابد أنّ هناك سبباً حده على ذلك، والدعاء هو:

قال أعرابي:

«اللهم صلخاً كصلخ النعامة، يريد به شدة الصمم».[2]

ويتجه أعرابي إلى ربه بدعاء مسهب، يتعوذ به من

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٣.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٤.

ما يعرفه من منغصات الحياة، فيجمع فيه ما يعرف عنها، ويقول:

«أعوذ بالله من الأسد والأسود، والذيب الأعقد؛ ومن الشيطان والإنسان، ومن عمل ينكس برأس المسلم، ويغري به لئام الناس».[1]

ودعاء آخر مثله في قربه من دعاء البادية، وهو أقرب إلى روحهم، وطريقة كلامهم، وسلاسة أسلوبهم، وبعدهم عن التكلف، وعمدهم إلى الأمر مباشرة، دون اتخاذ الطرق المعوجة، والدعاء هو:

«اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك، أو أضل في هداك، أو أذل في عزك، أو أضام في سلطانك، أو اضطهد والأمر لك».[2]

ورابعة بنت إسماعيل القيسية، وهي غير رابعة العدوية، امرأة صالحة، قيل إنها تصوم الدهر، ولهذا فلا غرو أن تستعيذ بالله ممن يطرق عليها بابها،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٥.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٥.

فيقطع عنها ما اتصل من حبل عبادتها، ويصرفها عما هي فيه من انقطاع إلى ربها، وهذا هو ما قيل عنها:

«كانت رابعة القيسية إذا دق عليها الباب، قالت:

اللهم إني أعوذ بك من كل جَاءٍ يشغلني عن عبادتك، ومن كل عارضٍ يعرض بيني وبين ما أتزود به للقائك». [١]

ورابعة دعت دعاء مناسباً لوقتها، وما هي فيه، وهو دعاء يتكرر من الناس في مثل هذه الحالة، وهذا ابن عمر يدعو دعاءًا، أوجبته اللحظة، ودعت إليه المناسبة، فاختار منه ما يتماشى معها، وجاء هكذا:

«كان ابن عمر إذا فرغ من طعامه، قال:

الحمد لله الذي رزقنا، وجعلنا نشتهيه، فربّ من يقدر عليه لا يشتهيه». [٢]

فابن عمر قال ما قال بمناسبة الأكل، وبعد الانتهاء منه، وجاء ومعه المنطق، ويحمل ما يؤمله

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٥.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٠٩.

عبدالله بن عمر من ربه، وقد أعطى أسباب هذا الدعاء تالياً له.

ويأتي الدعاء من الأديب عميقاً، يليق بمعرفته باللغة، والفكر، وتزيد قوته، وتربو فصاحته إذا جاء من أديب لامع مثل أبي حيان التوحيدي، وهو من هو في علمه، وفي أدبه، وفي معرفته بأساليب اللغة، وإتقانه لأجودها، وهذا دعاء له يقول فيه:

«نصرك الله مُعينا، وأعانك ناصراً». [1]

تُرى، وهو مشتغل بصياغة الجملة، ما مدى استحضاره فكره، لمخاطبة ربه، وتصفية النية لما قصده، لأن مثل هذه الجملة تحتاج إلى التفاتة، فاهتمامه بالصياغة يصرفه عن الهدف الأساس.

ونعود إلى الدعاء عند المناسبة كما دعا ابن عمر، وهذا المأمون في موقف مثل موقف ابن عمر، يدعو بعد أن أكل، ورفعت المائدة، فجاء دعاؤه حمداً لله على هذه النعمة التي متعه بها، وهذا ما قاله:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٢.

كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه قال :
الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا» .[1]

لقد جاء الدعاء موافقاً للحال، فمائدة الخليفة عليها أكثر مما يفي بقُوته، فهو ينهض، وعليها ما عليها من النعم، التي تكفي فريقاً أو فريقين ممن جلسوا إليها مع الخليفة .

ويقف عمر بن عبدالعزيز موقفاً من دعاء دعي به له، رأى أنه غير مستقيم، وهو لا يسكت على الخطأ، مثل جده ـ رضي الله عنهما ـ لا يُغضي على القذى، ويتقرب إلى الله باصلاحه، لأنه يخشى أن يحاسب على السكوت، ويعاقب على التغاضي، وهذا هو الدعاء، وهذا هو الاعتراض :

قيل لعمر بن عبدالعزيز :
جزاك الله عن الإسلام خيراً !
فقال : بل جزى الله الإسلام عني خيراً .[2]

---

(١) ربيع الأبرار : ٢/ ٢١٦ .
(٢) ربيع الأبرار : ٢/ ٢١٧ .

ألا يذكرنا هذا بموقف جده عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما قال له شاعر :

«مَا سَاسَنَا مِثْلكَ يَا ابْنَ الخَطَّاب

أَبَـرّ بِـالأَقْصَـى وَبِـالأَصْحَـاب

بعْــدَ النَّبِيِّ صَاحِـبِ الكِتَـاب

فنخسه عمر ، وقال :

«أين أبو بكر ، ويلك !» .[1]

ويجمع طاووس بن كيسان الدنيا والآخرة في دعاء مختصر ، يدعو به ، فيقول :

«اللهم ارزقني الإيمان والعمل ، وامتعني المال والولد» .[2]

ومن دعاء المناسبة دعاء كان يدعو به عامر بن قيس ، فكان إذا أصبح قال :

«اللهم غدا الناس إلى معايشهم ، وأسواقهم ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة : ٢/ ١٠٣ .

(٢) ربيع الأبرار : ٢/ ٢١٧ .

ولكل منهم إليك حاجة، وحاجتي أن تغفر لي» .[1]

ومثل هذا الدعاء أقرب إلى أن يكون خارجاً من القلب، إذ أوحى به الصباح، فجاء سهلاً، لا تكلف فيه، ولا ابتسار، وفيه منطق، يرسم صورة جميلة، لهؤلاء الناس الذين انْبعثوا من بيوتهم، يخترقون الممرات والأزقة، إلى الأسواق، يطلبون رزق الله لمعاشهم، والسلام لمعادهم، كاسبين غانمين، أما عامر، فلن يذهب مثلهم لما ذهبوا إليه، وطلبه من الله هو غفران ذنوبه.

والمواقف الطريفة أحياناً تسبق الدعاء، أو تصاحبه، ونجد فيها عناء، برجاء الدعاء، والاستجابة له، وممن طرق هذا الباب المبتدع، الذي لم يسبق إليه صاحبه هذا الموقف الطريف:

«كان زبيد اليامي يستتبع الصبيان إلى المسجد، وفي كمه الجوز، ويقول:

من يتبعني منكم أعطيته خمس جوزات.

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٧.

فإذا دخلوا المسجد قال:
ارفعوا أيديكم، وقولوا:
اللهم اغفر لزبيد.
فيفعلون، فيقول:
اللهم افعل، واستجب لهم، فإنهم لم يذنبوا» .[1]

لقد تعب زبيد في سبيل دعاءٍ أمل أن يستجاب، وانفق من ماله على جوزٍ يشريه، ويغري هؤلاء الصبية، للمجيء إلى أطهر بقعة في البلدة، وأشرف مكان، أملاً في الاستجابة، من أطفال لم يذنبوا، ودعاؤهم أقرب إلى الاستجابة، في ظل طهارتهم، وفرحتهم.

ويعرف الدعاء أهلُه، ويرون فيه ما لا يراه غيرهم، وقد يأتي الدعاء من السهل الممتنع، فيعرف المختصون قيمته، فيغبطون من ابتدعه، لأنهم يعرفون الدعاء الخارج من القلب.

وهنا موقف أقر فيه عالم بما غبط عليه خليفة،

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٨.

دعا بدعاء رأى فيه العالم الصفاء، وأحس بأنه نابع من القلب، ويليق بخليفة يخاف الله، ويرجو ما عنده، وهذه هي القصة:

«قال الشعبي:

حسدت عبدالملك (بن مروان) على كلمة تكلم بها وهي:

اللهم إن ذنوبي كثرت، فجلت عن الصفة، اللهم وإنها لصغيرة في جنب عفوك، فاعف عني». [1]

هذا الدعاء فيه إقرار بالذنب، وعظم الخطيئة، حتى لا يحدها وصف، وتسليم بأن عفو الله يجعلها صغيرة، وهو يعزم في طلب العفو.

والحج مناسبة من المناسبات التي يزدهر فيها الدعاء، وتلهج الألسن بالمغفرة، وطلب الثواب، وللدعاء فيه صيغ مختلفة، هذه إحداها:

«جعل الله حجك مُثاباً، ودعاك مُجاباً، ومساعيك

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/٢١٨.

مشكورة، وذنوبك مغفورة» .[1]

والعزاء من المناسبات التي تعز فيها الكلمات، وتنفر المعاني، وقد ورد بعض صيغ الدعاء منها:

«لا أنساك الله مصيبتك بأعظم منها.

جعل الله المصيبة لك لا بك، والعزاء فيك لا عنك.

وفي التعزية عن امرأة:

لا صفر بيتك، ولا استوحش ربعك، ولا ضاع أجرك، ورحم الله متوفاك» .[2]

وقد ينبو القلم، ويكبو الفرس، وتطيش الرمية، ويأتي الدعاء خارجاً عن الذوق، مجانياً للقبول، فيرد رداً ملائماً، وقد يكون في الرد قسوة، مثلما حدث لصاحب هذا الدعاء:

«كتب رجل إلى بعض الأجلة:

أحسن الله إباءتك!

فاستبرد دعاءه، فكتب:

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٩.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٠.

عجل الله إماتتك!» .[1]

ويبدو أن الجمل التي يصد بها السائل تغري بالوضع والنحل، خاصة إذا كان السائل أعرابياً، وقد رأينا مثلاً لذلك، في السائل الأعرابي، الذي كشف نية الذين دعوا له، ورد دعوتهم لأن النية الباطنة لا تتماشى مع الكلمات المُقالة، وهنا مثل آخر عن أعرابي صُدَّ، ولم يعط مطلوبهُ، فقال ما دل على منتهى غضبه، لأن الذي رده طفل:

«سأل أعرابي على باب دار، فقال له صبي:

بورك فيك!

فقال: قُبح هذا الفم، لقد تعلم الشر صغيراً» .[2]

لأن النية خلف الكلمة لم تكن الدعاء، وإنما حجب طلب، قابلها الأعرابي بالرفض، واعتبرها شراً، لقد ذهب في رأيه إلى أقصى اليسار، وهاجم بأحد سلاح عنده. وليس غريباً هذا الموقف، لأنه

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٢.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٣.

يتكرر بصور مختلفة على ألسنة الناس، ليس فقط في السؤال، والاستجداء، ولكن في كل أمر يسير فيه الصغير على نهج الكبير مما لا يرضي طرفاً ثالثاً. والعامة اليوم إذا رأت صغيراً عمله غير مرض، يتبع فيه من هو أكبر منه، قالت: «جِعْلَ الدِّبا ما يَلْحَقْ أُمْهاتُه». والدبا كما هو معروف صغار الجراد؛ وبما أن الجراد مؤذ، فصغاره كذلك، فهم يَدْعُون أن لا يكبر هذا الصغير، وأن يقصمه الله وهو صغير، لأنه إذا كبر كبر معه أذاه، الذي بدت بوادره، وبرق مظهره.

ويأتي دعاء في موقف غريب من جميع جوانبه، جانبٌ فيه إلحاح، وجانب فيه حب، وجانب فيه بغض، ثم يطبق على هذا كله دعاء مخلص، وفي موقف الرجلين، الداعي والمدعو له، تنافرٌ متناهٍ، والقصة هكذا:

«استقبل علي بن عيسى بن ماهان، في أهل بلخ، عصام بن يوسف الزاهد، فسلم عليه، فأعرض

عنه عصام، ولم يرد عليه، فوقف ابن عيسى، ورفع يديه، وأرسل عينيه، وقال:

اللهم إن هذا الرجل يتقرب إليك ببغضي، وأنا أتقرب إليك بحبه؛ فإن كنتَ غفرتَ له ببغضي، فاغفر لي بحبه، يا كريم». [1]

إنه موقف غريب، وطريف، رجل انصرف إلى الآخرة، يصد عن رجل من أهل الدنيا، غارق في بحارها، تتلاطمه أمواجها، صاحب الدنيا يعرف لطالب الآخرة حقه، فيؤديه وافياً، والمبعد عن الدنيا لا يتقبل هذا التقرب، خوفاً من أن يجرح عمله، فتتحرك شفاه القائد، وتدمع عينه، ويدعو دعوة فيها مسالمة، وفيها رِضًى، وفيها إقرار بواقعه، وواقع قبيله، والدعوة موزونة، وعادله.

ويبدو أن محاولة إحياء الروح الفارسية، في العصر العباسي، من بعض الذين يرجعون في أصلهم إلى الفرس، أو من يميل إليهم، أو من يتغاضى عنهم،

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٢٥.

قد وصلت إلى الدعاء بدعائهم، ومن دعاء وزير إلى خليفة، يأتي القول هكذا:

«كان وزير المأمون (لعله الفضل بن سهل)، إذا دخل عليه حياه بتحية أبرويز:

«عشتَ الدهر، ونِلت المنى، وجُنبتَ طاعة النساء»[1].

ومر بنا اعتناء بعض الداعين بالسجع، لأنه، في نظرهم، أشرف أسلوباً، وأليق بالدعاء، وأقرب للحفظ عند محاولة التكرار. ولكن ليس كل الناس يرى هذا الرأي، وليس كلهم يفضل هذا الأسلوب، بل هناك من انتقده، ولعله رأى أن الانشغال بالمعنى أهم من الانشغال بالأسلوب، واستحضار النية خير من البحث عن الكلمات، واصطفائها. وهذا ما قاله أحدهم تعليقاً على من تعمد السجع:

«مرّ بعض السلف بقاص يدعو بسجع، فقال:

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٥.

أعلى الله تبالغ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً الأعجمي[1]، يدعو، وما يزيد على قوله:

اللهم اجعلنا جيدين، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير». [2]

وما يُحث عليه في الدعاء هو عدم رفع البصر إلى السماء، ويحث على خفض الصوت فيه؛ وقد عاتب أبو اسحاق رجلاً سمعه يجأر بالدعاء فقال له:

«لكن زكريا نادى ربه نداءاً خفياً».

ويُحث على الكلام المطبوع لا المسجوع في الدعاء، ويروى عن النبي ﷺ أنه قال:

إياكم والسجع في الدعاء؛ حسب أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول». [3]

---

(١) هو أبو محمد حبيب الفارس، سكن البصرة، كان تاجراً موسراً، فترك الدنيا، وانفق ماله في الصدقة، وكان رقيقاً بكاءًا، عابداً، فاضلاً، ورعاً، زاهداً، أخذ عن الحسن البصري وابن سيرين.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢١٩.

(٣) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٩.

والمسلم مطلوب معه الأدب مع ربه، ومن مظاهر الأدب أن يفتتح دعاءه بالذكر، ولا يبدأ بالسؤال؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه ما سمع يستفتح الدعاء إلا قال:

«سبحان ربي الأعلى الوهاب».

ويزيد الخيّرون بالحث على ختم الدعاء بالصلاة على رسول الله ﷺ.

وهناك زاوية تستحق الالتفات، وقد تنبه لها رجل من خيرة الناس، فنبه آخرَ عنها، وفي القول منطق، وفيه نتيجة تبصر وتدبر، وهذا هو:

«سمع مسلم بن يسار رجلاً يدعو على أخ له ظلمهُ، فقال:

لا تدع عليه، ولا تقطع رحمك، وكِلْهُ إلى الله، إن خطيئته أشد عليه من عَدُوٍّ له»[1].

وللعرب في جاهليتهم أدعية أخذوها من بيئتهم،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٢.

وعاداتهم، وتقاليدهم؛ وتكاد تكون لغيرهم ألغازاً تحتاج إلى شرح، ومن ذلك قولهم:

«رماه الله بليلة لا أخت لها. أي أماته بمصيبة».

ويقولون:

«شَرِبْتَ قائماً، وحلبتَ قاعداً».

دعا عليه بأن يشرب قائماً، كما تشرب العبيد؛ وأن يحلب الغنم دون الإبل.

ويقولون:

«أباد الله رواغيه، ولا أبقى ثواغيه».[1]

أي قضى على إبله وغنمه؛ وهذا هو ما يمكن أن يمتلكه ابن البادية؛ وعلى هذا فهو يدعو عليه بالفقر.

ويقول شاعرهم:

«ابْعَثْ عَلَيْهِمْ سَنَةً قَاشُورَة
تَحْتَلِقُ المَالَ احْتِلاَقَ النُّورَة»[2]

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢٣.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٣.

أي لا تبقى ولا تذر من ماله شيئاً، كما تحلق النورة الشعر، والنورة كاوية، تكاد تأكل الجلد، إذا لم يكن مستعملها حذراً، ومجرباً؛ وكانت إحدى وسائل الدباغة عند العرب.

ويقولون في دعائهم:

«أرانيه الله قائماً قاعداً، ضاحكاً عابساً، رفيعاً وضيعاً. أي مصلوباً»[1].

هل سمع أحد برجل قال: الحمد لله، ثم ندم على قولها، وأخذ يستغفر من ذلك أربعين سنة، إنه لغز لمن يسمعه، ولا يدري ما وراءه، ولو عرف لوجد أن الرجل محق في استغفاره من قول هذه الكلمة، ولعرف أن الرجل يقولها، ليبدي ندمه، ويرجو من الله الغفران من ذلك، والقصة هكذا:

«قال السر السقطي:

أنا استغفر الله من قولي: الحمد لله منذ أربعين سنة.

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٣٣.

قيل: كيف؟

قال: وقع الحريق بالليل، فخرجت أنظر دكاني، فقيل: الحريق بالبعد من دكانك، فقلت: الحمد لله.

ثم قلت: هب دكانك تخلص، أما تهتم للمسلمين؟»[1]

بعد أن ثاب إلى رشده، وعاد إليه عقله، وفكر وتدبر، وجد أنه قد أخطأ في نظره إلى هذه النازلة، ووجد أنه فكر في نفسه، ونسي أخاه المسلم، الذي حلت به الكارثة، وكان الأولى به أن يقول قولاً آخر، يدل على حبه لمجتمعه المسلم، كأن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، أو اللهم الطف بمن نزل به الأمر، وخذ بيده.

ولهذا غضب «السرّ» على نفسه، ولامها، ولا طريق له بعد ذلك، إلا أن يستغفر الله، منذ ذلك اليوم، حتى اليوم الذي روى فيه هذه الرواية.

ومن الأمور الملفتة للنظر في أمر الدعاء، دعاء

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٤٢.

لفت نظر الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وناهيك بدعاء يعجب مثل هذا الخليفة التقي الورع! والخبر كمايلي:

«قال عمر بن عبدالعزيز:

ما أحسن تعزية أهل اليمن: لا يحزنكم الله، ولا يفنيكم، وأثابكم ما أثاب المتقين، وأوجب لكم الصلاة والرحمة». [1]

حقاً إنها تعزية معجبة، ودعاء جامع، يليق في كلماته ومعانيه بالتعزية، وموقف الحزن؛ وموقف التعزية من أصعب المواقف، لأن الإنسان فيه لا يجمل به أن يطيل في العزاء ويسهب؛ وإذا ما صمت خيم على المكان صمت رهيب، يزيد الحزين حزناً؛ والكلمات مهما كانت مناسبة وتحمل معاني نبيلة، ومؤداً شريفاً، إلا أن المعزّى قد لا يكون في وضع يسمح له أن يستوعب مرامي القول، وذهنه في ذهول من الصدمة، خاصة إذا كان المفقود عزيزاً، أو جاء الأمر فجأة، أو الميت في سن الشباب، وبعض الفقد

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٤٥.

يذهل، ويأخذ بلب المعزَّى.

لهذا كانت مواقف التعزية، خاصة في اليوم الأول صعبة، ومحرجة، وحساسة، وتحتاج إلى تفكير، وروية، وخفة ظل، وقِصَر زيارة؛ وليس المقام الآن مقام الحديث عن العزاء، وإلا ففيه مما يجانب هذه القواعد طرائف تضحك الثكلى. وسبق أن جاء طرف منها في مقالة سابقة.

ومن الأدعية المبتكرة الصادقة، دعاء تلفظ به ابن السمك، محمد بن صبيح، قال فيه:

«تبارك من خلقك، فجعلك تبصر بشحم، وتسمع بعظم، وتنطق بلحم». أجل سبحانه! وهذا من نعمته، وقدرته، فالعين المعجزة، التي منها البصر، وهو من أكبر نعم الله، من مادة هي أقرب في لينها للشحم، والسمع وهو نعمة أخرى فضلى تمر الموجات الصوتية فيها بعظيمات تأتي بمعجزة السمع، واللسان لحمة رقيقة لدنة يفصح بها الإنسان عما يسمع أو يرى، أو يريد أن يسمع ويرى. هذه النعم الظاهرة، مع

غيرها من النعم الأخرى هي من هذه الوسائل البسيطة في مظهرها، الرائعة في أدائها؛ أجل تبارك الله أحسن الخالقين!

وقد يأتي الدعاء مبنياً على حادثة، أو مرتبطاً بأمر، فينسى مع الزمن، ويأتي وقت يكون فيه الدعاء، ولا يعرف مغزاه، كما حدث في الدعاء الآتي:

«كان في دعائهم على الرجل: «رفع الله جريبك».
وأصله أن عمر - رضي الله عنه - أمر بجريب من طعام، فخُبز، وثُرِدَ بزيت، ثم دعا بثلاثين رجلاً، فجعله غداءهم، ثم عشاهم بمثله، فقال:
يكفي الرجل جريبان في كل شهر.
فمعناه: قطعهم الله عنك بالموت، كما تقول: قطع الله رزقك!»[1].

دقة عمر في قياس ما يحتاجه الرجل من العطاء، من بيت مال المسلمين، جعله يلجأ إلى هذا القياس المتقن؛ ولهذا دخل فعله في الأمثال، ثم دخل دعاءاً!

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٦١.

هذه بعض الأدعية، بعضها حقيقي، وبعضها مركب منحول، يأتي بعضها من زاوية، وبعضها من أخرى، للبادية أدعية، وللحاضرة أدعية، للعرب أدعية، وللفرس أدعية، للمزارعين أدعية، وللصناع أدعية، والأدعية تأخذ كلماتها أحياناً من البيئة، وأحياناً من الصنعة، وأحياناً تأتي سماعاً واقتداءاً، وما أتينا به قليل من كثير مما دون، وما لم يدون أكثر، لأن أغلب الناس يدعو بما حضره، وما سره في لحظة ما، أو أحْزنه، والمناسبات توحي بالدعاء، وكلماته، ومعانيه، فالعيد له دعاؤه، والولادة لها دعاؤها، والتعزية لها دعاؤها، والخطب في المناسبات المختلفة لها دعاؤها. ومن فتح سمعه، وأنصت فسوف يسمع من الدعاء ما لا تحصره الكتب، أو تحيط به التعابير.

***

من مظاهر الحضارة الإسلامية(1)

وصلت الحضارة الإسلامية في العصر العباسي أوجها في إنجاز ما تقتضيه الحضارة المتقدمة، ففيه استوفت الكتب تأليفها في العلوم المختلفة، وفيه تطورت الفنون والحرف، إلى أقصى ما سجل في مضمار حضارات الأمم.

وانتشر العلم بين الناس، وزاد الإقبال عليه، فغزيت الصحراء بالباحثين عن اللغة والعادات، والقبائل والأنساب، وساح الناس في أرض الله الواسعة، يتلمسون ما دونه السابقون من الأمم المتحضرة من علوم وحكم؛ وأقبل أرباب المهن والصناعات على بغداد وغيرها من عواصم المناطق، فرفعوا شأن المهن والصناعة.

وشع في أرجاء الخلافة الإسلامية ضياء العلم بأنواعه، ودونت السنة، وأقبل طلاب العلم على

---

(1) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٨٩) في ١٤١٦/٦/٢٥هـ الموافق: ١٩٩٥/١١/١٨م.

الحديث والفقه والتفسير، وتوسعت المدارك بتدوين كتب الفكر وتعليمها؛ وألفت آلاف وآلاف من الكتب في التخصصات المختلفة، يبدأ بعضها بكراسات اجتهد أصحابها فيها، ثم سرعان ما تصبح الكراسة مجلداً ثم عدداً من المجلدات.

ولم يضق مجال الإبداع أمام العلماء في التأليف، فالمجتمع مليء بضياء الفكر، وإنتاجه، وما على العالم إلا أن يمسك بطرف موضوع من المواضيع الجذابة، أو المفيدة، فينهال عليه سيل من النصوص والأفكار، وبتفاعل هذه بعضها مع بعض يأتي خير عميم.

وقد اصطفق العلم بمجالاته المختلفة في بغداد وغيرها، نتيجة ما أُلِّف وترجم؛ فلم يكن للناس هَمٌّ إلا العلم وطلبه؛ وزادت لمعة الحضارة بما جاء من الأندلس العربي، وما تبلور منه، فتلاقى الشرق العربي مع غربه، فجاء من ذلك أغمار من المحصول العلمي والديني والأدبي؛ واسبطرت ذلوله تنهب سهول الفكر.

وإذا كان العصر العباسي الثاني، الذي بدأ فيه الانحسار العلمي، وبدأت فيه الحضارة تبهت، عانى من عدم الإبداع، فإنه تشبث بالعلم والثقافة، وراح يفسر المجمل، ويفصل المختصر، ويختصر المطول، رغبة في أن يثبت دوره، ويؤكد وجوده في هذا الحقل النبيل. وتفوقت فئة من أهل الثقافة مثل كتاب التاريخ، بما حرصوا على تدوينه من وقائع زمنهم، خاصة عندما بدأ الضغط الصليبي، وزحفه على الشام، وقبله المد الأعجمي من شرق الخلافة الإسلامية إلى مركز السلطة في بغداد، مما أضعف سلطة الخليفة، وشل مشاركته، فأثر هذا على العلم وطلابه، وهز مركز بغداد.

أما عصر الازدهار فلم يلتفت كثيراً إلى الاختصار لما هو مطول، ولم يطول، ويفصل، ما هو مختصر، لأن مجال الإبداع كان متيسراً لهم؛ وكانوا يأتون فيه بالعجب العجاب. تفننوا في طرق مجال التأليف في كل فن، وكان المدون من العلم يساعد على ذلك.

ومن الأمور التي تطرقوا لها، وهي التفاتة ذكية، وملاحظة تدل على حسن استقراء وتبصر، أنهم كتبوا في ما هو متناقض مما دون، وفيما هو متضاد؛ وقد جاء هذا نتيجة العلم الزاخر، المجموع، والمقتبس، والمترجم، مما أتاح لهم تأليف كتب، لعلها الفريدة في تاريخ الحضارات، ومن ذلك ما أصبح منفذاً طريفاً للكتاب حتى في أزمان لاحقة. ومن هذا النسق، مثلاً، كتاب «المحاسن والأضداد» للمفكر العملاق، والأديب المبرز، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وَمَنْ خير من الجاحظ يمكنه الالتفات إلى مثل هذا الجانب من الفكر، وهو صاحب الإبداع في كثير من المجالات، منها ما هو في كتاب قائم بذاته، مثل كتاب «الحيوان»، و «البخلاء»، وكتاب «البرصان والعرجان والعميان والحولان»، وهي كتب تطرقت لأمورٍ الإبداع فيها واضح. وهذا يدل على أن فكر مثقفي ذلك الزمن الزاهر كان دائباً لتحري الحقول المفيدة للحضارة، مما لم يسبق أن

تطرق إليه أحد، وسرعان ما تتكوم المجموعات في المجال المبتدع، فيأتي السيل الزاخر من العقول النيرة.

وكتاب «المحاسن والأضداد» لعله كان فتحاً في هذا الاتجاه، فقد لاحظ الجاحظ أن هناك أقوالاً متناقضة، يأتي منها الشيء مدحاً، ثم يأتي من جانب آخر عن الشيء نفسه قدحاً، دون أن يكون هناك ملامة على المادح أو القادح، لأن القول معزز بالحجة، سواء كان الإقناع بها عقلاً نيراً، أو لفظاً براقاً. فهو يذكر ما ورد عن محاسن حفظ اللسان ثم يعقبه بمساوئ ذلك؛ ويأتي بمحاسن كتمان السر، ثم يتبعه بمساوئه، ويذكر محاسن الشجاعة ومساوئها، ومحاسن التطير ومساوئه، ويعدد محاسن السخاء، ثم يعدد مساوئه؛ ويأتي أحياناً بما لا يتوقع، ولكن الثقافة الواسعة، والعلم الغزير، والملاحظة المتأنية، والتبصر المدرك، والتدبر العميق، مكنته من الإتيان بالغريب، وهو غريب على نمط السهل الممتنع؛ فمثلاً يأتي بمحاسن الصدق، ويأتي بأضراره،

ولا يتصور أن يتوقع أحد أن يكون في الصدق أضرار؛ وكذلك الشكر لا يتوقع أن له مساوئ، والظن المسيطر أنه كله حسنات؛ والوفاء فضيلة لا يخطر في بال المرء أن يكون لها جانب مظلم. ولكن الجاحظ يأتينا بما وجده موثقاً في الكتب، أو في مجتمعه؛ ومجتمعه كان مصدراً ثراً لكثير مما وصلنا مدوناً.

ويأتي إبراهيم بن محمد البيهقي، فيعجبه ما كتب الجاحظ، فينحو نحوه في بعض الأمر، ويختلف عنه في بعضه، فيأتي في مطلع كتابه «المحاسن والمساوئ»، بمحاسن بعض الأمور التي لا يمكن أن يجد فيها المرء مساوئ، مثل: محاسن رسول الله ﷺ، ومحاسن المعراج، ومحاسن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ومحاسن عمر، وعثمان، ثم يدلف إلى نهج الجاحظ في ذكر المحاسن والأضداد، فيأتي بمحاسن الشيء ومساوئه، ومثل الجاحظ يذكر محاسن الشكر، ثم يذكر مساوئه، ولكنه يستقصي أموراً أكثر، ويأتي بما لم يأت به الجاحظ، فيتحدث عن محاسن الرجال، ومساوئ

الرجال، ومحاسن الفقر، ومساوئه، ومحاسن طلب الرزق ومساوئه، ومحاسن الندامة ومساوئها. وهكذا في الرؤيا، وفي المواعظ، وفي الأوائل، والكذب، والأمثال، والمسايرة، والمسامرة، والإغضاء، والعبيد، والمعلمين، وغير هؤلاء، وغير ذلك.

إن التضاد أمر طبعي في بعض الأمور، ولكنه يأتي مفاجأة في بعضها، مما يلفت النظر، ويدعو إلى الاستغراب، ومما لا شك فيه أن النهج الذي ابتدعه الجاحظ كان نهجاً جديداً، اقتنصه بفكره الثاقب من بين طيات ثقافته الواسعة، وقد قدره الأدباء عندما رأوه، وقلده من قلده منهم، وتفننوا في هذا، وأدخلوا عليه ما رأوا أنه يكمل الصورة التي وضع الجاحظ هيكلها، وجاؤا يملؤونها باللحمة والسدى، فأحسنوا الإضافة، وأجادوا المشاركة.

والثعالبي من العلماء الأجلاء، والأدباء المبرزين، وكان له مشاركة في هذا الباب، وقد ستر عمله بعنوان لا يكتشف المرء منه أن داخله يحتوي على

التضاد والتناقض، إذ سماه اسماً يوهم غير هذا؛ والثعالبي لم يكذب في مدلول عنوان الكتاب عندما سماه «اللطائف والظرائف» فما في كتابه من تضاد العناوين يحتوي على أمور لطيفة، ومواضيع طريفة؛ فيها القصة، وفيها الحكمة، وفيها الأثر، وفيها الحديث، وفيها الشعر، بل وفيها الآيات من القرآن.

ولعل كتاب الثعالبي هذا هو القمة في هذا الباب، إذْ اتبع نهجاً ثابتاً في الإتيان بالأمر مدحاً، ثم إتباعه بالذم، وهذا بدأ بأول الكتاب حتى نهايته. وقد بدأ بما تجمع عنده من مدح الدنيا وذمها، حتى بلغت المواضيع التي تطرق لها ثمانية وسبعين موضوعاً، ختمها بباب الوعد، مدحه، وذمه. والكتاب من القطع المتوسط، واحتوى على ثلاث مئة وثمان وخمسين صفحة، فيها من المتعة والفائدة ما لا يفي بوصفه إلا قراءته، والتمعن فيما جاء فيه.

ويأخذ الثعالبي القارئ في رحلة داخل رياض فكره، فيعرض له في كتابه الجانب المضيء من أمر من

الأمور، ثم إذا استوفى منه ما أراد انتقل إلى ضده، فذم ما مدح، هذا يأتي به على لسان، وهذا يرويه عن لسان آخر؛ فالدنيا، وهي أول أمر بدأ به كتابه يأتي عنها بقول لابن المعتز، يمدح فيها الدنيا، ويأتي بما فيها من إشعاع، نجتزي منه مايلي:

«الدنيا دار التأديب، والتعريف، ومضمار التهذيب، والتثقيف، التي بمكروهها يوصل إلى محبوب الآخرة، وميدان الأعمال، السابقة بأصحابها إلى الجنان، ودرجة الفوز التي يرقى فيها المتقرب إلى دار الخلد، والرضوان، وهي الواعظة لمن عقل، والناصحة لمن قبل، وبساط المهل، ورباط العمل، وقاصمة الجبارين، وملحقة الرغم بمعاطس المتكبرين، وكاسية التراب أبدان المختالين، وصارعة المغترِّين، ومصرعة المعتزين، ومفرقة أموال الباخلين، وقاتلة القتالين، والعادلة بالموت على العادلين، ومهبط القرآن المبين، ومسجد العابدين، وأم البنين، وناصرة المؤمنين، ومبيدة الكافرين... إلخ».[1]

---

(١) اللطائف والظرائف: ١١.

وجاء في مدحها ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قيل له :

«يا أمير المؤمنين ألا ترى حرص الناس على الدنيا؟ فقال : هم أبناؤها» .[1]

وكلا وصفي الدنيا السابقين جاءا من نظرة إليها من زاوية تختلف عن الزوايا التي نظر إلى الدنيا منها الذامون لها ، مثل قول ابن السماك ، الواعظ التقي ، الآتي :

«الدنيا كالعروس المجلوة، تشرفت لخُطَّابها، وفتنت بغرورها؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والأبدان لها عاشقة، وهي لأزواجها قاتلة» .[2]

وللشعر نظرة إلى الدنيا من زاوية توحي بالذم، وتستدعي النفرة من الدنيا ، يقول المأمون :

لو نطقت الدنيا ما وصفت نفسها بأحسن من

---

(١) اللطائف والظرائف : ١٢ .

(٢) اللطائف والظرائف : ١٥ .

قول أبي نواس:

وَمَا النَّاسُ إلاَّ هَالِكٌ وابْنُ هَالِكٍ
وَذُو نَسَبٍ فِي الهَالِكِيْنَ عَرِيق
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيْبٌ تَكَشَّفَتْ
لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيْق

وقد ألمّ به ابن بسام بقوله:

أُفٍّ لِـدُنْيـاً وَأَيَّـامِهَـا فَإِنَّهَا لِلْحُزْنِ مَخْلُوقَهْ
غُمُومُها لاَ تَنْقَضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيْهَا وَلاَ سُوقَهْ
يَا عَجَبًا مِنْهَا وَمِنْ شَانِهَا عَدُوَّةٌ لِلنَّاسِ مَعْشُوقَهْ[1]

وقال آخر:

أُفٍّ لِلدُّنْيَا الدَّنِيَّهْ خَبُثَتْ فِعْلاً وَنِيَّهْ
عَيْشُهَا بَدْؤُهُ هَمٌّ وَفِي عُقْبَاهُ المَنِيَّهْ[2]

والوزارة مدحت وذمت، ومن مدحها وذمها، نرى المدخل الذي دخل فيه المادح والذام، والصورة التي كانت في ذهن كل واحد منهما؛ فمنطلق

(١) اللطائف والظرائف: ١٥.
(٢) اللطائف والظرائف: ١٧.

المادح من هذا المنفذ:

«الوزارة اسم جامع للمجد والشرف والمروءة، وهي تلو الإمارة، والدرجة العليا، والرتبة الكبرى، في الرياسة والسيادة».[1]

والذام جاء من هذا الباب:

«كان أحمد بن إسرائيل يذم الوزارة، ويستكثر منه، فلما خطبها، وتقلدها، قيل له:

ألم تكن تذمها؟

قال: بلى، ولكنها مركب بهي، شريف شهي، لا تطيب النفوس بتركه، على ما فيه من عظيم الخطر».[2]

والعقل الذي كرم الله ابن آدم به، لا يستغرب أن يمدحه مادح، ولكن الغرابة تأتي إذا ذمه ذام، ومع أن المدح متوقع، إلا أنه سوف يتبين مما سنورده أن الذم ليس بعيداً:

---

(١) اللطائف والظرائف: ٣٤.

(٢) اللطائف والظرائف: ٣٧.

ومن الصفحات الحسنة التي مدح بها العقل الأقوال الآتية:

«قال حكيم:

لا مال أعوز من العقل.

وقيل: العقل أشرف الأحساب؛ وما عُبد الله بمثل العقل.

وقال آخر: العقل أحصن معقل.

وقال آخر: أشد الفاقة عدم العقل.

وقال آخر: كل شيء إذا كثر رخص، إلا العقل، فإنه كلما كثر غلا.

وقيل: العقل صفاء النفس، والجهل كدرها» .[1]

لا أحد يشك في صدق هذه الأقوال عن العقل، ولكن العقل لا يعدم من يذمه، ويلقي عليه اللوم بسبب أو آخر، تكشفه الأقوال الآتية:

كان يقال: العقل والهم لا يفترقان.

---

(١) اللطائف والظرائف: ٤٢.

وقال ابن المعتز:

وَحَـلاوَةُ الـدُّنْيَـا لِجَـاهِلِهَـا
وَمَـرَارَةُ الـدَّنْيَـا لِمَـنْ عَقَـلاَ[1]

«ومن قلائد المتنبي قوله:

ذُو العَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ
وَأَخُو الجَهَالَةِ فِي الشَقَاوَةِ يَنْعَمُ

قال أبو الفتح بن جني هذا كقولهم: مَا سُرَّ عَاقِلٌ قَطّ.

ولما عزل عمر بن الخطاب زياداً عن عملٍ كان يتولاه له، قال له زياد:

يا أمير المؤمنين أمن عجز أو خيانة؟

قال: لا من أحدهما، ولكني كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك».

«وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول:

لو كان للناس كلهم عقول لخربت الدنيا».

---

(١) اللطائف والظرائف: ٤٣.

وقال آخر: «لولا الحمقى لبطل العالم».

وقال بعضهم: «لو كان الناس كلهم عقلاء ما أكلنا رطبا، ولا شربنا عذباً يعني أن العقلاء لا يقدمون على صعود النخيل لاجتناء الرطب، ولا حفر الآبار لاستنباط الماء العذب».[1]

والعلوم مدحت وذمت، ويقال إن الجاحظ:

«مدح أنواع العلوم، وذمها، بأعيانها، معرباً عن قدرته على الكلام، وبعد شأوه في البلاغة».[2]

وقد تحدث عما يأتي مادحاً وقادحاً: الأثر، والكلام، والفلسفة، وعلم النجوم، والطب، والنحو، والعروض، والتعبير، والخط، وهذا قوله في الفلسفة مادحاً ثم قادحاً:

«الفلسفة: أداة الضمائر، وآلة الخواطر، ونتائج العقل، وأدلة لمعرفة الأجناس والعناصر، وعلم الأعراض، والجواهر، وعلل الأشخاص، والصور،

(١) اللطائف والظرائف: ٤٤.

(٢) اللطائف والظرائف: ٤٥.

واختلاف الأخلاق والطبائع، والسجايا، والغرائز»[1].

والقول الآتي قول الجاحظ في ذم الفلسفة، وقد صدق من قال إن الجاحظ يعرض مقدرته في البلاغة:

«الفلسفة كلام مترجم، وعلم مرجم، بعيد مداه، قليل جدواه، مخوف على صاحبه سطوة الملوك، وعداوة العامة»[2].

-[3] ومن الواضح أن الجاحظ يفرق بين ما يستحق المدح فعلاً، وبين ما لا يستحقه، فهو يطيل مدح ما يستحق المدح، ويختصر ذمه، وهذا دليل على كثرة بضاعته منه في المدح، وقلتها في الذم، مثل مدحه الكلام، وقد أطال فيه، بينما قلل الحديث في ذمه، وهذا ما قاله في كلا الحالين:

«الكلام عيار كلّ صناعة، وزمام كل عبارة، وقسطاس يعرف به الفضل والرجحان، وميزانٌ يعلم به الزيادة والنقصان، ومحك يتميز به الخاص

(١) اللطائف والظرائف: ٤٦.

(٢) اللطائف والظرائف: ٤٩.

(٣) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

والعام، والخالص والمشوب، ويعرف به الإبريز والستوق؛ وينظر به الصفو والكدر، وسلم يرتقى به إلى معرفة الصغير والكبير، ويوصل به إلى الحقير والخطير، وأدلة للتفصيل والتحصيل، وإدراك الدقيق والجليل؛ وآلة لإظهار الغامض المشتبه، وأداة لكشف الخفي الملتبس؛ وبه تعرف ربوبية الرب، وحجة الرسل؛ ويحترز به من شبهات المقالات، وفساد التأويلات؛ وبه تدفع مضلات الأهواء والنحل، وتبطل تأويلات الأديان والملل؛ وينزه عن غباوة التقليد، وغمة الترديد» .(١)

وأما ما قاله مختصراً عن «الكلام»، فكما يلي:

«متفاوت الأصول، قليل المحصول؛ همة مناظر متملق، وآلة مهذار متمشدق» .(٢)

ويؤكد اعتقاد الجاحظ في بعض ما مدحه أو ذمه، قدرته على الإطالة أو الاختصار، فالنجوم، والحديث

(١) اللطائف والظرائف: ٤٥.
(٢) اللطائف والظرائف: ٤٩.

عنها، بضاعته في مدحها وذمها متساو، لأن مجال القول فيها محدود، ومع هذا فقد أبدى الجاحظ براعته في الفصاحة، مما غطى على حصيلته في علمه فيها، فهو يقول مادحاً لها:

«النجوم معرفة الأهلة، ومقادير الأظلة، وسموت البلدان، وأقدام الزوال، في كل وقت وأوان؛ وعلم ساعات الليل والنهار، في الزمان والنقصان؛ وأمارات الغيوث والأمطار، وأوقات سلامة الزرع والثمار». [1]

وما قاله في ذم النجوم جاء هكذا:

«النجوم حدس وترجيم، وخسف وتنجيم؛ صوابه عسير، وغلطه كثير؛ حرفة مجدود، وصناعة غير محدود». [2]

وهكذا يسير في هذا الباب حتى يأتي المؤلف على كل ما روي عن الجاحظ في صدد التناقض،

---

(١) اللطائف والظرائف: ٤٦.

(٢) اللطائف والظرائف: ٤٩.

فيما عدده من أمور؛ وما قاله طريف يستحق القراءة، والتمعن؛ ففيه عقل الجاحظ، وفكره وتصوره ورسمه؛ وقد بلغ فيه مقصوده، من حيث تأكيده على قدرته على البلاغة، إذ جاء سجعه طبعياً، وجملة متساوية في تقسيمها، مما جعل لها الوقع الذي أراده.

ويجد الثعالبي مجالاً للتناقض في الخط والقلم، وفي الأدب، وفي الشعر والشعراء، وفي الكتب والدفاتر.

ويجد مجالاً رحباً في التجارة، وسترى بعض ما استطاع اقتناصه في مدحها، وذمها؛ ومدحها وذمها منصب في الغالب على أهلها، ففيهم الفرق، وإن كانت مواد التجارة، وأماكنها وأزمانها، لها نصيب في الثناء والثلب؛ وقد تحمل مثل ما يحمل التاجر، صاحب النية السيئة:

يقول الثعالبي في مدح التجارة بعد أن مهد بآيات من القرآن، وأتبعها بأحاديث عن الرسول ﷺ:

كان ﷺ برهة من الدهر تاجراً، وشخصاً مسافراً، وباع واشترى حاضراً» .[1]

وهذا يعطي التجارة شرفاً، ويُسَجَّل في صف مدحها، وهو ثقل له وزنه الراجح، في هذا الجانب .

ويروي الثعالبي عن عمر قوله، وهو في صف التجارة :

«ما ميتة بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رحلي، أضرب في أرض الله، وابتغي من فضل الله» .

وكان بعض السلف يقول :

«الأسواق موائد الله في أرضه، فمن أتاها أصاب منها» .

وقيل : «التجارة أمارة، والأرباح توفيقات» .[2]

ولا شك أن الثعالبي اختصر القول هنا، وإلا فالقول في مدح التجارة يكاد لا يحصى .

---

(١) اللطائف والظرائف : ٧٠ .

(٢) اللطائف والظرائف : ٧٠ .

ويبدأ الذم بأحاديث لم نَسُقها لعدم تأكدنا من صحتها؛ ثم يردف ذلك بقول للضحاك كمايلي:

«ما من تاجر ليس بفقيه إلا أكل من الربا شيئاً». [1]

وهذا ليس بعيداً عن الواقع، ولا يخالف الحقيقة في بعض المعاملات، لأن مداخل الربا كثيرة، وقد لا يلم بها إلا الفقيه، أو من جعل من همه سؤال من يعلم؛ لأن بعض معاملات الربا قد لا تبدو فيها مداخل الربا والضرر، لظاهرها، ولكن لمن يعلم ما تجر إليه، وما تدخل تحته من المحرمات، هي أوضح من الشمس.

ومما جاء في جانب الذم ما روي عن ابن عمر، في قوله:

«ويل للتجار من: لا والله، وبلى والله». [2]

وهذا مزلق يقع فيه التاجر دون أن يدري مغبة مؤداه، فهذه يمين قد تكون كاذبة، يعتمد عليها

---

(١) اللطائف والظرائف: ٧١.

(٢) اللطائف والظرائف: ٧١.

سامعها، فيأثم قائلها، حتى لو كانت لازمة من لوازم القول، اعتاد عليها، ولم يقصدها، ولكنه يأكل بسببها مالاً حراماً.

ولهذا قال عليّ - رضي الله عنه -:

«تفقه ثم اتجر، فإن التاجر فاجر، إلا من أخذ الحق وأعطاه».[1]

وفي الفقه عصمة بإذن الله، لأنه ينير الطريق لصاحب التجارة، في صحة الأخذ والأداء، وينبه القلوب إلى خوف الله، والرحمة بخلقه؛ ويحبب إلى الحلال، والحرص عليه، والتمتع به.

ولم يكتف الثعالبي باقتباس الروايات والأقوال، ولكنه عمد إلى القصص الرمزية، ليعضد رأيه في الذم، فيقول:

«يروى أن إبليس لما استنظر فأنظر، قال:

إلٰهي، أين بيتي؟

(١) اللطائف والظرائف: ٧٢.

قال: الحمّام.

قال: ما مصائدي؟

قال: النساء.

قال: أين مجلسي؟

قال: السوق».

وكان أبو الدرداء يقول:

«إياكم ومجالس الأسواق؛ فإنها تلغي، وتلهي».

وقال الحسن:

«الأسواق مصلحة للأموال، مفسدة للدين».

ويعضد الشعر ذم التجار في البيت الآتي:

مَـا لِلتُّجَـارِ وَلِلَّسخَـاءِ وَإِنَّمَـا
نَبَتَـتْ لُحُـوْمُهُـم عَلَـى القِيَـراط

وقال ابن الرومي:

رَبِّ أَطْلِقْ يَدِيْ فِي كُلِّ شَيْخٍ
ذي رِيَـاءٍ بِسَمْتِـهِ وَسُكُـونِـه

تَــاجِــرٌ فَــاجِــرٌ جَمُــوعٌ مَنُــوعٌ
يَـرْقِـقُ النَّـاسَ بِـاقْتِضَـاءِ دُيُـونِـه

وقال : كلوا مال التجار ، وسوقوهم إلى وقت ، فإنهم لئام ، وليس عليكم في ذلك إثم ، فإن جميع ما جمعوا حرام .

وقال عكرمة : أشهد على كل وزان كيال بالنار .

وفي الخبر : «إياكم والأسواق ، فإن الشيطان باض فيها وفرخ» .

ولعل الثعالبي كان في نفسه شيء على التجار ، لهذا أفاض في تعداد مثالبهم ، وأكثر من النصوص القاسية ضدهم ، وقد يكون زمانه زمان تجار سيئين ، وأراد أن يكون من قوله وعظٌ ؛ وأمل أن قسوته تنبه الغافلين . والمقتبس في تسجيل الأمور يفضحه اختياره ، ويحدد ميله وجنوحه مع الأطراف التي قد يحاول إخفاء رميه ثقله معها ، مثلما فعل الثعالبي هنا .

والمال يمدح بسببه ويذم في ضوء ما يصاحب

المال من تصرف، وما يجره المال على صاحبه من كرم، أو تكبر وترفع؛ وإلا فالمال الحلال نعمة، لا يذمها إلا من حرم منها، أو رأى تأثيراً لها على من حازها. ومثل هذا المجال يجد الثعالبي فيه مضطرباً، يطلق فيه خيل فكره، واقتباسه، وهذا ما قاله في مدح المال، اخترناه من بعض ما جاء به عنه:

ويبدأ الثعالبي؛ كما هي عادته، بالآيات القرآنية، التي تعضد رأيه، مباشرة، أو في ضوء تفسير وارد؛ ثم يتبع ذلك بأحاديث، ومن الآيات التي ساقها معضدة مدح المال الآية الكريمة الآتية:

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[1]، وقال إن الخير هو المال.

والآية الكريمة الآتية:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[2].

---

(١) سورة العاديات، الآية: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

وروى عن ابن عباس قوله :

«قد يشرف الوضيع بالمال» .

ويقال :

المال يكسب أهله المحبة ، لا مجد إلا بمال ، ولا حمد إلا بفعال .

وقال : الآمال مشغولة بالأموال .

وقال الشاعر :

كُلُّ النِّدَاءِ إِذَا نَادَيْتُ يَخْذُلُنِي
إِلاَّ نِدَايَ إِذَا نَادَيْتُ يَا مَالِي[1]

وقال الثعالبي في المبهج : لاَ موئل كالمال .

وفيه : «القلوب لا تستمال بمثل المال» .

وفيه : «مال الرجل موئله ، وقُوَّته وَقُوْتُه» .

وفيه : «من أصلح ماله فقد حصّل نقاء العرض ، وحصّن بقاء العز» .[2]

---

(١) اللطائف والظرائف : ٨٧ .

(٢) اللطائف والظرائف : ٨٨ .

هذا في جانب المال، والنظرة المضيئة إليه، وترجيح السعي في الحصول عليه، والاحتماء به، فيما ينفع فيه المال. ولكن الثعالبي يأتي بالجانب المظلم للمال، فيروي ما يأتي:

«المال ملول، والمال ميال، والمال غادٍ ورائح، وطبع المال كطبع الصبي، لا يوقف على رضاه وسخطه». (١)

وهذا يعني أن المال لا يعتمد عليه، ولا يعتبر ركناً قوياً يستند إليه، فالقلب منه في وجيب، والنفس في تحسب وخوف، فقد يأتي سهلاً، وقد يذهب ركضاً، وقد يفتر ثغره عن ابتسامة تدوم، وقد يتلو الابتسامة قطوب وعبوس؛ فهو مفيد ما دام في اليد، وانصبابه متوال، أما إذا أدبر بوجهه، فإدباره قحط وجدب، لأن الإنسان حينئذ يحس بآثار الفقد والفقر، بعد الوجد والغِنى، ومن هذا جاء ذم المال، وتشبيهه بالصبي متقلب المزاج.

وقيل: «المال لا ينفعك ما لم يفارقك». (٢)

---

(١) اللطائف والظرائف: ٨٩.

(٢) اللطائف والظرائف: ٨٩.

وهذا يعني أنه إذا بقي المال في يد الإنسان بتقتير أصبح مُسْتَعْبِداً لصاحبه، يحافظ عليه، ويرعاه، ويهمل نفسه ليرتاح المال؛ أما إذا أنفقه فإنه يعود عليه بالسمعة الحسنة، وعلى هذا ففراقه فيه الفائدة، ومن هنا جاء العيب؛ لأن زينة الشيء الجميل وجوده، أما عدمه فنقص وعيب.

وقيل: «قد يكون مال المرء سبب حتفه، كما الطاووس قد يذبح لحسن ريشه».[1]

فالتاجر صاحب البضاعة المحمولة على قافلة غنية بين بلدين، تكون عرضة لقطاع الطرق، لأن ما يرجى منها من حصيلة تغري بالترصد لها، والهجوم عليها. وقد كان الغنى في العصر العباسي الثاني وما بعده سبباً لنكبة بعض الموسرين من أرباب المناصب العليا، نتيجة الغنى الفاحش الذي يغري بسجنهم، ومصادرة أموالهم، وثرواتهم، وكان ضعف الدولة في تلك الفترة، وضغط الجند، وتعدد طلباتهم، يجعل

---

(١) اللطائف والظرائف: ٨٩.

الضحية هم الذين يظن أنهم اختلسوا؛ وحتى التجار لم يسلموا بتهمة أو أخرى، توجب مصادرة أموالهم، وممتلكاتهم، أو التسلط عليهم من قبل أحد قادة الجند، غير المحكومين.

ولعل ابن المعتز كان في ذهنه صورة من هذا عندما قال قوله الآتي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ يُهْلِكُ رَبَّهُ
إِذَا جَمَّ آتِيهِ وَسُدَّ طَرِيقُهُ
وَمَنْ جَاوَرَ المَاءَ الغَزِيرَ بِجِسْمِهِ
وَسَدَّ طَرِيقَ المَاءِ فَهُوَ غَرِيْقُه

وقد جاء ابن المعتز هنا بصورة مرعبة، لها تأثيرها المرجو في وجوب عدم حبس المال، وجمعه، حتى لا يكون وبالاً على صاحبه، لأن المال مثل الماء إذا احتجز، واستمرت تغذيته من مصدره ومنبعه فإنه يسبب الغرق.

وينتقل الثعالبي من المال إلى الغنى فيأتي بمحامد الغنى، ولم يعدم أن يجد له مثالب، ثم ينتقل إلى

الفقر فيمدحه ويذمه، فيأتي في مدحه بالنصوص الآتية:

كان يقال: «الفقر شعار الصالحين».

ويقال: «الفقر لباس الأنبياء».[1]

فالصالح في الغالب لا وقت عنده للسعي لأن يربو ماله، فهو في شغل بأمر الآخرة عن أمر الدنيا، إلا قليل من الناس استطاع أن يجمع بين هذا وذاك، وبعض الصالحين ينقطع للعبادة، معتمداً في رزقه على أملاك ورثها، أو قريب يتكفل بحاجته، وهذا محل انتقاد، لأن الأجر لمن يُنفِق عليه، لأنه يسعى في أرض الله، كما أمر الله، ويبحث عن رزقه، والانقطاع عن الدنيَا كلية، والاعتماد في الرزق على الآخرين، لم يأمر الله به، وإنما جعل الرزق الحلال، والسعي من أجله، هدفاً نبيلاً، ولصاحبه ثواباً وأجراً؛ وقد يأتي المال له بفائدة لم يكن يتصور أجرها وثوابها، كأن يعين بالمال فقيراً، أو

(١) اللطائف والظرائف: ٩٢.

محتاجاً، أو يتيماً، أو مسكيناً، أو أرملة، أو يجهز غازياً، أو يهيئ سبيلاً، يشرب منه الظمآن.

والأنبياء في شغل، عن المال والغنى، بالدعوة إلى الله، ورعاية المجتمع، الضعيف فيه، والمحتاج، ولهذا قيل إنهم لا يورثون، لأنهم لا يتركون إرثاً؛ هم أمناء فقط على بيت المال، الذي يشرفون على ما يدخل فيه، أو يخرج منه.

ولهذا شبه بهم الشاعر في حال عدم المال عندهم فقال:

فَقْـرٌ كَفَقْـرِ الأَنْبِيَـاءِ وَغُـرْبَـةٌ
وَصَبَابَةٌ لَيْسَ البَلَاءُ بِوَاحِدِ[1]

وعوض الله الأنبياء بنعيم الآخرة المقيم، عن نعيم الدنيا الزائل.

وكان يقال:

«الفقر مخف، والغنى مثقل».[2]

---

(١) اللطائف والظرائف: ٩٢.

(٢) اللطائف والظرائف: ٩٢.

وهذه هي الحقيقة، فلا مؤونة في الفقر، فصاحبه خفيف الثقل في السفر والحضر؛ مخف في الزاد، وفي اللباس، وفي السكن، وفي أداة الركوب؛ وخلافُهُ الغني؛ فإنه مثقل في كل شيء، حتى في همومه، وعبؤه يزيد ثقلاً كلما زاد غناه.

ومن أبرز القصص التي يظهر فيها خفة وزن الفقر قصة قاضي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على حمص، وهي كمايلي:

«دخل عمير بن سعد على عمر، لما رجع إليه من ولاية حمص، وليس معه إلا جراب، وإداوة، وقصعة، وعصا. فقال عمر:

ما الذي أرى بك من سوء الحال؟

فقال: أولست تراني صحيح البدن؛ معي الدنيا بأسرها؟

فقال: وما معك؟

قال: جرابي، أحمل فيه زادي، وقصعتي أغسل فيها ثوبي ورأسي، وأداوتي فيها ماء سقيتي، ومعي عصاي،

إن لقيت عدوّاً دافعته بها ، وما بقي فتبع لما معي .

قال : صدقت» .[1]

وهذا يؤكده القول الآتي :

«الفقر أخف ظهراً، وأقل عدداً» .[2]

فليس أقل عدداً من إداوة للماء ، ووعاء للطعام ، وعصا لأغراض شتى .

ومع هذا فليس في الفقر متعة ، ولكن في الصبر عليه أجر وثواب ، وقد أكد هذا سفيان الثوري حين قال :

«الصبر على الفقر يعدل الجهاد في سبيل الله تعالى» .[3]

ومن أذكى الأبيات التي قيلت في فضائل الفقر ، قول أبي العتاهية :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الغِنَى
وَأَنَّ الغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الفَقْرِ[4]

---

(١) محاضرات الأدباء : ٧٢ . وإطلالة على التراث : ١٠/ ٢٤٧ .
(٢) اللطائف والظرائف : ٩٢ .
(٣) اللطائف والظرائف : ٩٢ .
(٤) اللطائف والظرائف : ٩٢ .

وقوله هذا يدل على تفكير عميق، أوصله إلى هذه الصورة الصادقة، وفيها روح التعزية والتأسي، وليست غريبة من أبي العتاهية، وهو من عرف بأبيات الزهد المتتالية في شعره.

ولا يقول هذا القول إلا فقير، ولا يغوصُ على هذه الفكرة، إلا رجل يحاول أن يرضي نفسه، ويسكتها بهذا التعلال الخاتل، وإلا فالمال الحلال دفء في الشتاء، برد وسلام في الصيف، والدينار أجمل وجه يستفتح به، يفرح به بائع الخبز، وبائع الدقيق، وبائع السيارة، وبائع الطيارة، وبائع الصاروخ؛ هو السلاح ضد العسرة، وهو المفتاح للباب المغلق، وهو الذي يجلسك في صدر المجلس، ويجعل ما تقوله صدقاً، ولو كان كذباً، وحقاً ولو كان باطلاً، وبه تحقق الرغبات، وتتجنب المعسرات؛ يستنزل به الطير من القنة العصماء، ويستخرج به الدُّرُّ من البحار، رنينه يبهج، وحيازته تسعد؛ إن حضر احترم، وإن غاب افتقد؛ يوضع في المكان الأمين، وفي الحرز

المكين؛ تقوم بسببه حروب، وتشترى ضمائر؛ هذا هو الدينار، لامع، مطرب، متقدم، متسلط، يرضي الغاضب، ويقتنص الموغل في العلو والبعد.

وهذا محمود الوراق، يكد ذهنه، ويجمع قوته الشعرية، ويستدعي متأبي خياله، ليقنع بفضيلة الفقر، فهل فعل؟

«يَـا عَـائِـبَ الفَقْـرِ أَلاَ تَنْـزَجِـرْ
عَيْـبُ الغِنَـى أَكْثَـرُ لَـوْ تَعْتَبِـرْ
مِـنْ شَـرَفِ الفَقْـرِ وَمِـنْ فَضْلِـهِ
عَلَى الغِنَى لَوْ صَحَّ مِنْكَ النَّظَرْ
أَنَّـكَ تَـدْعُـو اللهَ تَبْغِـي الغِنَـى
وَلَسْـتَ تَـدْعُـو اللهَ أَنْ تَفْتَقِـرْ

بدأ محمود الوراق أبياته وكأنه يريد أن يمدح الفقر، ويعيب من يعيبه، ولكن البيت الثالث، وهو الحصيلة، خانه، فقد جاء ذامّاً للفقر. ولعل الشاعر أراد أن يلفت النظر إلى ما سيقول، فجاء بما يوهم أنه أمر عجيب، وهو مدح الفقر، ففاجأ

المتطلع أنه ذمه، لأن الناس لا يدعون الله إلا بما يحبون، وليس لما يكرهون. وهكذا طاشت رمية الرامي، وخاب أمل المتطلع.

والثعالبي يؤكد نقص الفقر وعيبه، بما يخالف ما جاء في أقواله السابقة فيقول:

«كان يقال: الفقر مجمع العيوب». [1]

وهذا أقرب للقبول، لأن الفقر يعني العوز، والحاجة إلى الناس، ويصبح صاحبه صاحب اليد السفلى؛ تقلب حسناته إلى سيئات في أعين كثير من الناس، وذكاؤه إلى غباء، يثقل على قلوب الناس، فلا يستخفون منه الخفيف، ولا يقبلون المعقول، يبحث عن النقص في قوله، وعن العيب في فعله، يعتبره الناس عالة على المجتمع، وحجر عثرة في سبيل تقدمه.

ووصف الفقر بأنه:

«كنز البلاء». [2]

---

(١) اللطائف والظرائف: ٩٣.

(٢) اللطائف والظرائف: ٩٣.

لأنه يأتي لصاحبه بالمشاكل، ويثير في وجهه الصعوبات، في حين أن الغنى يبدد ذلك كله إذا قام، ويميته في مهده، أحياناً، قبل أن يبعث.

وقيل: «كاد الفقر أن يكون كفراً». (١)

لأنه يعرض صاحبه للتذمر من قضاء الله، وعدم الصبر عليه، وقد يصيبه باليأس من رحمة الله، وهو زلة كبرى، وخطأ فادح.

ويأتي المفكرون بفنون من القول في تعداد عيوب الفقر، والإتيان بالصور الداكنة عنه، فهذا سعيد ابن عبدالعزيز يقول:

«ما ضُرب العباد بسوط أوجع من الفقر». (٢)

وهذه صورة صادقة، وفق فيها سعيد في رسم ما يأتي من الفقر للإنسان، فليس أقوى إيلاماً من ضرب السوط، والفقر أوجع سوط.

وابن المعتز، كما ساهم في شعره في المجالات

---

(١) اللطائف والظرائف: ٩٣.

(٢) اللطائف والظرائف: ٩٣.

المختلفة، يساهم هنا بنثر فيه قيمة الشعر، والتفاتة، رغم أننا، فيما نعرف، أن ابن المعتز لم يجرب الفقر، فهو خليفة ابن خليفة، سليل خلفاء، إلا أن مجتمعه لم يكن ليخلو من فقراء، ولعل ما قال جاء نتيجة استقراء وملاحظة، فهو يقول عن الفقر، هذه الجملة المعبرة عن مدى نظرته إلى عيوب الفقر:

«لا أدري أيهما أمر: موت الغني، أم حياة الفقير». [1]

والمغالاة في هذه قصد بها زيادة التأثير في تشويه صورة الفقر، وشدة مرارته، حتى أن حياة صاحبها تقارن في جانب من جوانبها بموت إنسان آخر.

وضربة الفقر تصيب المرء باختلال توازنه، فيختلط عليه الأمر، ولا يدري أي المسالك الموصل، ولا أي الطرق الصالح، وهذا يُضيق عليه المحيط حوله، وقد صور هذا أحد الشعراء بقوله:

إِذَا قَـلَّ مَـالُ المَـرْءِ قَـلَّ حَيَـاؤُهُ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِ أَرْضُهُ وَسَماؤُهُ

---

(١) اللطائف والظرائف: ٩٣.

وَأَصْبَحَ لاَ يَدْرِيْ وَإِنْ كَانَ حَازِمًا
أَقُـدَّامُـهُ خَيْـرٌ لَـهُ أَمْ وَرَاؤُهُ[1]

والفقر بهذا، يسهل على من أصيب به، قلة اعتبار الناس، ومراعاة رأيهم، وتفادي انتقادهم، فيسهل على الفقير الخروج عن التقاليد لأن النقد منها قد لا ينشأ، وإن نشأ، ولم يغطه الفقر، فإن صاحبه لا يهتم، فهو في شغل بما هو أهم، وهذا يقل حياءه، بخلاف الغني الذي يراعي مركزه، ويحافظ على سمعته، حتى لا يتأثر مقامه، لأن أي خدش في هذا قد يسبب في المدى الطويل، ضياع المال، أو نقصه. فالغني يحرص على أن يظهر بكامل لباسه، وبآنق ما يملك منه، ويركب أحسن وسيلة ركوب، ويأكل أحسن المطعوم، ويسكن أحسن المساكن، لأن هذا جزء من مصائد الثروة، أو المحافظة عليها. أما الفقير فعدم قدرته على توفير هذه الأمور يجعله في حل أن لا يكتمل لباسه، بل قد يلبس ثياب الصيف في الشتاء،

(١) اللطائف والظرائف: ٩٣.

وثياب الشتاء في الصيف، وليس بعد هذا قلة حياء، ونقص اعتبار.

والأقوال التي مرت جاءت نتيجة المشاهدة والتجربة والاستقراء، وإن كان أصحابها لم يفصحوا كلهم عن ذلك، ولكن صالح بن عبدالقدوس أفصح عن ذلك بقوله، ذاكراً فترة الاختبار هذه:

بَلَـوْتُ النَّـاسَ سَبْعِيْـنَ حَجَـةً
وَجَرَّبْتُ صَرْفَ الدَّهْرِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ
فَلَمْ أَرَ بَعْدَ الدِّيْنِ خَيْراً مِنَ الغِنَى
وَلَم أَرَ بَعْد الكُفْرِ شَرّاً مِنَ الفَقْرِ(١)

وليس أثبت من المشاهدة والتتبّع، ولا أصدق من المعاناة والتجربة والمقارنة؛ والمشاكل التي ساقها ضمناً صالح بن عبدالقدوس جاءت بالإقناع الذي أراده، وبالتأثير الذي قصده، وقد أحسن إذ قدم تجربته أمامه، وزاد في الإحسان بأن حدد مدة هذه التجربة، وهي مدة لا يتخطاها السمع، أو يهملها الاعتبار.

---

(١) اللطائف والظرائف: ٩٣.

ولم يكن صالح بن عبدالقدوس وحيداً في الإفصاح عن أن ما جاء به من نتيجة جاءت عن طول تجربة، فهناك شاعر آخر قدم مثل هذا أمام دعواه، وأصدر حكمه على الفقر، فهذا أبو أحمد اليمامي يقول:

غَالَبْتُ كُلَّ شَدِيدَةٍ فَغَلَبْتُهَا
وَالفَقْرُ غَالَبَنِي، فَأَصْبَحَ غَالِبِي
إِنْ أُبْدِهِ أُفْضَحْ، وَإِنْ لَمْ أُبْدِهِ
أُقْتَلْ، فَقُبِّحَ وجْهُهُ مِنْ صَاحِبِ[1]

هذه تجربة مريرة، تخللها عراك وقتال، أقام ميدانه أبو أحمد، فأصبح في هذه المعركة غالب ومغلوب، نتج عنه حيرة مقلقة، جعلت صاحبها لا يدري أيفصح عن مكنونه في هذه المواجهة، أو يكتم أمره، فهو إن أفصح عما يعانيه من فقر كشف سره للناس، وقلّت منزلته بينهم، وإن هو كتم، قتله الهم والكمد.

ويأتي الثعالبي إلى الصبر، وما قيل في مدحه وذمه، فيطيل في المدح، ويقلل في الذم، ولعل هذا يُرِي أن

(١) اللطائف والظرائف: ٩٣.

إيمانه بالصبر أكير من اعترافه بخلافه؛ أو لعل محصوله الأدبي في هذا أكثر من ذاك .

لقد جاء ذكر مدح الصبر بطرق عديدة، وصور متنوعة، أما الذم فجاء مختصراً، ومتركزاً على عدم القدرة على الصبر، أو على نية التمرد عليه، والإصرار على ذلك، لاهتزاز في النفس، وقلق فيها .

وفي مقدمة ما جاء عن الصبر بعض الآيات في القرآن الكريم ومنها :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .[1]

ويروى عن الرسول ﷺ قوله عن الصبر :

«عليكم بالصبر، فإنه لا إيمان لمن لا صبر له» .

وقال عنه ﷺ أيضاً :

«لم يؤت الناس خيراً من الصبر والمعافاة» .

وقال عليه الصلاة والسلام :

«الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة، وصبر على

(١) سورة الزمر، الآية : ١٠ .

الطاعة، وصبر على المعصية». [1]

هذه ثلاثة أقسام، كل قسم تَدْخُلُهُ المعاناة، ويستدعي الأمر عليه الصبر والاحتساب، ومادام هناك احتساب فهناك وعد بالأجر، لأن في الاحتساب مظهر واضح لقوة الإيمان بالقضاء والقدر، والبعد عن الاعتراض على ما يجيء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وإذا كان هذا واضحاً في المصيبة تنزل، والنازلة تقع، فإن الصبر على الطاعة يغلفه الطمع في الأجر والثواب، إذا كان العمل خالصاً لوجه الله، وأريد به تقديسه ورضاه، والتقرب إليه، مما يجعل في الصبر على ما في الطاعة من تعب وعناء، لذة، لا تعدلها لذة، لأن الصابر لا يعيش لحظة التعب نفسها، وإنما يعيش لحظة الثواب والجنة، وهذا يجعله يغفل عن عناء الدنيا، ولا يبقى في ذهنه إلا نعيم الآخرة.

والمعصية خروج عن مألوف المجتمع، وفيها معاناة نفس لا تعدلها معاناة، تنهش مهجة ذوي

---

(١) اللطائف والظرائف: ١١٠.

الشعور المرهف، فهي حرب داخلية، لا يعلم عن مدى لظاها إلا من اتقدت في جوفه، ففي الداخل عذاب صامت، من نار متأججة.

وينظر شاعر إلى الصبر من زاوية اختارها ليكون لها التأثير المجدي، فقال:

تَصَبَّرْ وَلاَ تُبْدِ التَضَعْضُعَ لِلْعِدَا
وَلَوْ قَطَعَتْ فِي الجِسْمِ مِنْكَ البَوَاتِرُ
سرُوْرُ الأَعَادِي أَنْ تَرَاكَ بِذِلَّةٍ
وَلٰكِنَّهَا تَغْتَمُّ إِذْ أَنْتَ صَابِرُ[1]

لقد ركز الشاعر على هذا الجانب المظلم في علاقات الناس، وسرعة من في نفسه شيء إلى التشفي ممن وقع في مصيبة، ولهذا يرى أن على المرء إذا ما نزلت به مصيبة ألا يعطي أعداءه فرصة الفرحة بما حل به، فهو هنا يحثه على أن يتحمل أقسى الآلام على نمط قول الشاعر:

(١) اللطائف والظرائف: ١١٠.

وَتَجَـــلُّدي لِلشَّـــامِتِيْنَ أُرِيْهُمُـــو
أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَزَعْزَعُ

إذاً على المرء أن يتجرع كأس الصبر المر، حتى يمنع أعداءه أن يتلذذوا بطعم عسل التشفي، ويحرمهم من الفرحة بنزول الشدة به، فهو يبتسم وقلبه حزين، ويضحك والبؤس أقرب إليه.

وينظر شاعر آخر نظرة شاملة لما يتعرض له المرء في هذه الحياة، من هموم وأحزان، نتيجة مشكلة برزت، أو مصيبة حلت، أو كارثة وقعت، أو داهية نزلت، جاء بها موت عزيز، أو ضياع مال، أو اعتلال صحة، أو بهتان ألصق. وهذا ما قاله الشاعر في هذا:

بَنَـى اللهُ لِـلأَخْيَـارِ بَيْتـاً عِمَـادُهُ
هُمُومٌ وَأَحْزَانٌ وَحِيْطَانُهُ الضُّرُّ
وَأَدْخَلَهُـم فِيْـهِ وَأَغْلَـقَ بَـابَـهُ
وَقَالَ لَهُمْ مِفْتَاحُ بَابِكُمُ الصَّبْرُ[1]

(١) اللطائف والظرائف: ١١٠.

لقد جاء الشاعر بصورة تكاد تكون ملموسة بالأصابع، لبروز عناصرها، ووضوح جوانبها، وحسن سبكها، مما أعطاها روح الإقناع التي تأتي منها، لمن تبصر فيها وتدبر. وقد رسم الشاعر بيتاً ذا عماد، والبيت يدل على أن ساكنيه من أهل الخير، إلا أن العماد الذي قام عليه له طبيعة واهية، وكذلك جدرانه، وهي إطاره، فيها من الضعف ما في العماد. والبيت عادة يأوي إليه الساكن ليجد الراحة، وينعم بالهدوء، يتقي فيه البرد، ويأمن الحر، ويبعد عنه أذى اللصوص والأعداء، إلا أن هذا البيت بهذه الصفة التي صورها الشاعر ليس فيه من هذه الميزات شيء، وخلاف ذلك هو الواقع، فعماده قد يهوى، وجدرانه قد تقع، والصبر هو المفتاح الذي يخرجه من هذا البيت.

إذاً ما على الإنسان إلا أن يصبر عليه، ويبقي رجاءه في الله في إصلاح الأمر، وتقليل المعاناة، ولا خيار عنده إلا اللجوء إلى الصبر، يقتاته، ويلبسه، ورغم أنه مر كالعلقم، إلا أن طعم الأمل في الفرح يخفف

من مرارته هذه؛ وفي الصبر مفتاح الفرج، يفتح الأبواب المغلقة، ويهدئ النفوس القلقة.

ويؤكد هذا شاعرٌ آخر يقول:

إِنِّي وَجَدْتُ، وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدقُهُ
لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مُحْمُودَةَ الأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ
فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِالظَّفَرِ(١)

وخير من هذا قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٥).

---

(١) اللطائف والظرائف: ١١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٥، ١٥٣.
(٤) سورة الإنسان، الآية: ١٢.
(٥) سورة الزمر، الآية: ١٠.

هذه آيات مضيئة عن الصبر، يبز لفظها كل لفظ، ويعلو معناها على كل معنى.

ويقول بعض الحكماء:

الصبر صبران: صبر عما تحب، وصبر على ما تكره، والرجل من جمع بينهما». [1]

فالصبر عمّا تحب فيه ألم الحرمان، ويؤكد مرارة الفقد، والصبر على ما تكره، صبر على عبء ثقيل على الجسم والروح، فيه مكابدة ومعاناة، وقاصمة الظهر إذا اجتمعا على شخص واحد معاً، حينئذ يتبين من هو الرجل، القادر على التحمل والصبر.

ويختم الثعالبي ما سرده عن الصبر وفضله بهذا القول:

«الصبر كاسمه، وعاقبته العسل». [2]

الصبر هو المادة الصمغية المعروفة، تستعمل دواء شعبياً لبعض الأمراض، وتُعتقد فائدتها الكبرى

---

(١) اللطائف والظرائف: ١١٣.

(٢) اللطائف والظرائف: ١١٣.

ـ بإذن الله ـ وهي مرة المذاق، ومتناهية في هذا، وحادة الطعم قارحته؛ ولشدة المعاناة المصاحبة للتحمل والصبر شبه الصبر بهذه المادة، لأن كلا الاثنين عندما يتجرع يحدث غصة في الحلق، وألماً في الابتلاع؛ والصبر إذا نفع الله به، وعالج ما اتخذ من أجله، فعاقبته حلوة سليمة، وكذلك الصبر والتحمل إذا احتسب الإنسان، وقصد رضى الله، باتباع ما حث عليه الدين، فالعاقبة حلوة حميدة؛ واللذة التي تأتي في نهاية الأمرين تُنسيى ما سبقها من ألم.

وكون الصبر على المعاناة مر المذاق مثل الصبر الصمغي، فهذا في حد ذاته ذم له، وقد جاء به الثعالبي تحت هذا الباب، فقال:

«الصبر كاسمه». [1]

ومما جاء في باب ذم الصبر، رفض شاعر للصبر والتحمل، وهذا ما قاله:

---

(١) اللطائف والظرائف: ١١٤.

وَإِنِّي لأَدْرِيْ أَنَّ فِي الصَّبْر رَاحَةً
وَلَكِنَّ إِنْفَاقِي عَلَى الصَّبْرِ مِنْ عُمْرِي
يَقُوْلُوْنَ لِي حَمْدُ التَّصَبَّرِ غِبَّةً
فَقُلْتُ لَهُمْ لَيْسَ التَّصَبُّرُ مِنْ أَمْرِي(١)

هذا رجل صادّ عن الصبر، وعازف عن معاناته، يائس من القدرة عليه، مبعد عن جادته، لأنه، في نظره، يأكل من عمره، ويفري مهجته، ويفني حياته، ولعل فيما اختار من هذا هدفاً اقتنع به، وهو التنفيس عما بداخله من بخار القهر، ودخان الحزن، أو غبار المعاناة من أي عسر تعرض له، ففي نظره أنه لو صبر لقضى الصبر عليه.

ويقول البرقعي في أبيات له، يسير فيها على نهج سابقه، إلا أنه يثبت في نهاية الأمر أنه قد مرت به تجارب مؤلمة صبر لها، وصبره كان بالغاً، حتى أنه غلب بصبره صبر الدهر في كثرة كراته، وقسوتها:

(١) اللطائف والظرائف: ١١٤.

مَــنْ حَمِــدَ الصَّبْــرَ وَحَــالاَتِــهِ
فَلَسْــتُ بِــالحَــامِــدِ لِلصَّبْــرِ
كَــمْ جَــرْعَــةٍ لِلصَّبْــرِ جُــرِّعْتُهَــا
أَمَــرُّ فِــي الــذَّوْقِ مِــنَ الصَّبْــرِ
صَبَــرْتُ حَتَّــى قِيْــلَ لِــيْ جَــاهِــلٌ
لاَ يَعْــرِفُ الخَيْــرَ مِــنَ الشَّــرِّ
إِنِّــي إِذَا الشَّــرُّ نَبَــا نَبْــوَةً
أَصْبَــرُ لِلــدَّهْــرِ مِــنَ الــدَّهْــرِ[1]

والشجاعة تحمل في اسمها مدلول الفضيلة، إلا أن الثعالبي، متابعة للمنهج الذي بنى عليه كتابه، وجد نصوصاً خلاف ذلك، وأن للجانب المنير للشجاعة نقطة داكنة في وسطها، تلحظ عند التدبر، وترى عند التبصر؛ ويبدأ الثعالبي باب مدح الشجاعة بالقول الآتي:

«في الخبر: إن الله يحب الشجاعة، ولو على قتل حية أو عقرب» .[2]

---

(١) اللطائف والظرائف: ١١٤.
(٢) اللطائف والظرائف: ١٢٨.

ولقد رأينا أناساً يذعرون من رؤية الحية والعقرب، ورأينا من يمسك بهذه وتلك، باليد، ويلعب بأحدهما؛ وليس الأمر أمر قوة جسد، ولا ضخامته، فالحية ليست بحجم الأسد، ولا الفيل، ولكن الأمر أمر جرأة في القلب، وإرادة في الروح، وهذا يدفع رجلاً إلى ما يحجم عنه آخر، ويقدم على ما يتردد أمامه رعديد؛ وقد يرى المرء رجلاً صغير الجسم، ناحل الأعضاء، يكاد أن يكون جلداً على عظم، لا يرى عليه لحم، يُخيف عملاقاً سميناً؛ يستعين النحيل بقدرته على خفة الحركة، وإتقان الختل والمراوغة، والإقبال بقلب جسور، وعزم ثابت، وثقة قوية، لا يرعبه معها طول قبيله، ولا ضخامة جسمه، وكثرة لحمه وشحمه، لأن الأمر كما قال أحد الحكماء:

«قوة النفس أبلغ من قوة الجسد». (١)

ويقال:

«الشجاع محبب حتى على عدوه، والجبان مبغض

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٢٨.

حتى إلى أمه» .[1]

وهذا القول، مع ما فيه من مغالاة، لا يخلو من الصحة فيما يرمي إليه، فالعدو الشجاع يفرح أن يكون من أمامه شجاعاً مثله، لأن له فخراً إذا غلبه، وعذراً إن لم يغلبه، أما مبارزة الجبان فقصيرة الأمد، معدومة الروح، معيبة النتيجة، تخلو من الفخر، وتجلب الملامة، لأن الشجاع أمام الجبان المنهزم لا يمكنه أن يدّعي الفضل في الهزيمة، فالفضل للخوف والفزع الذي ملأ قلب غير الند؛ إذ أن الجبان مغلوب قبل الملاقاة، وأن الخوف قد سكنه، وشل حركته، وأوهى فعله.

والمغالاة تستمر مع بقية الجملة، فتقرر أن أم الجبان تحتقره، وتشارك بقية الناس في هذا؛ والمغالاة جاءت من أن الأم، في الغالب، لا ترى عيب ابنها، بل تتلمس له المعاذير، في أي خطأ يعمد إليه، ولكن الجبن، وعدم التحمل أو الصبر، يتعدى هذه العاطفة

(١) اللطائف والظرائف: ١٢٨.

القوية، فالأم تشعر أن ابنها لا يحمى نفسه، ولا يحمي أهله، فعرضه مهدر، وليس بعد التنصل من حماية العرض رذيلة.

وقال الشاعر، مؤكداً جانباً من هذه الصورة:

يَفِــرُّ الجَبَــانُ مِــنْ أَبِيْــهِ وَأُمِّــهِ
وَيَحْمِي شُجَاعُ القَوْمِ مَنْ لاَ يُنَاسِبُهْ(١)

وينظر المتنبي إلى الشجاعة والجبن نظرة عميقة، ويأتي بقول حكيم عن ذلك، فيقول:

يَــرَى الجُبَنَــاءُ أَنَّ العَجْــزَ عَقْــلٌ
وَتِلْــكَ خَــدِيْعَــةُ الطَّبْــعِ اللَّئِيــمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي المَرْءِ تُغْنِي
وَلاَ مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الحَكِيْمِ(٢)

الجبان يعذِّر لنفسه إذا جبن، فيدعي أنه استمع لصوت العقل، الذي حذَّرَ من الاندفاع نحو الهلاك، وأقنعه أنه إذا كانت الفرصة غير مواتية اليوم،

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٢٨.
(٢) اللطائف والظرائف: ١٢٨.

فستكون أفضل في يوم مقبل، وحيئنذ يكون نجاحٌ وحياة، أما اليوم فهزيمةٌ وموت، وما في هذا من مكسب ونجاة يستحق أي منهما أن يعطى الاعتبار، وينصاع للرأي فيه. ويؤكد المتنبي صادقاً أن هذه خديعة عقل مستعد للانخداع، وحيلة فكر فيه بذرة الميل للجبن؛ ويؤكد المتنبي أيضاً أن الشجاعة، أيّاً كان مقدارها، تغني صاحبها، وتكسبه المدح الوافر، والذكر الحسن، والصيت الذائع، وتوصله للمجد؛ ولكن قمة المجد، في رأي المتنبي، أن تجتمع الشجاعة مع الحكمة، إذ أن المرء يحجم فقط عندما يكون الإحجام هو الأحكم، ولكن لا يكون الإحجام هو الهدف، ولا عادة متمكنة، ولا ديدنا لا يحيد عنه صاحبه.

وقد شكك مستمع إلى شعر المتنبي في بعض جوانب القول الذي مر، والصورة التي رسمها، وتساءل:

«أنى يكون الشجاع حكيماً، وهما على طرفي نقيض؟

قال: هذا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ».

وقد استشهد بعلي ـ رضي الله عنه ـ لأنه لا يشك في شجاعته، ولا يُرتاب في حكمته؛ فهما أمران مشهود له بهما .

هذه الأقوال في صف مدح الشجاعة؛ وفي الجانب الآخر أقوال تبين الجانب غير الحميد في الشجاعة، عند المتكلمين في هذا الأمر .

وقد لفت النظر شيخ كبير، تأخر عن الصف في الحرب، واستعد للهرب؛ فقيل له: نراك غير شجاع!

فقال: لو كنت شجاعاً ما بلغت هذا السن» .[1]

وقد نسي هذا الشيخ أن الإجابة، على حيرة السائل بيد الله، وأن بقاءه ليس من اتقائه الحروب، وإبعاد نفسه عن الأخطار، ولكن لأن يومه لم يأت بعد .

والذين يفضلون عدم الشجاعة يقولون نفضل أن يقال:

«فرّ، أخزاه الله، خير من: قُتِل ـ رحمه الله ـ» .

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٢٩ .

ويعبرون عن ذلك أحياناً بقولهم :

«وَهَبُوت خير من رَحَموت» .[1]

وفي جانب ذم الشجاعة يقال :

«الفرار في وقته ظفر» .[2]

ويسوق الثعالبي في ذم الشجاعة قولَ محمد بن أبي حمزة العقيلي ، مولى الأنصار :

«ظَلَّتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ ، وَقَدْ عَلِمَتْ
أَنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُوْنٌ بِهَا العَطَبُ
يَا هِنْد ، لاَ وَالَّذِي حَجَّ الحَجِيْجُ لَهُ
لاَ يَشْتَهِيْ المَوْتَ عِنْدِيْ مَنْ لَهُ أَدَبُ»[3]

والعامة تقول قولاً في صف عدم الشجاعة ، وهو :

«الذلة (الخوف أو الجبن) فيها طول العمر» .

وهذا تبرير للجبن ، وإلباسه لباساً مقبولاً ؛ وكثيراً ما يقولونها بطريق المزاح ، مثل أن يقترح أحدهم

(١) اللطائف والظرائف : ١٢٩ .
(٢) اللطائف والظرائف : ١٢٩ .
(٣) اللطائف والظرائف : ١٢٩ .

على صديق أن يتزوج زوجة أخرى على زوجته، فيقول الصديق، إنه يخاف أن تغضب زوجته، ولغضبها حساب، و «الذلة فيها طول عمر»، يقول هذا بهمس، حتى لو كان بينه وبين زوجته بُعدُ المشرقين.

والحياء خلق مضيء، وأمر ممتدح، وصاحبه مغبوط، والمتحلي به محبوب، ومقدر؛ ولا يخطر على البال أن فيه ما يمكن أن يجرح، أو يلحقه ما يمكن أن يذم، ولكن الثعالبي لم يعدم أن يجد ما يقوله في ذمه.

أما مدح الحياء فابتدأه الثعالبي بما روي عن كلام النبوة الأولى، مما أدركه الناس منها، وهو:

«الحياء شعبة من الإيمان».[1]

وهذا يجعل له مكانة عليا، في الدنيا مع الناس، وفي الآخرة عند رب الناس جل وعلا؛ وأول فوائد الحياء أنه يأتي بالعافية، فالمتخلق بالحياء إذا شُتم مثلاً، فلم يجب، وفر على نفسه عناء وأذى، وعاد الشتم على الشاتم، ولابد لهذا أن يراجع نفسه،

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٢.

ويندم على ما فعل، إذا كان فيه شيء من الخلق.

ومن النصوص المتداولة عن الحياء وفضله، وامتداح من تحلى به، وانقاد لطبيعته فيه، القول الآتي:

«الحياء خير كله، فإذا لم تستح فافعل ما شئت». (١)

نَعَمْ، الحياء لا يأتي منه شر، وإذا جاء منه نقص، فهو، بالنسبة لما قد يأتي من عدم التمسك به، قليل. والحياء سد مانع لكثير من الشرور، فإذا عدم الحياء انفتح باب تدخل معه كل المعايب، ولم يَعُد من لم يتحلى بالحياء واعياً لما يفعل، أو يهمه ذلك؛ وكما يقول العامة: فلان نزع برقع الحياء، ومشى على حل شعره؛ إذْ لم يعد هناك رادع يوقفه بعيداً عن هوة الزلل، ولا مانع يصده عن التردي في حفرة الخلل؛ وكل أمر منتقد يأتيه، يؤدي به إلى آخر، ثم يتسلسل الأمر إلى ما الله أعلم به.

ومن الشعر المتداول في الحياء، لصدقه، وجاذبيته، لارتباطه بالواقع، وما هو معروف، قول الشاعر:

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٢.

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عَـاقِبَـةَ اللَّيَـالِـي
وَلَـمْ تَسْتَحْـيِ فَـافْعَـلْ مَـا تَشَـاءُ
فَلاَ وَأَبِيْكَ مَا فِيْ العَيْشِ خَيْرٌ
وَلاَ الـدُّنْيَـا إِذَا ذَهَـبَ الحَيَـاءُ[1]

والحياء من الأمور التي يحرص الأهل على تربية أولادهم وبناتهم على التحلي بها، والتمسك بما حازوه منها، ولهذا قال أحد الحكماء:

«الحياء سبب كل جميل» .[2]

ولأن الحياء والإيمان يسيران معاً، فإنه إذا تلاشى أحدهما وانعدم، تبعه الآخر، ومن فقد الحياء والإيمان خسر، وخسر خيراً كثيراً، وخسارة الخير، تُعَرِّض للشر، ولا أشقى ممن سكنه الشر، وتسلط علَى نفسه، ولهذا قيل:

«الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر» .[3]

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٢.
(٢) اللطائف والظرائف: ١٤٢.
(٣) اللطائف والظرائف: ١٤٢.

والحياء للمرأة أبهى لباس، وأشرف حلية، وإذا كان الفتى لا يُحتاج منه إلا إلى ما يبعده عن الانحلال، فإن الفتاة تحتاج إلى كل ما في إناء الحياء، وحمرة الحياء في خدها، عندما يحرِّك موجبها، مظهر لا يعدل جماله أي مظهر، ولهذا قالت ابنة الحكيم أرسطاطاليس، عندما سئلت، قولاً صادقاً، والخبر هكذا:

«سئلت ابنة أرسطاطاليس:
ما أحسن ما في المرأة؟
قالت: الحمرة التي تعلو وجهها من الحياء». (١)

وابنة العفة تجرحها الكلمة العابرة، إذا لم تكن الكلمة عفيفة، فيحمر خداها، وتغمض عينيها، وتصم أذنيها، وتود لو لم تكن بين القاعدين، ولم تسمع ما سمعت، خاصة وأنها تعلم أن من تعود سماع شيء ألفه، وهي بطبيعتها لا تود أن تألف جارح القول، أو ساقط اللفظ؛ لأن الحياء للمرأة جمال وجاذبية، ونقصه نقص في جمالها وجاذبيتها،

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٢.

فهي تنفر مما يمس جمالها؛ وتحرص أن تبقي هذا الجمال المتميز فيما تقول، وفيما تسمع، مثلما حرصت على أن يكون لباسها متسماً بالحياء.

إن كثيراً من أمهاتنا عشن حياتهن الطويلة مع أزواجهن، وإحداهن لم تنطق اسم زوجها، حياء وتقديراً، وإنما تشير إليه عند الحاجة، إشارات دالة، كأن تقول لجارتها، وهي تقص عليها خبراً عن زوجها: «أبونا»، وعند مخاطبة الزوج، تدور حول الأمر بجملة لا تأتي بمخاطبته مباشرة له، فتقول مثلاً: رأيت اليوم كذا، أو فلانة تبلغك السلام، ولا تقول: يا فلان إن جارنا قال: قولي لفلان، وإنما تقول: قال لي أقول لك كذا، وبعضهن يلجأن عندما يحزبهن التعبير إلى قول: «يا أبا فلان»، أو «قال لي أبو فلان».(١)

وقد اختلف الزمن اليوم، فربما صار للزوج

(١) لي قريب جدا، في مثل سني تماما، تحب بناته مداعبة والدتهن، بسؤالها: ما اسم الوالد، فترتبك، فيضحكن، أما هن فيقلن بملء فيهن لأزواجهن، أمام الجميع: يا فلان.

اسم دلع، وللزوجة مثله؛ وهذا هو الزمن، وطبيعة تطوره، فلكل زمان دولة ونساءٌ، وكل سعيد بزمنه ووقته!

ثم يدلف الثعالبي إلى ذم الحياء، فيقتنص اقتناصاً ما ورد في هذا من نصوص، ولم يكن الأمر سهلاً عليه، ومع هذا فلم يعدم أن يجد مثل القول الآتي:

«الحياء يمنع الرزق».[1]

وهذا قول لا يخلو من صحة، فالحياء، في بعض المواقف يعني الإحجام عما يجب فيه الإقدام، والتردد فيما يحتاج إلى عزم، وتضيع بسبب ذلك مصلحة، ويفوت غرض، ويعقب ذلك ندم، كان بالإمكان تفادي ذلك؛ وقد يوجب هذا أن يقال إن الحياء درجات، وأن كل درجة تتناسب مع موقفها؛ فإذا كان لك حاجة عند أحد، فالإقدام محمود، ولكن الحياء في المخاطبة، والعرض هو الذي يجب أن يراعى، فأنت لا تستحيي أن تبين ما تريد بقول

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٣.

مؤدب، ومخاطبة منتقاة، مختارة كلماتها، مرتبة معانيها، فلا تقول مثلاً، لقد أعطيتم فلاناً، أو سمحتم لفلان، وأنا أحق منه، أو أنا لست أقل منه، ولا تمن بعمل قمت به، أو معروف، في سالف الزمن، أسديته، لأن هذا يدخل في حدود نقص الحياء، أو انعدامه.

وكم ضاع على موظف خير كثير بسبب مثل هذا الأسلوب، فهو يقول: «خدمت الدولة» وهي جملة يقدمها يظنها تحمل حقاً، وهي لا تحمل إلا الباطل؛ والرد في ذهن السامع معد جاهز، فالموظف لم يخدم الدولة، أو صاحب المصنع، أو المتجر، بدون مقابل مجز؛ وهو لم يقبل هذا العمل، وهو يجد خيراً منه. فالفضل لمن أعطى الوظيفة، لأنه أوجد وسيلة رزق للعامل؛ وقد رأينا قبل سنوات عندما توفرت الأعمال في القطاع الخاص كيف سارع عدد غير قليل من موظفي الدولة، وموظفي بعض القطاعات الخاصة إلى ترك أعمالهم، والالتحاق بالشركات

التي حازت مشاريع، استوجب معها أن تدفع مرتبات أعلى مما كان يأخذه هؤلاء الموظفون، ونسوا ولاءهم للعمل الذي كان صاحب الفضل عندما لم يكن هناك مجال غيره.

ونعود إلى ما جاء من نصوص خاصة بذم الحياء، ونأتي على نص، ينسب إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه، وهو قوله:

«قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان». [1]

والجملتان فيهما معنيان بمؤدى واحد، تسيران معاً، وتحطان معاً، فالهيبة التي في غير محلها، لا يأتي معها كسب، ويعود صاحبها صفر اليدين مما أمل، لأنه لم يبذل جهداً، ولم يَخْط خطوة نحو هدفه؛ فالهيبة جاءت معها الخيبة مقرونة؛ والحياء الذي في غير محله، أو زاد عن حده، يحجب عن صاحبه تحقيق أمل أمله، ويضيع عليه فرصة كان بالإمكان أن يهتبلها.

وللوصول إلى الغاية، والظفر بالحاجة، هناك

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٣.

من يغالي في وجوب الإِقلال من الحياء، لنيل هذا المطلوب، فيقول:

«استعينوا على قضاء حوائجكم بالوقاحة والإِبرام» .[1]

والوقاحة هنا تعني الجرأة بصفاقة وجه، والإِبرام يعني الإِلحاح والمتابعة، بدليل ما قاله أحدهم:

«هذا زمان نكد عسير، ليس الوقح المبرم ينجح فيه، فكيف الحيي المخفف!» .[2]

أو بتعبير آخر:

«هذا زمان نكد، لا ينجح فيه الوقح المتكفف، فكيف الحيي المتعفف!» .[3]

ويؤكد نص ثالث على هذا المعنى باللفظ الآتي:

«الوقاحة كالقداحة، بها يستفز اللهب، ويشتعل الحطب» .[4]

---

(١) اللطائف والظرائف: ١٤٣ .
(٢) اللطائف والظرائف: ١٤٣ .
(٣) اللطائف والظرائف: ١٤٣ .
(٤) اللطائف والظرائف: ١٤٣ .

ونختم هذا الباب بقول الشاعر :

«لَيْسَ لِلْحَاجَاتِ إِلاَّ مَنْ لَهُ وَجْهٌ وَقَاحُ
وَلِسَانٌ وَفُضُولٌ وَغُدُوٌّ وَرَوَاحُ»[1]

ونمر في كتاب الثعالبي بعدد من المواضيع التي جاء فيها مدح وذم، فنرى من بينها ما يستغرب أن يكون فيه ذم، عندما نرى كثرة المدح له والمادحين، ويبدو أن القاعدة تنبعث من القول الذي يأتي به العامة أمام حجتهم، في قبول الأقوال المتعارضة، وهو :

«ما يمدح السوق إلا من ربح فيه».

ويأتي ضمناً أنه : «لا يذم السوق إلا من خسر فيه».

والثعالبي يذكر مدح الإخوان والأصحاب، وذمهم، ومدح العتاب وذمه، ومدح الزيارة وذمها، ومدح النساء وذمهن، ومدح التزوج وذمه، ومدح العيال وذمهم، ومدح الزجاج وذمه، ومدح الذهب وذمه، والنرجس والورد وذمها، وسوف نقف قليلاً عند مدح الشتاء وذمه، فنرى ماذا عنده في هذا المجال،

(١) اللطائف والظرائف : ١٤٣.

وهو مجال واسع، لأن فيه صلة بالغنى والفقر، وميدانهما واسع، كما سبق أن مر بنا.

ويبدأ في مدح الشتاء بالحديث الآتي، ولا أدري مبلغ صحته، ولا مدى قوته، فيقول:

«أحسن ما قيل في مدح الشتاء قول النبي ﷺ:

الشتاء ربيع المؤمن: قصر نهاره فصامه، وطال ليله فقامه».[1]

ولعل الحكمة في هذا القول تأتي من أن قصر النهار في الشتاء، مما يشجع المسلم على استسهال أمر الصوم، ففي قصره تقوية للإرادة في العزم على الصوم نهاراً، والقيام ليلاً، ومتى ذاق المسلم لذة الطاعة اعتاد عليها، وواظب على أدائها، والْتَذَّ بمزاولتها.

ويسوق الثعالبي بيتاً لأبي تمام في مدح الشتاء، ولم يلتفت إلى الشطر الأول فيه، رغم ما فيه من ذم للشتاء، مسارعة في كشف المدح في الشطر الثاني، وهذا ما قاله:

---

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٣.

«وقد أحسن أبو تمام في قوله:

إِنَّ الشِّتَاءَ عَلَى سَآمَةِ وَجْهِهِ
لَهُوَ المُفِيدُ طَلاَوَةَ المُصْطافِ»[1]

وشاعر آخر يمدح الشتاء في أنه السبب في جمال الصيف، ولولا الشتاء بما فيه من ميزات، لأصبح الشجر حطباً لا يثمر، فما في الصيف من فائدة للزراعة والشجر، وهو مما يجود به الشتاء من مطر، فهو يقول:

لَوْلاَ الّذِيْ غَرَسَ الشِّتَاءُ بِكَفِّهِ
قَاسي المَصِيْفُ هَشَائِمًا لاَ تُثْمِرُ[2]

وشاعرنا العربي ليس في ذهنه إلا المطر، تُرى فرحة الأعرابي به، ينبت عشبه، وينعش أرضه، ويسمن ماشيته، ويأتيه بالخير العميم، وتُرى فرحة المزارع به، فهو يغسل تربته، ويسقي شجره، ويملا بئره.

والشاعر العربي لا يعرف الثلج والجليد، ويعرفه

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٣.
(٢) اللطائف والظرائف: ٢١٣.

المزارع الأوروبي، والغربي، ويفرح به، ويتطلع إلى مجيئه، ويغتم لتأخره، وقلته، لأن فيه له فوائد جمّة، منها قتل الحشرات الضارة، وتسقية التربة بعناصر مفيدة، ونهايته ماء يفيده إذا نقص معدل المطر، وقلت نسبته.

وما جاء في البيت السابق عن الشتاء يؤكده البيت الآتي:

«خُضْرَةُ الصَّيْفِ مِنْ بَيَاضِ الشِّتَاءِ
وَابْتِسَامُ الثَّرَى بُكَاءُ السَّمَاءِ»[1]

وميزة هذا البيت عن سابقه، أنه أوضحُ في معناه، وأجملُ في صورته، فقد رسم الشاعر صورة جميلة، استطاع إتقانها عن طريق استعارة الإبتسامة للأرض، والبكاء للمطر، وكأنها دموع سببها بكاء، يعضد الصورة ما يعرف من صوت الرعد المفزع. وهي مخالفة سبقتها مخالفة أخرى، موفقة، وهي الخضرة والبياض.

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٣.

ويزيد الثعالبي من فكره، وحصيلة ذهنه ما يأتي:

«قال مؤلف الكتاب:

ومن محاسن الشتاء طول الليل، الذي جعله الله سكناً، ولباساً؛ وبَرْد الماء، الذي هو مادة الحياة، وانقطاع الذباب، والبعوض، وعدم ذوات السموم من الهوام، وأمنها على الطعام والأجسام؛ وهو حبيب الملوك، وأليف المتنعمين، يطيب لهم فيه الأكل والشرب؛ ويجتمع فيه الشمل، ويظهر فيه فضل الغني على الفقير؛ وهو زمن الراحة، كما أن الصيف زمان الكد، ولذلك قالوا:

«مَن لم يغل دماغه صائفاً، لم يغل قدره شاتياً» .

وقد جاء في شعر أحدهم هكذا:

وَإِنَّ الّذِيْ لَمْ يَغْلُ صَيْفًا دِمَاغُهُ
وَجَدِّكَ لاَ تَغْلِي شِتَاءًا قُدُوْرُه
كَذَلِكَ مَقْسُومُ المَعَايِشِ فِي الوَرَى
بِسَعْيٍ وَرَعْيٍ تَسْتَبِيْنُ أُمُوْرُه[1]

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٣.

ومدح بعض الدهاقين الشتاء، فقال:

«آكل فيه ما جمعتُ، وأستمتع بما ادخرتُ؛ وأي شيء أحسن من كانوني في كانون، ومن لبس الخز والسمّور، والقعود في الطورم مع الأحباب، وتناول الدراج والكباب». [1]

ثم يأتي ذم الشتاء، وليعدل الكفة بما مدحه به على لسان رسول الله ﷺ، يأتي في ذمه بحديث عنه ﷺ فيقول:

أحسن ما قيل في ذلك قول النبي ﷺ:

«إحذروا البرد، فإنه قتل أخاكم أبا الدرداء». [2]

والشتاء ببرده قد يساعد على البقاء في الفراش أكثر مما يجب، فتضيع بذلك مصلحة، ويختل واجب؛ وقد تعاني فئة معينة من الناس، مثل الفقراء، لقلة الزاد، ورهافة الملبس، وتواضع السكن؛ وقد يعاني منه المصابون بمرض، مثل مرض المفاصل، ولهذا قيل:

---

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٤.

(٢) اللطائف والظرائف: ٢١٤.

«الشتاء عدو الدين، وهلاك المساكين». [1]

والجاحظ أعطى وصفاً يؤكد هذا المعنى، ويصف الشتاء في هذا الجانب، بعباراته المعتادة، وأسلوبه المعروف، فقال:

«الشتاء عند الناس هو الكَلْب الكَلب، والعدو الحاضر؛ يتأهب له كما يتأهب للجيش، ويستعد له كما يستعد للحرق والغرق». [2]

ومثلما مدح الثعالبي الشتاء بكلمات ألفها، ومعان جمعها، فقد ذمه أيضاً، وأبرز عيوبه، وأبان الكلف في صفحة قمره، فقال:

«الشتاء عذاب وبلاء، وعقاب ولأواء، يغلظ فيه الهواء، ويستحجر الماء، وتنحجر الفقراء، وما ظنك بما يُذوي الوجوه، ويعمش العينين، ويسيل الأنوف، ويغير الألوان، ويقشف الأبدان، ويميت كثيراً من الحيوان؛ فكم فيه من يوم أرضه كالقوارير اللامعة،

---

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٥.
(٢) اللطائف والظرائف: ٢١٥.

وهواؤه كالزنابير اللاسعة؛ وليل يحول بين الكلب وهريره، والأسد وزئيره، والطير وصفيره، والماء وخريره»[1].

ومن قارن بين هذا النص في ذم الشتاء، والنص السابق في مدحه، ربما ظن أن الثعالبي كتب ذاك في الصيف، وهو في شوق إلى الشتاء، بعد معاناة مر الصيف، وآلامه، وكتب هذا في الشتاء، وأسنانه تصطك، ومفاصله يابسة!

ولا تكتمل الصورة، ولا يتم الرسم، إلا إذا أتبعنا هذا بمدح الصيف وذمه؛ وهذا وجه آخر، يتمم ما انتهينا منه من مدح الشتاء وذمه. ويتبين عند المقارنة، بين هذا وذاك، الطبعي والمتكلف، أو الذي يأتي عفواً، والذي لا يأتي إلا بتصيد ومطاردة.

ويبدو أن الثعالبي لم يجد في محفوظه، ولا في ما بين يديه من الكتب ما يمدح الصيف، فراح يؤلف كلمات ومعان، لتكون في كفة أخرى، تعدل ما ألفه من قبل عن الشتاء، فيقول:

---

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٥.

«الصيف خفيف المؤونة، جليل المعونة؛ كثير النفع، قليل الضر؛ وهو أم الحب والرياحين، وبنات البساتين؛ وراحة الفقراء والمساكين؛ وستر الضعفاء والمتجملين؛ والعون على عبادة رب العالمين؛ وطبعه طبع الشباب، الذي هو باكورة الحياة، كما أن الشتاء طبعه الهرم الذي هو باكورة العدم» .[1]

ولا يطيل الثعالبي في هذا الجانب، فبضاعته فيه قليلة، ومحصوله نزر؛ وينتقل بسرعة فائقة إلى ذم الصيف، وكأن بينه وبينه ثأر، فيبدأ كعادته بتلمس حديث يجمل به جيد مقاله، فيجده في الحديث الآتي:

«شدة الحر من فيح جهنم» .[2]

وهي صورة مرعية ترسم للصيف، وتذكير مخيف بما ينتظر العاصي؛ والذين يعرفون الصيف في بعض البلدان الحارة يدركون مؤدى هذا القول، خاصة أولئك الذين تنقطع بهم السبل في الصحراء، فلا يجدون مأوى، ولا ماء، وقت الظهيرة، ويخطون

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٦ .

(٢) اللطائف والظرائف: ٢١٦ .

إلى الموت خطوة خطوة، يجف فيها الريق، ويلتهب الداخل، وتغور العينان، ويصبح في الآذان طنين، يطيش منه العقل، ويجن الجنان.

ولهذا قال الثعالبي في «المبهج»:

«حر الصيف كحد السيف». [1]

ويأتي شاعر بأبيات يلعب فيها على الألفاظ والمعاني، فيراوح بينها، فيأتي بقول جميل، خلط فيه معنيين، أحدهما مؤلم بلذة، والآخر مؤلم مؤلم، فيقول:

رُبَّ يَـــوْمٍ هَـــوَاؤُهُ يَتَلَظَّـــى
فَيُحَـاكِـي فُـؤَادَ صَـبٍّ مُتَيَّـمْ
قُلْـتُ إِذْ خَـدَّ حَـرُّهُ حَـرَّ وَجْهِـي
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمْ» [2]

وبعض المناطق في العراق وغيره، حرها شديد، يحتال الناس عليه بشتى الوسائل، ويلجؤون إلى كل ما يقيهم أذاه، والثلج إحدى تلك الوسائل، والخيش المبلل، بما يمر به من السموم، أداة ناجحة في التغلب

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٦.

(٢) اللطائف والظرائف: ٢١٦.

على الحر ؛ ولكن الحر أحياناً يطغى على كل هذا ، فلا تنفع معه الحيلة ، ولا تجدي الوسيلة ، وقد كتب أحد الكتاب إلى آخر يقول :

«أشكو إلى مولاي صيفاً لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع به ثلج ولا خيش» .(١)

وكتب آخر :

«كيف لي بالحركة ، وقد قوي سلطان الحر ، وفرش بساط الجمر ، لا سيما وفيه الهاجرة ، التي هي كقلب المهجور ، والتنور المسجور» .(٢)

ويأخذ آخر جانبَ ثلبٍ من زاوية مختلفة ، فيكتب :

«لا مرحباً بالصيف من صيف ، فهو عون على الحيات والعقارب ، وأم الذناب والخنافس ، وظئر البق الذي هو آفة الخلق ، ثم قال فيه :

مِنْ كُلِّ سَائِلَةِ الخُرْطُوْمِ طَاغِيَةٍ
لاَ يَحْجِبُ السَّجْفُ شَرَّهَا وَلاَ الكُلَلُ

(١) اللطائف والظرائف : ٢١٦ .
(٢) اللطائف والظرائف : ٢١٦ .

طَافُوا عَلَيْنَا وَحَرُّ الصَّيْفِ يَطْبَخُنَا
حَتَّى إذَا نَضِجَتْ أَجْسَامُنَا أَكَلُوا»[1]

ونكتفي بهذه النماذج، وما بقي فيه من الأفكار والطرائف، وحسن المعالجة، يستحق القراءة، والتمعن، فمدح القمر وذمه، ومدح السفر وذمه، والبكاء، والرؤيا، والهدية، والشباب والمرض، والموت، والعمى، والسجن، والتعليم، وكلمة لا، كلها أمور ينطوي تحتها من النصوص ما يدهش، وفيها غذاء للفكر، ومتعة للنفس.

هذه نظرة سريعة عن نموذج من نماذج الكتب التي تلمس هذا الجانب من الفكر الحضاري عند العرب، يكشف عن زاوية من زواياه، ويبين منحى من مناحيه، وهو أمر حسب ما يصل إليه علمي، تميز به العرب وبرزوا فيه في مرحلة من مراحل نهضتهم الفكرية.

***

(١) اللطائف والظرائف: ٢١٧.

الفكر ونضجه[1]

الفكر تلك الأداة الشريفة، وما يصاحبها من ملكة ثمينة، هي مركز فخر الإنسان، واعتزازه؛ وكلما نضجت أحس هو بقيمتها، وعرف الناس قدره بسببها؛ لأنها تحكم أقواله، وتسيطر على أفعاله، وتضمن ـ بتوفيق الله ـ النتائج الحميدة؛ فهي توجهه إلى الطريق المستقيم، وتهديه إلى ما ينفع، وتجنبه ما يضر؛ تأتي له بالفائدة الوافية، وتدفع عنه الأذى، صغيره، وكبيره.

فالفكر، ومقره العقل، إذا نضج، أصبح هادياً وبصيراً، وديدبانا يقظاً، نتيجة إعماله الإعمالَ الصائبَ، والاستفادة منه الفائدة المتكاملة؛ يوصل إلى فتح باب السعادة واسعاً، ويقفل جيداً أبواب الشقاء؛ وهو ليس وقفاً على المنفعة في الدنيا، ولكنه نور يهدي إلى خير الدنيا والآخرة.

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٩٦) في ٣/ ٧/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢٥/ ١١/ ١٩٩٥م.

والعقل والفكر فيه، تولد حواسه مع الإنسان، وتنمو مع نموه، تلونه الوراثة إلى حد ما، وتشحذه التربية وتهذبه الثقافة، ويوسعه العلم، وتبني التجارب على صرحه لبنات ولبنات؛ فإذا ما تكاملت هذه العوامل، وتساندت في إنضاج الفكر، وتوسيع مدارك العقل، بلغ الإنسان في أقواله، وأفعاله، درجات عالية من النجاح في الوصول إلى الهدف، بوقت سريع، ومن طريق قصير.

لهذا استوجب الأمر من الوالدين التهيئة لسمو فكر طفلهما، ورجاحة عقله، بالاختيار الصائب عند زواجهما، والبحث عند المصاهرة عن العوائل التي لم يعرف بينها من اشتهر بالخرق، أو أي نوع من الجنون، أو سفه الذهن، أو اهتزاز التصرف، أو ظهور عوارض تؤدي إلى شيء من هذا. وقد تأكدت أهمية أن العرق دساس للطب الحديث؛ ومن قبله لاحظ العرب الأوائل هذا، وعلى المرء أن يحذر العرق الفاسد من جانب، أو آخر، وجاء فيما سجل من

أقوالهم إشارات مضيئة، وحِكَم صائبة، وآراء ثمينة، وملاحظات قيمة.

والمرء في الحياة في حاجة إلى العقل، فهو النور الذي يسير به في الحياة، والحياة طويلة، وتحتاج إلى قوة مستنيرة تحكم السير فيها، حتى تضمن لها السعادة. وفي التراث أقوال يختفي خلفها فكر صاف، وذهن سليم؛ وفيه أفعال تلت هذه الأقوال، أو طبقتها، واقتدت بها، فنالت من وراء ذلك الخير العميم، وتفادت أضراراً كان بالإمكان أن تحل، لولا أن تدارك الله صاحبها بالفكر الصائب، والعقل الواعي.

ومتى تبينت علامات العقل الرزين، والفكر الصائب، اقتنصها الذين يعرفونها، ويقدرونها حق قدرها، وتمسكوا بها، وحافظوا عليها من زعزعة الأهواء، وحموها من رياح الهوى والغرض، وأحاطوها بالرعاية، وصارت عينهم ناظرة يقظة، حتى لا يُدخل عليها في وقت غفلة، أو في ساعة سهو؛ والقصة الآتي بيانها في كيف حافظ أمير من أمراء

الدولة على جوهرة ثمينة، صحبته فأحسنت الصحبة، وكانت نعم العقل، يسير على قدمين، ونعم الفكر متزناً، واعياً، ومن خير من الأمراء في تقدير الجليس الصالح، والمرافق الكفيء، والمصاحب ذي الرأي السديد، والتصرف الحسن:

«غلب حارثة بن بدر الغداني على زياد، وكان رجلَ بني تميم في وقته، فأُغرِي به زياد، فقال:

وكيف باطراح رجل هو يسايرني، منذ دخلت العراق، فلم تصك ركابي ركابه؛ ولا تقدمني، فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني، فلويت عنقي إليه؛ ولا أخذ عني الشمس في شتاء قط، ولا الرّوح في صيف؛ ولا سألته عن علم قط إلا ظننته يحسن غيره». (١)

الحسد جبلة في بعض الناس، يحرق قلوبهم أن يروا نعمة الله على أحد؛ وإن بعضهم ليحسد غيره على الموت؛ وزمن زياد زمن تحاسد بين القبائل،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٩٦.

وتنافس بين العشائر، لا يخلو مجتمع في الأرض الإسلامية، مما اختلطت فيه القبائل، واجتمعت العشائر، إلا وقام نزاع بينها في القول، أو الفضل؛ ومجتمع العراق، بَصْرته، وَكُوفته، كان الأمر فيه على أشده؛ وما في النص مثل واضح من أمثلة التنافس اليقظ، فزياد حاكم العراق، ذو المركز، والهيبة، يتسابق متقدمو القبائل إلى الحظوة عنده، والقرب منه، ففي هذا رفعة للمتقرب، وعشيرته، وقبيلته؛ وتميم حظيت بهذا الشرف عندما قرب حارثة بن بدر من زياد، إلى الحد الذي وُصف بأنه تغلب وتسلط.

وهذه الحادثة جاءت بِردٍّ زَاكٍ مفيد، من زياد، إذ رسم لنا أصول الصحبة، وقواعد مسايرة الحاكم، والأدب الذي يجب أن يتوفر فيه، والأمور التي يجب أن تراعى، لتكون مفاتيح للقلوب، وعوامل كسب للتقدير والإعزاز.

وقد أحاط زياد بكل ما في وعاء الأدب واللباقة، فجاء به وافياً؛ فلم يترك الأصول المرعية في السفر أو

الحضر إلا ذكر المضيء منها، وهو ما تحلى به حارثة بن بدر، مما أرضى عنه زياداً، وأوقفه محامياً عن حارثة، بل عن خلق حارثة، وحسن تربيته، وجمال تقديره، وإصابته للهدف في تصرفه.

ولم يأت حارثة بما جاء به إلا بما وهبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من عقلٍ، وصائبِ فكر؛ وعرف كيف يستفيد من عقله، فيكسب قلب حاكمه، ويتخذ له مكاناً مرموقاً عنده.

ويلتقي عقل خليفة مع عقل امرأة جريحة، في قلبها ندب لم ينمحي، وجرح لم يندمل؛ ولكن معاوية بعقله، وصفاء ذهنه، استطاع أن يسكب بلسماً، يهدئ من ألم الجرح، ويغطي على شدته وألمه. وكان سبيله تبصير المرأة بما غفلت عنه، ولم يغفل هو، بل فطن له، ولم تفطن هي.

وعقل معاوية ورثه عن أب كان له مقام في الجاهلية، ميزه عند دخول الإسلام مكة، وأعطاه درجة على غيره ممن هم في سنه ومقامه؛ ولعل أبا سفيان قد ربى

ابنه على ما اعتَقَدَ أن فيه النفع؛ فكان معاوية ممن اشتهر بالحكمة والإناة، والصبر، والتسامح، وهي أمور نفعته في وقت صعب مر به؛ استطاع أن يتغلب في اثنائه على أمور كالجبال، وصعوبات يشيب لها الوليد، وجاءت التجارب بعد ذلك لتُنضج معاوية مع نضجه، وتزيده عقلاً على عقله؛ والموقف الآتي يدل على نضج عقل، وصفاء ذهن، وقوة فكر:

«قدم معاوية المدينة، فدخل دار عثمان، فقالت ابنته عائشة:

وا أبتاه!

فقال لها معاوية: يا بنتَ أخي، إن الناس عطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً؛ وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد؛ فإن نكثنا بهم، نكثوا بنا، فلا يُدرى أعلينا يكون أم لنا؛ فلأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين، خير أن تكون امرأة من المسلمين». [1]

(١) البصائر: ٨/ ١٩٦.

صدق معاوية في كل ما قال، ولقد أحسن تصوير الأمر، وإيضاح الحقيقة، ولم تكن امرأة كليمة تستطيع أن تتحكم في عاطفتها بعقل، كما يتحكم به رجل مثل معاوية، بعلمه، وفهمه، وإدراكه، ونظرته للناس، وعلاقته بهم، وتطلعه إلى المستقبل؛ فهو يدرك إدراكاً، لا غبار عليه، أن ما فات فات، ولن يعود، ولن ينفع أي شيء تجاهه، في هذه المرحلة، بظروفها التي مرت، وأحداثها التي وقعت.

ولقد أبان لها ما كانت عنه غافلة، وما كان يجول في صدره، مما يخاف دفينه، ويخشى إثارته؛ فقياساً على ما في صدره من غضب على قاتلي عثمان ـ رضي الله عنه ـ قاس قلوب الناس الذين عانوا من جراء ذلك في الاتجاهات المختلفة، فهذا متطلع لما اعتقد أنه من حقه وحرم منه، وهذا في بيته فقيد من حرب صفين، وغيرهم ممن يضمرون في قلوبهم جمرة غضب متقدة، لا يغطيها إلا قشرة رقيقة من الرماد، ولسرعان ما يطير هذا الرماد في الهواء إن هبت ريحُ

فِتنةٍ، أو سوء تصرف.

وآفة العقل العاطفة، فهي إذا زادت حجبت غيومها ضياء شمس العقل، وسار المرء في طريقه أعمى، لا نور يهديه، ولهذا يوصَى بلجم العاطفة، وشد رسنها، حتى تكون تابعة للعقل، لا قائدة له، لأن قليل العاطفة مطلوب، فمنه رحمة الضعيف، والعطف على الفقير، والحنو على اليتيم، وهلم جرا، وفي القصة الآتية عمل العقل، وحسن التفكير عملهما، والعاطفة نائمة، فسارا بالأمر في الطريق المستقيم، وهديا إلى المحجة المثلى، فما أن استيقظت العاطفة حتى أفسدت كل شيء، أو كادت، وكأنها ذئبة نائمة، أيقظها سوء حظ الضحية، فانقضت كاشرة الناب، مسنونة الظفر.

والقصة هكذا:

«قال المدائني:

قال سلم بن زياد لرجل، يقال له طلحة الخزاعي:

إني أريد أن أصل رجلاً له حق، وصحبة، بألف

ألف، فما ترى؟

قال: أرى أن تجعل هذا لعشرة.

قال: فخمس مئة ألف؟

قال: كثير.

قال: رجل بمئة ألف؟

قال: نعم.

قال: وبها يقضى ذمام رجل له صحبة؟

قال: نعم.

قال: هي لك، فما أردت غيرك.

قال: أقلني.

قال: لا فعلت أبداً». [1]

لقد قال طلحة قولاً حقاً، وأبدى رأياً صائباً، عندما استشاره سلم بن زياد؛ فكان جليساً أميناً، وناصحاً مخلصاً، استفاد من عقله، ليصل إلى الفكر الصائب. ولكن حب نفسه سرعان ما أعشى بصره، وأظلم فكره، وأقفل على عقله برتاج مكين، وفتح

(١) البصائر: ٩/ ٣٦.

باب العاطفة على مصراعيه؛ ولعل سلماً كان يعرف عنه شيئاً من عدم حبه الخير للآخرين، فأحب أن ينبهه إلى علمه بهذا، مما يوجب على طلحة الإقلاع عنه، وأن يحب للناس ما يحبه لنفسه، وأن لا يطلق العنان للعاطفة، ويتركها تصرفه كما تريد، وتوجهه حيث شاءت.

ـ[1] وهذا تصرف من سلم يحمد عليه، فلقد أعطى درساً لطلحة، بطريق سوف لا ينساها، لأن فيها عقل، وعصارة فكر؛ لم يتهمه بإيثار نفسه على غيره، وحبه لنفسه، بطريق مباشرة، بل جاءه بهذه الطريق التي دلت على أنه حاكم ملء برديه، يستطيع تأديب جليسه، وتقويم اعوجاجه، حتى لا يفقد ثقته فيه، وحتى تكتمل صفات المجالسة، بدلاً من أن يكون جزء منها.

و «نصيب» الشاعر عرف بالرزانة والعقل، حتى أنه حظي بعطاء أناس حرموا غيره من أعطياتهم،

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

وفي النص الآتي ما يدل على نضج في التفكير، وسعة في العقل، وصفاء في الذهن:

«قال مسلمة لنصيب: سلني.

قال: كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة.

فأعطاه ألف دينار». [1]

إن تفكير نصيب هداه، بتوفيق الله، إلى هذه الجملة الشريفة؛ إذ لم يطلب كثيراً، مراعاة للأدب والذوق، ولم يطلب قليلاً، أملاً بالكثير، ولم يكن من وسيلة إلا وضع الأمر في يد مسلمة؛ ولكن هذا يحتاج إلى لباقة، وجملة بليغة، وكلمات منتقاه، فجاء بهذه الجملة المضيئة حقاً، فعادت عليه بما أراد، من صلة جزلة، وعطاء كريم.

والإضاءة الفكرية قد تكون بصيصاً محدود الإشعاع، ولكن تكون البركة حالة فيه، فيأتي بالمطلوب، ويوصل صاحبه إلى الهدف، لأن حَبْك الأمر جاء متقناً، واختير له عنصر النجاح، فنجح،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٦٣٧.

مثلما حدث في الموقف الآتي:

«تعرض أعرابي لمعاوية في طريق، فسأله، فمنعه، ثم عاوده في مكان آخر، فقال:
ألم تسألني آنفاً؟
قال: نعم، ولكن بعض البقاع أيمن من بعض.
فضحك، ووصله» .[1]

لقد أعجب معاوية بقول هذا الأعرابي، فهو لم يقر فقط بأنه سبق أن جاءه، ويسكت بعد ذلك؛ فلو حدث هذا لكان من السهل على معاوية أن يمنعه عطاءه مرة ثانية؛ ولم يقل هذا الأعرابي أنه جاء دالاً، وملحاً، فربما نفر هذا معاوية، ولكنه قدم قولاً يدل على فكر سديد، قدحه الأعرابي، وأمل من ورائه، وفي هديه، أن يصل إلى بغيته؛ فاستجاب معاوية، إعجاباً بقوله، وربما يقيناً بأن البقاع أكثر يمناً من بعض.

وإذا كان هذا الرجل أمل أن تكون بعض البقاع

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٦٣٥.

أيمن من بعض، فهناك من وقف موقفاً مماثلاً، واعتقد أن الأوقات قد يكون بعضها أقرب للقبول من بعض، وما قد لا يكون مقدراً في أحدها، قد يكون مقدراً في آخر، والقصة الآتية تبين ذلك:

«أتى رجل يزيد بن أبي مسلم برقعة يسأله أن يرفعها إلى الحجاج؛ فنظر فيها يزيد فقال:

ليست هذه من الحوائج التي ترفع إلى الأمير.

فقال له الرجل: فإني أسألك أن ترفعها، فلعلها توافق قدراً، فيقضيها، وهو كاره.

فأدخلها، وأخبره بمقالة الرجل.

فنظر الحجاج في الرقعة، وقال ليزيد:

قل للرجل: إنها وافقت قدراً، وقد قضيناها، ونحن كارهون». [1]

وقد نجح الرجل في مسعاه لدى حاجب الحجاج، ولدى الحجاج، ونال مقصوده، لأن عقله، بتوفيق الله دله على الفكرة المقبولة؛ والحجاج رجل حازم،

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٤٧.

وحاكم مهيب، ولكنه خبير بجواهر الكلم، ولؤلؤ الأفكار، وقد عرف قيمة قول الرجل بمجرد أن طرق سمعه، فاستجاب له فعلاً، باعطائه مطلوبَهُ، وقولاً، بموافقته على ما ظن الرجل، من أن قوله وافق قدراً.

ومسلك مماثل ثالث، جاء صاحبه بمدخل مختلف عن الاثنين السابقين، وجاء بالنتيجة نفسها، وأدرّ الدِّرة وافية صراحاً، والقصة كمايلي:

قدم على مخلد بن يزيد بن المهلب رجل قد كان زاره، فأجازه، وقضى حوائجه، فلما عاد قال له مخلد:

ألم تكن أتيتنا فأجزناك؟

قال: نعم.

قال: فما ردك؟

قال: قول الكميت:

فَـأَعْطَـى ثُـمَّ أَعْطَى ثُـمَّ عُـدْنَـا
فَـأَعْطَـى ثُـمَّ عُـدْتُ لَـهُ فَعَـادَا

مِـــرَاراً مَـــا أَعُـــوْدُ إِلَيْـــهِ إِلاَّ
تَبَسَّـــمَ ضَـــاحِكَـــاً وَثَنَـــى وِسَـــادَا

فأضعف له مخلد ما كان أعطاه» .[1]

والفكر الصائب، والعقل الرزين، يضعهما الله ـ سبحانه ـ فيمن يشاء، فلا يقتصران على الجادين، دون الهازلين، ولا الأغنياء دون الفقراء، ولا الرجال دون النساء؛ فقد يأتي الفكر مصاحباً للفعل المنتقد، ولكن يُؤْتَى لإنفاذه بحيلة متقنة، جاء بها فكر متأن صاف، درس المحيط حوله، وعقل الناس عنده، فخرج ما أنجح القصد، وأوصل إلى الهدف؛ فهذا طفيلي أخذ من فعله مع الناس حيلة يتقي بها ما كان يجريه معهم، فنجح في عمله، ووصل إلى ما يريد. والطفيليون أصحاب فكر ثاقب، يفيدهم في كسبهم ما يغزونه، وفي ربحهم ما يغيرون عليه، وهم متفننون في هذا؛ يكاد لا يعجزهم أمر، ولا يقف في طريقهم عائق، إذا رأوا الضحية، وشموا رائحة المغنم،

(١) لباب الألباب، لأسامة بن منقذ: ١٠٥، دار الجبل ـ بيروت. تحقيق: أحمد محمد شاكر ـ الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

وهذا أحد الطفيلية يتقي بحيلة متقنة، جاءت من ذهن صاف، هجمة قومه الطفيليين إلى ما لهم به مطمع، وله به ضن.

«أولم طفيلي على ابنته، فأتاه كل طفيلي؛ فلما رآهم عرفهم، ورحب بهم، ثم أدخلهم، فرقاهم إلى غرفة بسلّم، ثم أخذ السلم، حتى فرغ من إطعام الناس؛ فلما لم يبق أحد، أنزلهم، وأخرجهم». [1]

ويصح التفكير، ويضيء في ذهن أعرابي، وقيل إنه طفل صغير، فيرى بثاقب هذا الفكر الطريق الحق، والجواب الصحيح، لسؤال وجه إليه، لم يجد عناء في أن يرى مرامي القول فيه. والقصة كمايلي:

قيل لأعرابي أيسرك أن تكون أحمق؟ وأن لك مئة ألف درهم؟

قال: لا.

قيل: ولم؟

قال: لأن حمقةً واحدة، تأتي على مئة ألف درهم،

---

(١) البصائر: ٤/ ٢٠٢.

وأبقى بعدها أحمقَ» .[1]

وقد يبدو الأمر بديهاً ونحن نسمع الجواب، ونزن الأمر بالميزان الذي وزنه به الصبي الأعرابي، ولكن كثيرين غيرنا سوف يغريهم المال، خاصة وأن الأمر أمر تمني، ومع هذا فهناك غير هذا الأعرابي رفض هذا العرض، ورد هذا التمني، في الخبر الآتي:

«قال أبو تمام: قلت لرجل من أهل الكوفة:

أيسرك أنك جاهل، ولك مئة ألف درهم؟

قال: لا.

قلت: ولم؟

قال: لأن يُسر الجاهل شين، وعسر العاقل زين، وما افتقر رجل صح عقله» .[2]

صدق الكوفي فيما قال، فالعقل يشع نوراً، يهدي صاحبه إلى مأتى المال، ومجالب الثروة؛ ونور الجهل يبدد ما توفر من المال، ويسد الطرق على تنميته، وتكثيره.

---

(١) البصائر: ٤/ ١٧٥.
(٢) البصائر: ٤/ ١٦١.

والرجل يشتهر بالفراسة فيعزى هذا إلى قوة عقله، وصدق تفكيره، فهو ينظر إلى الأمر بعقل، ويقارن الأمور المتشابهة، ويقرب بعضها من بعض، فيتبين له من الحقيقة ما لا يتبين لغيره، ويصيب رأيه في أغلب الأحيان، لأنه يحاول أن يحيط بجوانب الموضوع، إضافة وحذفاً، إمكاناً واستحالة، ومن أشهر من عرفوا بالفراسة إياس بن معاوية، وقد أفادته هذه الفراسة كثيراً، واسعفته في عمله وهو قاض، وحل عن طريقها مشكلات صعبة، وتغلب على صعوبات معقدة. والفراسة التي من أمثال إياس يتبين فيها عمق التفكير، وإعمال الذهن، والغوص على درر العقل. ومن أمثال ذلك الموقف الآتي:

«مرّ إياس بديك ينقر الحب، ولا يقرقر، فقال:

ينبغي أن يكون هذا هرماً؛ فإن الهرم إذا ألقي له الحب لم يقرقر، ليجتمع إليه الدجاج؛ والشاب إذا ألقي إليه الحب قرقر، واجتمعت عليه الدجاج». [1]

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٣٦٥.

قد يكون الأمر واضحاً الآن، وطبعياً، ولكن إياس تفرس في الموقف، وفكر فيه، وقارنه بما يعرف، وطبق عليه قاعدة عميقة، يدخل فيها حب النفس، والسعي لمصلحتها، فالديك الشاب يعطي الدجاج، لغرض في نفسه، وفائدة يرجوها من ذلك؛ أما الهرم فلا يريد من الإناث شيئاً، وهمه الرأفة بنفسه، لأنه إذا لم يلتفت إليها لم يلتفت له أحد، وربما مات جوعاً.

وسوف نورد موقفاً آخر لإياس، خرص فيه شيئاً مبهماً، وأبان منه ما اختفى، وقد أبان سير ذهنه في هذا عندما طلب منه أن يشرح كيف عرف المعمّى، وأبان المخبأ، وهو يُري جانباً من جوانب الفراسة، وكيف يكون التعامل معها إلى ما يظهر الخفي؛ والقصة كمايلي:

«نظر إياس يوماً إلى رجل متأبط شيئاً، فقال:

«سُكَّر»، وقد ولد له غلام.

فأتبعه رجل، فسأله، فوجده كما قال.

قيل له: ومن أين علمت؟

قال: رأيت الذباب قد أطاف به؛ فقلت؛ معه سكر، ورأيته نشيطاً مرحاً، فقلت: ولد له غلام». [1]

إذا صحت هذه الرواية، فقد يكون هناك عامل آخر ساعد إياساً على تحديد الفرح بأنه من ولادة غلام، لأن مصادر الفرح كثيرة، وقد لا تحصى؛ أو أن القصة مركبة على إياس لشهرته في هذا المجال، ومن اشتهر بشيء اتخذ مشجباً، يعلق عليه الأدباء والكتاب ما يطرأ على أفكارهم من معنى حسن؛ فذكاء إياس، مثل حلم أحنف، مثل كرم حاتم، جعله هدفاً لنحل قصص الذكاء، والقصة الآتية رغم أن التفكير نصب فيها ليكون مضيئاً، ومشعاً بالفعل السليم، والذهن السديد، إلا أن الشك قد لا يبعد عن أنها منحولة، لأن الأشياء الخفية كثيرة، إلا إذا كان هناك عامل مساعد، رجح أن ما في الإناء جراد، كأن يكون الوقت موسم الجراد، أو السوق

(١) أخبار القضاة: ١/ ٣٦٥.

يغلب على البضائع فيه الجراد، والقصة هكذا:

«رأى إياس جارية في المسجد على يديها طبق مغطى بمنديل، فقال:

في طبقها جراد.

فكان كما قيل.

فسئل، فقال: رأيته خفيفاً على يديها». [1]

وإذا كان النحل غير مؤكد في هذه القصة، فيكاد يكون مؤكداً في القصة الآتية، لأنها رغم طرافتها، والتبرير القوي المعطى تفسيراً للفراسة، إلا أن العقل يستبعدها، يستبعد أولاً اجتماع ثلاث نسوة بحالات مختلفة، فإذا حدث هذا، وهذا نادر، فمن غير المتوقع أن يأتين بما قيل إنهن أتين به، كما فصل ورتب؛ والقصة كمايلي:

نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزعن من بعير، فأشار إليهن، فقال:

هذه بكر، وهذه حامل، وهذه مرضع.

---

(١) أخبار القضاة: ١/ ٣٦٥.

فقام إليهن رجل، فسألهن، فكن كما قال.

قال، فقيل له: كيف علمته؟

قال: رأيتهن لما فزعن، وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع إليها؛ فوضعت الحامل يدها على بطنها؛ ووضعت المرضع يدها على ثديها؛ ووضعت البكر يدها على قبلها». [1]

نسي واضع القصة أموراً مهمة، اعتبارها يبطل صحة القصة؛ فإياس رجل دين وقاض، يعرف ثواب غض البصر، وعقاب من ينظر إلى محارم الناس؛ وإن نظر إياس نظرة عابرة، دون إثم عليه، فلن تكفيه ليعرف ما فعلت كل واحدة من هؤلاء النسوة الثلاث، ولا يعرف ذلك إلا رجل فتح عينيه، ونظر بتبحر وعمق، وهو ما لا يقبل أن يقال عن إياس.

والمدخل الثاني على القصة، كما هو على سابقاتها، هو سؤال من كان هدفاً للفراسة؛ ولم يكن ذلك من السهل، خاصة مع النساء، والعاقبة قد لاتكون

---

(١) المحاسن والمساوئ: ٣٢٣، الكشكول: ١/ ٣٨٦.

حميدة فيما لو سئلت امرأة، عما تحمل من جراد، أو ما تحمل من حمل في بطنها، أو حليب في ثديها، أو ما إذا كانت بكراً أو ثيباً؛ حتى حامل السكر المرح، لعله لو سئل عما أخفى، لكسر أنف السائل.

ومع هذا فهي قصص تري جانباً مضيئاً من التفكير، هدى إليه العقل الراجح، والذهن الصافي، والمعالجة الناضجة.

والرسول ﷺ وهو صاحب القمة في العقل، والعمق في التفكير، والبعد في الفراسة، يبدي ملاحظة لعائشة، تدل على صفاء في الفكر، واستقراء للحوادث، وربط بينها، والخروج بنتيجة صادقة، يصارح بها عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولعل له تصرفاً مع عائشة عندما تأتي هذه الحالة، فيكون موقفه مع عائشة ملائماً لما عرفه بفراسته ـ صلوات الله عليه ـ والقول كمايلي:

«كان رسول الله ﷺ يقول لعائشة:

إني لأعرف إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى.

قالت: وكيف تعرف ذلك؟

قال: إذا رضيتِ، قلتِ: لا، وإلٰه محمد! وإذا غضبت، قلتِ: لا، وإلٰه إبراهيم.

قالت: أجل، يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك» .[1]

هذه الملاحظة الدقيقة منه ﷺ تدل على صفاء الذهن، وعمق التبصر، والمتابعة لظواهر الأمور، فهو النبي المختار، وهو الزوج الحفي، ولا غرو أن يلحظ مثل هذا الأمر، ويتنبه له.

واللباقة، وحسن اللفظ، ومراعاة كبار القوم في المخاطبة، وكبار السن في القول والمعاملة، دليل نضج في الفكر، واتزان في العقل، وصفاء في الذهن؛ ومظهر نعمة مسبغة من الله سبحانه وتعالى، جاءت بها طبيعة مؤصلة، وتربية سليمة ناجحة، وربما تجربة طويلة موفقة، والقصة الآتية، قصة ساذجة، ليست ذات طبيعة معقدة، وإنما هي بسيطة عابرة ولكنها وليدة هذا الفكر المنير، وهي كمايلي:

(١) المراح في المزاح: ٣٥٠.

«دخل سعيد بن مرة على معاوية، فقال له:

من أنت؟

فقال: أمير المؤمنين سعيد، وأنا ابن مرة». [1]

هذا الأدب الجم، من سعيد بن مرة، لابد أنه أكسبه احترام معاوية له، وتقديره، لأن في قوله التفاتة موفقة، تدل على أن سعيداً أهلٌ أن يدخل على معاوية، ويجلس في مجلسه ويحظى بالتفاتة منه، وتساؤل.

وللعباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ موقف مماثل، التزم فيه غاية الأدب مع من سأله عن سنه، ومقارنة ذلك بسن رسول الله ﷺ، والموقف هكذا:

«قيل للعباس بن عبدالمطلب: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟

فقال: هو ـ عليه السلام ـ أكبر مني، وولدت قبله.

وقيل إنه قال: وأنا أسنّ منه». [2]

---

(١) محاضرات الأدباء: ٣٠، والمحاسن والمساوئ: ٤٥٩.

(٢) المحاسن والمساوئ: ٤٥٩.

وقد حرص العباس، عم الرسول، أن لا يقول: أنا أكبر منه، حتى لا يظن أنه يقصد أكبر منه مقاماً؛ فأكد أن الرسول ﷺ أكبر مقاماً، وهو مولود قبله، أي أكبر منه سناً؛ والجواب الحسن دليل الأدب، وحسن الخلق، والعقل السليم، والفكر الناضج، ولا يقتصر هذا على الرجل دون المرأة، أو الغني دون الفقير، أو المتعلم دون غير المتعلم، وهذه امرأة من نساء البادية، وقفت موقفاً حميداً مع خليفة، قالت له قولاً يدل على تفكير صائب، وذهن صاف، يجعل عشيرتها، وقومها، وقبيلتها، يفخرون بها، والقصة كمايلي:

«وقف المهدي على امرأة من بني ثعل، فقال لها: ممن العجوز؟

قالت: من طيء.

قال: ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟

فقالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك.

فأعجب بقولها، ووصلها» .[1]

هذا القول أجاب على التساؤل إجابة حسنة، وجاء للمرأة بصلة جزلة تستحقها .

ولعل طبيعة الأسئلة عن الاسم، أو السن، تستوجب الأَناة، وإعمال الفكر أحياناً، من قبل أولئك الذين يقدرون الأمور حق قدرها، ويحسبون لكل أمر حسابه، فيبتعدون عن المزالق، ويتحاشون الحفر؛ وهذا موقف اقتضى حسن الجواب، من رجل ناضج الفكر، صافيه :

«دخل السيد بن أنس الأزدي على المأمون، فقال : أنت السيد؟

فقال : أنت السيد، يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنس» .[2]

ولو قال : نعم، أنا السيد؛ فربما رد عليه المأمون : إذاً من أنا، وهو خطأ كبير، ولكن السيد لم يقع في

(١) المحاسن والمساوئ : ٤٥٩ .
(٢) المحاسن والمساوئ : ٤٥٩ .

هذا الخطأ، بل قال قولاً حكيماً، ولابد أن ذلك سر المأمون، وأعجبه، وأفسح له مكاناً في نفسه، وفي مجلسه، فهو يستحق ذلك.

والحجاج رجل يهتم بالألفاظ، والمعاني، وتعجبه الحكمة، والقول الحسن، والشعر الرصين، والرد الفصيح، والكلمة الصادقة، والأدب الجم، ولابد، لهذا، أنه قدر للمهلب رده عليه عندما ألقى إليه سؤالاً، ولا يستغرب أن يكون المهلب بهذا المستوى من رجاحة العقل، وحسن التفكير، وصواب التصرف، فهو القائد المظفر، والحاكم الناجح فيما حكمه، والقصة كمايلي:

«قال الحجاج للمهلب:

أنا أطول، أم أنت؟

فقال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة» .[1]

لم يرد المهلب أن يكذب على الحجاج، فيقول أنت أطول، فهذا لو اقتصر عليه يُنافي الحقيقية، وسوف

---

(١) المحاسن والمساوئ: ٤٥٩.

يعتبره الحجاج نفاقاً، وسيمسك هذه الزلة على المهلب، ولن يسكت عنها، ولو كانت في صالحه؛ ولكن المهلب أردف بما يعدل كفة القول، ويزنه عن أن يميل؛ فبقوله إنه أبسط قامة، أنطق الحقيقة، وتمت الفضيلة في الجواب.

وسياسة الحاكم الحسنة تدل على نضج عقل، وحصافة ذهن، وسلامة تفكير، خاصة إذا وضع الحاكم سياسة ثابتة، يسير عليها، ويعرفه بها الناس، ويكون سيره في ضوئها، وطاعتهم في هديها، وقد وضع معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ سياسة يسوس بها رعيته، وأعرب عنها بقوله:

«لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها»[1].

إنها سياسة حكيمة، لُخِّصَت في كلمة جامعة، جاءت من فكر ثاقب، وعقل سام، وتجربة مستوفية؛ فمعاوية من بيت زعامة، له صحبة، هذبت من

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٢٠.

طبعه، وزادت من علمه، وهدت طريقه؛ وله تجربة في الحكم، قبل الخلافة، عرفته على أخلاق الناس، وطباعهم؛ وجرب عليهم شتى السياسات حتى استقر على ما حمده منها؛ واتخذ ذلك سياسة ثابتة، باقية، نفعته في وقته، وقلده فيها من وفقه الله إلى صالح نفسه وشعبه، وسجلها الكتاب والمفكرون إعجاباً بها، واستحساناً لنتائجها، وتقديراً لصاحبها، ومتخذها.

والوفاء فاكهة يانعة، تطرحها دوحة العقل، وشجرة التفكير السليم؛ لأن للوفاء معنى، لا يدركه إلا صاحب العقل الراجح، ومن يُجري التفكير مجراه؛ لأن الوفاء حق يجب أن يُرى لصاحبه، وفضل يجب ألا يُنسى لمسديه، ولا يُنتقص حقُّ مانحه؛ ومن لم يف بما عليه من حق للناس، اتهم في تفكيره، والقصة الآتية، فيها نور الوفاء، وفيها نضج التفكير الذي أدى إليه، والعقل الذي سانده، فأعطى صاحبه الشجاعة الكاملة، في موقف مهيب، الشجاعة فيه

قد يعتبرها بعض من حضر المجلس، تهوراً، وإقداماً يائساً؛ ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرعى من حافظ على ما حمد من خلق، ومن وقف موقف الرجولة، ليحمي مبدءاً شريفاً، وهدفاً نبيلاً؛ وفي القصة الآتية يتبين ذلك:

«لما قتل مسلمة بن عبدالملك يزيد بن المهلب، أمر بأن يحضر الشعراء، ليقولوا في ذلك؛ فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ما خلا رجلاً من بني دارم، فإنه قال: لا أذم رجلاً، لا أملك ربعاً، ولا مالاً، ولا أثاثاً إلا منه، ولو قطعتُ إرباً إرباً؛ ولقد رثيته بأحسن ما يرثى به رجل؛ فأنشد أبياتاً رائعة، فجزاه مسلمة خيراً، وقال:

إذا اصطنع، فليصطنع مثل هذا». [1]

هذا رجل حافظ على المعروف، فهو أرض خصبة، ينبت فيها الفضل، ويثمر الإحسان؛ ولقد جازف بحياته حتى لا يقول كلمة جارحة، لرجل أسدى

---

(١) محاضرات الأدباء: ١٤٩.

إليه ما جعله يلفظ بفضله، ويقرّ بإحسانه، بل ويرثيه رثاء كان بالإمكان أن يلقيه في التهلكة، ولعله لم يكن يهمه البقاء أو الفناء، بعد قتل يزيد، فقد أصبحت الدنيا ضيقة بعدم وجود يزيد.

والعقل، وما يأتي منه من فكر ثاقب، وتصرف سليم، ليس وقفاً على أحد دون أحد، ولا على الكبير دون الصغير، ولا على السيد دون الخادم؛ والقصة الآتية تؤكد هذا، فهذا خادم قال قولاً حكيماً، ورد فكراً ناقصاً جاء به سيده، وإن كان سيده معذوراً، للموقف المؤلم الذي هو فيه. والقصة هكذا:

«ولما جعل ابن الزيات في التنور، قال له خادمه:

يا سيدي، قد صرت إلى ما صرت، وليس لك حامد.

قال: وما نفع البرامكة صنيعهم؟

قال: ذكرك لهم الساعة.

فقال: صدقت». [1]

(١) محاضرات الأدباء: ١٥١.

حتى فئة البخلاء يأتي في بخلهم مكان للعقل، يقدرونه ويرون فيه فكراً مشعّاً، في ضوء القواعد التي وضعُوها، والمبادئ التي يدينون بها، وتسير حياتهم في ضوئها؛ وهذه قصة بخيل وخادمه، تنافسا على كد الذهن، للارتفاع ببعض مظاهر البخل إلى درجة عالية، يوصلهم إليها التفكير العميق، وإضاءة ذهن غير معتادة، والقصة هكذا:

«قال بعض المبخلين لغلامه:

هات الطعام، وأغلق الباب.

فقال: يا مولاي، هذا خطأ، أغلق الباب أولاً، ثم أقدم الطعام.

فقال: إذهب، فأنت حر، لعلمك بأسباب الحزم». [1]

هذه قصة أقرب إلى الرمز منها إلى الحقيقة، وأريد منها طرافتها، وهي مؤلفة تأليفاً، ولم تقع في الحقيقة، ولكنها تصلح شاهداً على الفكر إذا أحسن

---

(١) محاضرات الأدباء: ٢١٩.

شحذه، وهزت نخلته؛ وإلا فكيف يعقل أن يطلب الرجل من خادمه أن يغلق الباب حتى لا يُشارَكا في طعامهما، ذي الثمن القليل، ثم يعتق غلامه، وهو يساوي آلاف وجبات الأكل!

ولعل حاجة البخيل إلى الفكر المتجلي، والعقل النير ماسة، لأن الخسارة عنده فادحة، فخوفه منها، وحبه للكسب يجعل ذهنه في شغل في هذا الاتجاه، فيتقنه، ولا يتقن غيره؛ ويأتي فيه بالفكر العجيب، الملفت للنظر، مما لا يخلو من سداد، مثل القصة الآتية:

«قال رجل: إنا لا نأكل إلا نصف الليل.

فقيل له: لمه؟

قال: يبرد الماء، وينقمع الذباب، ونأمن فجأة الداخل، وصرخة السائل». (١)

وقد ذكرنا صفاء ذهن معاوية، وسلامة تفكيره، ورجاحة عقله، وكيف أوصله هذا إلى أن يضع له سياسة ثابتة، يحكم بها الناس، فيأمن معهم، ويأمنون

(١) محاضرات الأدباء: ٢١٩.

معه؛ ولم يكن معاوية هو الوحيد في هذا، فغيره من الحكام، الذين وهبهم الله العقل السليم، والتفكير الرصين، فعلوا فعله، واهتدوا إلى ما اعتقدوا أن فيه النفع، لتحسن الصلة بينهم وبين من يحكمون، وهذا زياد بن أبي سفيان، وهو من هو في عقله، وحزمه، ومقدرته على حكم الأمور في العراق؛ والعراق لم يكن من السهل حكمه؛ وهذا ما وضعه أمامه عندما بدأ حكمه للعراق، وهذا ما قدمه للناس، وأظهرهم عليه، مما جعله مبدءاً يسير عليه، وقاعدة يحاسب الناس عليها:

قال زياد:

إني رأيت خلالاً ثلاثاً، نبذت إليكم فيهن النصيحة:

رأيت إعظام ذوي الشرف، وإجلال ذوي العلم، وتوقير ذوي الأسنان.

والله، لا أوتى بوضيع لم يعرف لشريف شرفه، إلا عاقبته له؛ ولا يأتيني كهل بحدث، لم يعرف له فضل

سنِّه على حداثته، إلا عاقبته له؛ ولا يأتيني عالم عاقل بجاهل، لم يعرف له فضل علمه، على جهل، إلا عاقبته له؛ فإنما الناس بعلمائهم، وأعلامهم، وذوي أسنانهم.

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ
فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ
لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَ سَراةَ لَهُمْ
وَلاَ سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا»[1]

والعلم نور يشع في الفكر، والتقوى ضياء يسطع في القلب، فإذا اجتمعا حملا الإنسان محملاً كريماً، ودلاه على أصوب الآراء، وأسلم الأعمال؛ يرى صاحب هذه الأنوار العقلية والقلبية ما لا يراه غيره، وفي القصة الآتية شيء من هذا:

«جاء رجل يودع بشر بن الحارث، وقال له:
قد عزمت على الحج، أفتأمرني بشيء؟
قال له بشر: كم أعددت للنفقة؟

(١) المصون: ١٤٦، ولباب الآداب: ٤٠.

فقال : ألفي درهم .

قال : فأي شيء تبتغي بحجك ، نزهةً ، أو اشتياقاً إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله؟

قال : ابتغاء مرضاة الله تعالى .

قال : فإن أحببت رضى الله ، وأنت في منزلك ، وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضاة الله ، أتفعل ذلك؟

قال : نعم .

قال : اذهب ، فاعطها عشرة أنفس : مدين يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يحيى عياله ؛ وعَدَّلَهُ العشرة ؛ وقال له :

وإن قوي قلبك أن تعطيها لواحد ، فافعل ؛ فإنه أبر من مئة حجة ، بعد حجة الإسلام ، وأفضل ؛ قم ، فأخرجها ، كما أمرتك .

فقال : يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي .

فتبسم بشر ـ رضي الله عنه ـ وقال له

المال إذا جُمع من وسخ التجارات ، والشبهات ،

اقتضت النفس أن تقضي به وطراً، وتسرع إليه تظاهراً ـ يعني بأعمال الصالحين ـ وقد آلى الله ـ تعالى ـ على نفسه لا يقبل إلا أعمال المتقين» .[1]

فِكْر بشر المنير، وذهنه المشرق، وعقله الواعي، دلته هذه كلها على أحسن الطرق لإنفاق المال، والابتعاد عن شبهة الرياء والنفاق؛ ولكن لم يرد الله للرجل الذي يريد الحج أن يرى ما رآه بشر من ضياء وإشعاع، مما جعل بشراً ينظر إلى المال، الذي سوف ينفقه، نظرة متدنية، تدخل مدخل مال الشبهة، وهو السبب في أن قلب صاحبه لم ينفتح على سماع كلمات النصح والتقوى، وجرى خلف العادة، والعرف، وكسب راحة قلبه، عن كسب دينه!

وليس نضج الفكر في القول أو العمل، ولكنه أحياناً في وزن ما يعمل أو يقال، ومعرفة قيمة ذلك، وموقعه من العقل الرزين، والتفكير السليم؛ وحينئذ يكون القائل والسامع في درجة متساوية،

(١) الدرر الفرائد: ٢/ ١٢٢٦.

أما في الحالة التي سوف نذكرها فالقائل رب العالمين، والسامع أحد الذين يعرفون مرامي القول، ويعرفون جوهر القول، وقد أدرك صدق ما سمع، ورأى ضياء الحق، حتى أنه سارع يعلن أنه لا يريد فوق هذا مزيداً، والقصة كمايلي:

«قال الحسن:

قدم صعصعة، يعني عم الفرزدق، على النبي ﷺ فسمعه يقرأ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[(1)] .

فقال: حسبي، حسبي، لا أبالي أن لا أسمع آية غيرها». [(2)]

لقد سطع نور العدل أمام فكر صعصعة، فعرف فيه الوحي الإلهي، لأنه من فاحصي الدر، وعارفي قيمته، واكتفى بهذا في فتح قلبه للإيمان، بهذا البرهان الساطع لمن يخبر ضياءه، ويعرفه حق المعرفة.

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سراج الملوك: ٦٦.

وكنا ذكرنا بعض ملامح فكر إياس بن معاوية، وما يأتي من هذا الفكر من فراسة وعلم، وذكرنا أن لهذا الفكر مظاهر مختلفة، ومن هذه المظاهر القصة الآتية، التي تدل على نضج عقل مبكر، وحدة في الذكاء، سابقة لأوانها:

«يقال عن إياس بن معاوية أنه قال لأبيه، وهو طفل، وكان أبوه يؤثر أخاه عليه:

يا أبت تعلم ما مثلي ومثل أخي معك إلا أنا كفرخ الحمام، أقبح ما يكون أصغر ما يكون؛ وكلما كبر ازداد ملاحة وحسناً؛ فتُبنى له العلالي، وتتخذ له المربعات، وتستحسنه الملوك؛ ومثل أخي مثل الجحش الصغير، أملح ما يكون أصغر ما يكون، وكلما كبر قبح، وصار إلى القهقرى، إنما يصلح لحمل الزبل والتراب». (١)

لقد أحسن إياس، وهو طفل، أن يبسط أمره وأمر أخيه، أمام والده، ويقال في نص آخر، أن والده،

---

(١) سراج الملوك: ٢١٣.

اقتنع بما قال، وغيّر معاملته لإياس؛ وأكثر التأثير، وأقوى وسائل الإقناع تلك التي ترسم بصورة حسية، يكاد المرء يراها جسماً وروحاً، تتحرك أمامه؛ فصورة فرخ الحمام، وهو مليء بالزغب، عاري الجسم، ضخم المنقار، أصلع الرأس؛ ثم تختلف الصورة، فيما بعد، إلى طائر جميل، مكسو بالريش الزاهي، خفيف الحركة، أنيق التحرك في الالتفات، جذاب الطيران والوقوع، له صوت مطرب، وغزل مدهش؛ هذه الصورة بشقيها لابد أن ترسخ في الذهن، فتستجيب الروح لما رمى إليه راسمها؛ ومثلها صورة الجحش المليح بحركاته، وسكناته، يغاير في موقعه عن شمال أمه، ويمينها، يمشي تارة، ويقفز أخرى، رأسه مرفوع، وأعضاؤه متناسقة؛ ثم لا يلبث أن يتغير بعض هذا، ويكون مآله حمل الأوساخ!

وضياء الفكر، ونضج العقل، وصفاء الذهن تتمثل في النص التالي، وهو نص نادر في تبرير الأمر

وضده، وتسويغ الأمر وخلافه؛ ولكن الحجة، التي عضدت هذا التصرف، كانت مضيئة، يدخل إشعاعها إلى أقصى أركان العقل، ويستقر فيه، ولا غرو فالرجال أكفياء، والحقل نبيل، والهدف سام، والقصد شريف، والمنهج المتبع سليم، والخطة متقنة، فإذا تجمعت هذه الفضائل كلها، فمن أين يأتي الخطل؟

والقصة هكذا:

«استشار زياد بن عبيدالله الحارثي عبيدالله بن عمر في أخيه أبي بكر، أن يوليه القضاء، فأشار؛ فبعث إلى أبي بكر، فامتنع عليه؛ فبعث زياد إلى عبيدالله، يستعين به على أبي بكر؛ فقال أبو بكر لعبيد الله:

أنشدك الله أترى لي القضاء؟

قال: اللهم لا.

فقال زياد: سبحان الله! استشرتك، فأشرت به، ثم اسمعك تنهاه!

فقال: أيها الأمير، استشرتني، فاجتهدت لك الرأي، ونصحتك، ونصحت للمسلمين، واستشارني،

فاجتهدت له رأيي، ونصحته» . [1]

موقف عبيدالله بن عمر يختلف عما سبق أن مر بنا في قصة سلم بن زياد مع طلحة الخزاعي، فعبدالله ألبس كل حالة لباسها، ولم يخلط لباس هذه بتلك، إن عبيدالله بن عمر صدق مع نفسه في كلا الحالتين، نصح حاكمه، لخير المسلمين، وهذا هو المطلوب منه؛ ونصح أخاه بما هو في صالحه، إذا كانت الاستشارة لذلك؛ لقد كان عبيدالله أميناً على الرأي، من منطلق تقديره للموقف من جميع جوانبه، ولم يخلط بين أطراف الأمر، وكان دقيقاً في مروره بالحدود بين الرجلين.

ونضج الفكر يأتي في أحد أوجهه من باب الرجولة، ونضجها عند بعض الناس، الذين لهم مكانتهم في المجتمع، لأصلهم، أو لعلمهم، أو لشجاعتهم، أو لميزة جعلت رؤوسهم تعلو الرؤوس، وتطل من عال، بطريقة مقدرة؛ وهذا الفرزدق من بين من له اسمه في مجتمعه، لموقعه من قومه، ولمقام شعره في

---

(١) سراج الملوك: ٢٤٦.

مجتمعه، يهاجم بشعره أميراً، اعتبر هجومه عليه أداة لإصلاح ما يرى أنه يحتاج إلى إصلاح؛ فلما سجن هذا الأمير القائد، مدحه الشاعر بما يعرفه عنه، إذ لم يعد الحال حال هجو، وإنما هو موقف مدح، وتبيان ناصع الأعمال، وفاء للحقيقة، وسيراً على ما تقتضيه أصول الرجولة، والوفاء للعدل؛ وهذه هي القصة:

«كان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة، فلما سجن، وثقب له السجن، وسار هو وابنه، تحت الأرض قال:

وَلَمَّا رَأَيْتَ الأَرْضَ قَدْ سُدَّ ظَهْرُهَا
وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ بَطْنُهَا لَكَ مَخْرَجَا
دَعَوْتَ الَّذِيْ نَادَاهُ يُوْنُسُ بَعْدَمَا
ثَوَى فِيْ ثَلاَثٍ مُظْلِمَاتٍ فَفَرَّجَا»(١)

هذه بعض النصوص التي لمست جوانب متعددة عن الفكر ونضجه، وهي، مثل غيرها من النصوص في المجالات المختلفة، قليل من كثير، مما تزخرُ به

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٦٣.

كتب التراث: أدبها وتاريخها؛ ولا يطفئ ظمأ العطشان منها، إلا ورود حوضها، والعبّ من نميرها، وما هذه النصوص إلا استطعام لما هناك.

❊ ❊ ❊

نور الأقوال[1]

للأقوال نور يشع، أو ظلمة تدلهم، وللأقوال ابتسام ولها تجهم، والقول المنير غير القول المظلم، فالقول المنير إذا نُطق به أنار النفوس، وأبهج الصدور، والقول المظلم إذا قيل أنزل العتمة على النفوس، والضيق على الصدور؛ هذان أمران أحدهما ضد للآخر، وعدو له، لا يساكنه، ولا يعايشه، متى حل هذا في مكان، أبعد الآخر عن المكان، فهما لا يجتمعان بطبيعتهما؛ والسعيد من الناس من اختار المبهج، وتحاشى المتجهم المحزن.

والقول المنير يحمل السعادة، يشيعها في المحيط الذي يحله، فهو رسول سلام نشط، يجد قبولاً حتى من أقسى القلوب، فكم من قلب ألانه، وكم من قلب غافل أيقظه، وكم من قلب حاقد غسله بماء الحب، فطهره من درن الكره، وكم من غضبان

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٦٩٧) في ١٠/ ٧/ ١٤١٦هـ الموافق: ٢/ ١٢/ ١٩٩٥م.

صَبَّ على مُتَأَجِّجِ نارِهِ ذَنُوباً، ينزل على النفس برداً وسلاماً.

والمرء أمامه الطريقان يختار من بينهما ما يختار، إن هداه الله إلى النور قصده، وإن لم يهده ذهب في الطريق الآخر، وطريق النور موصل، ليس فيه عقبات، وليس فيه معوقات، لأنه واضح جلي، وطريق الظلمة مُضيع، لا يدري المرء فيه متى يعثر بالعقبة الكأداء، تقف في طريقه، فتسد عليه دربه، وتتلف وسيلة سفره.

وللقول المنير ظاهر وباطن، وله قرب وبعد، وله وجه وعمق، وفي هذه الأمور يختلف الناس في الدرجات، ويمتاز أحدهم على الآخر، في نظرته وعمقها، ومدى التوغل فيها، والغوص على الدرر فيها، وكلما زاد صاحبها في العمق خلدت الكلمة، وبقي القول، وأصبح حكمة أو مثلاً، يستعيرها اللاحق من السابق، ويستشهد بها جيل عن جيل. وتزيد السعادة عندما يتبع القولَ المنير قولٌ آخر منير

مثله، ثم عمل منير أيضاً.

ولا يتبين النور أحياناً إلا عند مقارنته بالظلمة، فالقول المنير لا يُعرف فضله أحياناً، ولا يُعطى حقه من الاعتراف والامتنان، إلا إذا قورن بضده، وَوُزِن بما يخالفه، ويعاديه، وينافره، وبقدر ما يكون الإثنان متباعدين يتبين الفضل، وترجح الكفة.

والقول المنير يكاد يكون ثابتاً في الحكمة، لأنها عصارة تجربة، وطرح فكر، ولا يغلب الذي جاء نتيجة لهما أي قول، ولا يبزه أي تعبير، فإذا كان الفكر يأتي بالنظرية كَوَّنَهَا التفكر والتدبر، وشذبتها الثقافة المختزنة، فإن التجربة اختبار عملي، يبين ما قد نسيه الفكر، أو لم يخطر على بال، أو يوضح جانباً استهين به، أو اتجاهاً استبعد وقوعه، فالتجربة ترقع ما في النظرية من خرق، وتكمل ما يأتي فيها من نقص؛ وتؤكد ما لم يكن مؤكداً، وتزرع الثقة مكان الشك.

والأقوال نورها في صدقها، وقد يأتي القول مفاجئاً

للسامع، إذ أن ما في ذهنه بعيد عما سمعه، لأنه سار في الطريق المعتاد أو ركز في التفكير على مصلحته، فجاء القول موقظاً له، ومنبّها إلى اعتقاد ليس هو الأسمى، ولا هو العادل في احقاق الحق بين الفريقين: المتكلم والسامع. والمفاجأة في هذا الأمر تأتي مذهلة، لما بين الذهنين من تفاوت، وما يفصل بينهما من فجوة.

وقد يسير الإنسان في طريق مظلم، لا يرى الخير فيه، ويعتاد على خلافه، ويستمرئ الشر، ويألف الأذى، وتحيط به أفاعي الظلال، وتروضه، ويروضها، ويصبح بهلواناً، يتمتع بما ينفر منه الناس، ويألف ما تمجه الأذواق، ثم فجأة يسطع نور مشع على سردابه المظلم، فيرى ما سبق أن عشيت عينه عنه، ويبصر ما لم يره بصره من قبل، ويتبين له الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والمريح من المؤلم، فيصحو بعد غفلة، ويعود إلى صوابه بعد سدرة، فيقلع ممتناً عن عاداته السيئة، وأعماله المنتقدة،

وينتقل بذهنه من صحراء مقفرة إلى روض زاهر، ومن رمضاء الجفوة، إلى ظل دوحة الوصل، والقصة الآتية تعطي صورة لما ذكرناه:

«كان أبو الطيب الطاهري يهجو بني ساسان، ويمزق أعراضهم، ودخل إلى نصر مسلماً، فقال له نصر:

يا أبا الطيب، حتى متى تأكل خبزك بلحوم الناس؟

فسُقط في يديه، وأُمسك بلسانه؛ ونصرٌ يضحك في وجهه.

فقبل الأرض، وقام يجر ذيله خجلاً؛ وحين وصل إلى منزله تصدق بمال، وتاب من الهجاء توبة نصوحاً، ولم يعد إلى عادته.

فتعجب الناس من كرم نَصْرٍ، وظرفه، وتصوّبه من استعصار مثله، وكف عادية لسانه بتلك اللفظة» .(١)

تلك اللفظة أثرت لأنها تحمل الإشعاع الساحر، الذي اخترق سجف البغضاء، ووصل إلى سويداء

(١) لطائف اللطف: ٤٩.

القلب، فأيقظ فيها كوامن الخير، واستخرج خوافي السماحة؛ هذه اللفظة كانت شحنة من النية الصادقة، والرغبة في بث الإخاء، والقضاء على الفرقة، وقطع أسباب الحقد؛ أصابت الهدف، وجاءت بالنتيجة المطلوبة؛ وهي بذرة خيرة، وقعت على أرضٍ وجهها سبخة، ولأنها تربة حرة، فما أن توغلت البذرة حتى أنبتت نباتاً حسناً.

إن نصراً جمع أسباب النجاح في موقفه هذا، فلم يقدم الماء الزلال في كأس مزرية، أو إناء منفر، بل قدمه في حاوٍ جذاب، فقد أعطى النصيحة وهو باسم، والإبتسامة لا تخلو من نغمة الاستجداء المبهم، والاستجداء من الأعلى إلى الأدنى سلاح قاتل لعامل الرفض أو التأبي، ولهذا نجحت هذه اللفظة في تغيير منهج متأصل، ومحو جادة حفرتها الأقدام.

ويضيء القول عندما يأتي راداً للمرء إلى جادة الصواب، إذا ما حاد عن طريق الدين الصحيح؛ وفائدة مثل هذا القول عظيمة، لأنها تصحح خطأً،

وتُحيي أثراً نبيلاً، وتوقظ ذهناً غافلاً، وتُعوِّد الناس على الرجوع إلى مصادر الدين، وفيه نظام حياتهم المتقن، فلا تجرفهم الحياة بعاداتها الطارئة، وتقاليدها المكتسبة، وإذا ما سلك الناس طريق الأصمعي، كما في القصة الآتية، وثابروا عليه، وأخذوا أنفسهم به، وعودوا من حولهم عليه، وتعهد من له الولاية عليهم بما فيه من علم وتنظيم، سعد المجتمع، واستقام حاله:

«استقرض جار الأصمعي منه دريهمات، فقال له:

أين الرهن؟

قال: ألست واثقاً مني؟

قال: بلى، وهذا خليل الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان واثقاً بربه، حيث قال: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾(1).

والإنسان ـ إلا من رحم ربنا ـ يغفل عن فعله،

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠، لطائف اللطف: ٧٦.

ويهتم بأفعال الناس، ويرى فيهم من العيوب ما لو تبصر في نفسه لوجد فيها مثل ما فيهم، أو أكثر؛ ولكن المنظار عنده مسلط عليهم، وهو خلفه لا يرى إلا من سلطه عليه، ولو التفت إلى نفسه لقبل منهم ما ارتضاه لنفسه، أو لأقلع عما هو فيه، لأنه رأى في فعلهم البشاعة التي يتوقع أن تحفزه للإقلاع.

وحب النفس جبلة في الإنسان، أوجدها الله ـ سبحانه وتعالى ـ حفظاً للجنس ووجوده، وعمران الكون، وأوجد ـ سبحانه وتعالى ـ وسائل لتهذيب هذه الجبلة، فلا تترك دون لجام يبقيها في حدود ما ينفع الإنسان، ويدفع عنه الأذى، والانحراف.

والأديان من أولى الأسباب التي هذبت طبائع البشر، وشذبت أخلاقهم، فلم تتركهم يسيرون سدى، ويتصرفون عبثاً؛ نقلت الأديانُ الناسَ من مركز التوحش إلى مركز الحضارة؛ فإذا ضعف الدين، وغلبت الشهوات، وضعف الوازع، قواه الله بارسال رسول جديد، وكان خاتم النبيين نبينا محمد ﷺ

وجاءت شريعته خاتمة لكل الشرائع، وصالحة لكل زمان آت، وجُعل في تعاليمها ما يبقي عليها قوتها، وصمودها.

ومن القصص التي تروى عمن يرى عيوب الناس، والعيب فيه، ويتبع الناس بما لا يرضاه منهم، وينسى نفسه، وهي أولى بالالتفات، والمحاسبة، القصة الآتية:

«لقي أبو العيناء ابن مقلة سحراً، فعجب من بكوره، فقال:

يا عجباً! شاركني في الفعل، وانفرد في التعجب».[1]

لو أن أبا العيناء لم يتعود الخروج سحراً، وابن مقلة هذه عادته، لما كان في الأمر عجباً، ولكن يبدو أن الإثنين لم يكن من عادتهما السهر خارج البيت، أو الاستيقاظ مبكراً، ولهذا استوجب الأمر التعجب. وأبو العيناء حاد الطبع، حاد الذكاء، لأقواله لذع، وفي تعبيراته خشونة، وهو في الغالب لا يبدأ الناس

(١) لطائف اللطف: ٧٩.

بالشر، ولكنهم مغرمون بمداعبته، واستفزازه، فكان يكيل لهم الصاع صاعين، وببديهة حاضرة، وقلب يقظ، ولسان ذرب، يساعده في هذا ثقافة واسعة، وعلم وافر.

وقد تكون هذه الأوصاف سبباً في تركيب بعض القصص الطريفة الحادة عليه، فهو خير مشجب، تعلق عليه القصص، والإجابات الذكية، التي تطرأ على ذهن بعض الأدباء، والمفكرين.

والحكماء والمجربون خير من تأتي منهم الإضاءات المشعة، وفيها من الأفكار الصائبة، ما يصيب كبد الحقيقة، والأطباء في عصر الجاهلية، والعهود الإسلامية الأولى عرفوا بالحكمة، بل إنهم سموا بالحكماء؛ وتأتي منهم أقوال في حقل علمهم، أغرت بصدقها من سمعها بتسجيلها، والمحافظة عليها بالنقل والمتابعة؛ وإذا كان الطبيب يأتي في مقدمة عمله معالجة الأجسام، فأمراض الأجسام تأتي أحياناً من أمراض الروح، ولهذا استوجب أن يكون لهم

رأي في أمراض الروح، والتحذير منها، لاجتنابها، وتوقي حدوثها، ومعرفة أسبابها، وما يؤدي إليها؛ ومعالجة الروح في أول الأمر، أو الإرشاد إلى ما يوصل إليها، فيه حماية للجسد من أمراض تنجم من إهمال هذا الجانب، وإذا كنا اليوم في الطب الحديث نتحدث عن الأمراض النفسية، ونؤلف فيها مجلدات ضخمة، تعالج أمرها، فقد تنبهوا لهذا قبلنا، واتخذوا كلمة «الروح» في زمنهم بدل «النفس» في زمننا.

ومن أقوالهم في هذا القولُ الآتي:

«قال بختيشوع بن جبريل للمأمون في كلام جرى بينهما:

يا أمير المؤمنين، لا تجالس الثقلاء، فإن مجالسة الثقلاء حّمى الروح».[1]

لم يُسمَّ الثقيل ثقيلاً لضخامة جسمه، وبناء الشحم عليه، فكم سمين خفيف الظل، بل إن بعض من كساهم الله شحماً يكونون خفيفي الظل، دائمي

---

(١) لطائف اللطف: ٩٤.

البسمة، فإذا ما أجهدوا أنفسهم، وأنزلوا وزنهم، تغشتهم غمامة من الهدوء الممل، والسكون المحزن، فثقل مجلسهم بعد خف، ونفروا بعد أن كانوا جاذبين.

فالثقيل من تمل الجلوس معه، وثقل الروح عند بعض هؤلاء يأتي من كثرة كلامهم، وانعدام الزبدة فيه، وغفلتهم عن حق الآخرين في الكلام، وكأنه محرم على غيرهم، وغير محلل إلا لهم؛ يتنقلون من حديث إلى حديث، يكررون ما سبق أن قالوه في مجالس مختلفة، ولا يكاد أحدهم يفتح فمه بالقول حتى يعرف جلساؤه ما سوف يقوله، لأنهم سمعوه منه مرات ومرات.

والثقيل أحياناً هو الإنسان الذي يأتي بالقول أعوجاً، فيقول في مجلس ما لا يتلاءم معه، فإن كان مجلس عزاء فقوله يأتي أقرب إلى التهنئة، أو التشفي، وإن كان يوم عيد، أو يوم عرس، فإنه يأتي منه ما لا يُتفاءل به من تحذير مقتسر، وتنفير مبتسر؛ يدير الحديث إلى الموت، وإلى المصائب والحوادث، وقد لا يكون

قاصداً ولكنه ناقص الإدراك، ضعيف العقل، ولو كان له عقل لسكت، وأراح الناس.

وقد يكول الثّقل في طول المكث في المجلس، وأهله يرغبون من الناس الإنصراف، فلا يفهم التلميح، ولا يقتدي بمن خفف، وترك المجلس؛ وطول المكث في أي مكان زيادة عما هو متعارف عليه، وفي أي مناسبة، ثقل ما بعده ثقل.

ـ[1] وقلة الكلام مطلوبة، والحِكَمُ دائماً تحث عليها، ولا تعدم نصاً يقرنها بخفة الروح، وثقلها، والحِكَم إضاءات فكرية معتبرة، ومقدرة، تهدي الناس إلى أحسن العمل، وترشدهم إلى أفضل السبل للقول والعمل؛ لأن الحكم كما يحلو لنا أن نقول ونكرر عصارة التجارب، وطرح التبصر، والتدبر، والتفكر، وما يأتي عن هذه الطرق لابد أن يحمل في ثناياه كنوز البركة، والتوفيق، ويحاط بالقبول، ويكلل بالنجاح.
ومن الحكم المعتبرة القول الآتي:

---

(١) بدء الجزء المضاف إلى ما نشر في صحيفة «عكاظ».

«قال ثابت بن قرة:

راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة الروح في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام». [1]

من صفة الحِكَم أنها من السهل الممتنع، تسمعه فتقبله رأساً، دون تردد، وتجد فيه السهولة، وتلمس فيه القوة، وتظن أن بإمكانك أن تقول مثله، ولكنك عند المحاولة ترتطم بالحقيقة، وهي أنك لا تستطيع، لأن هذا القول منيع الجانب، محصن بسياج التجربة والبلاغة، وهما مفتاحان في يد الحكيم لا في يدك.

بعض هذه الحكم التي جاء بها ثابت بن قرة، في يد الإنسان أن يعمل بما ترمي إليه، ويتخلق بالخلق الذي أشارت إليه، فقلة الطعام يستطيع ذو العزم أن يعمل بها، وأن يحافظ على التعود عليها، ومتى فعل فإنه يحمد العاقبة، لما يلمسه في ذلك من نتيجة واضحة وسريعة.

---

(١) لطائف اللطف: ٩٦.

والآثام يستطيع الإنسان أن يتجنبها، خاصة الثقيل منها، المجحف في حق نفسه، وحق الآخرين، ومن استعان بالله، ثم تمسك بالدين، فإنه لابد ـ إن شاء الله ـ واصل بغيته، نائل مقصوده، ومع تذوق طعم الراحة عند تجنب ارتكاب أول إثم، فإن الإنسان يستمرئ هذه الراحة، ويطلبها، ويتمسك بها، ومع مقاومة كل إثم تزداد مناعته، وتقوى مقاومته، وتربو راحته.

وراحة اللسان لا يستحيل على الإنسان الجاد، ذي الإرادة القوية، والعزم الأكيد، أن يحقق النصر فيها، والتغلب على لسانه، ولجمه عن الكلام بلجام قوي، يمسكه بيد حازمة قوية.

والأمر الصعب بين هذه الحكم هو راحة القلب، والبعد به عن الهموم، فما دام الإنسان حيّاً، فلابد من الهموم، ولابد من مكابدة غيومها، والجهد في تفتيت ما يتجمع منها؛ فهموم البدن في نزول العلل به، وهموم العمل ما يطرأ فيه من مشاكل، وما يعترض

ساحته من عقبات، وتربية الأبناء فيها من الهموم أنواع، تختلف باختلاف سنهم، وما يحيط بهم من أصدقاء، وما يعترض طريقهم من مغريات، وهموم الأولاد في جانب، وهموم البنات في جانب آخر؛ وفي بقاء الإنسان عازباً هموم، وفي زواجه هموم؛ وفي إقامته هموم، وفي سفره هموم؛ إن كان موظفاً فله همومه، وإن كان تاجراً فله همومه، وإن كان عاملاً فله همومه؛ في الشباب هموم، وفي المشيب هموم، في الفقر هموم، وفي الغنى هموم؛ في الصيف هموم، وفي الشتاء هموم، وفيما بينهما هموم، اليوم له همه، والشهر له همه، والسنة لها همها؛ إن ملكت بيتاً فللبيت هموم، وإن لم تملك واستأجرت، فللإيجار هموم؛ إن ملكت أداة ركوب فلها همها، وإن فقدتها حل مع فقدها هموم.

والهم يكبر مع كبر موجبه، ولكنه لا يصغر مع صغره، الهم يحتل الحيز المخصص للهم في الذهن، صغرت المشكلة أو كبرت، تجد صاحب الهم قلقاً،

صامتاً، ولا يستقر له قرار، وإن تظاهر بأنه لا يبالي، فلا يصدق؛ فهو كما يقول العامة: يأكل بعضه من الداخل، والنار في جوفه متقدة.

فالهم لا يتقى إلا بالإيمان بالله، فهو القادر على رفع الهم عن عبده، كبر الهم أو صغر، ومن اتكل عليه بنية صادقة، وأسلم له وجهه احتساباً، وطلباً للعون، فالله قريب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

وتلمع الإضاءة في القول الحسن، والفكر الصائب، الذي جاء بعد تأنٍ، وتبصر، ونظر عميق في الأمور، ودراسة لها، ومتابعة لحدوثها، ولتكرّرِ سيرها، ولمعاودة طَرْقها، وقد جاء هذا في نص روي هكذا عن الرضى أبي الحسن الموسوي النقيب:

«كان يقول الرضى أبو الحسن الموسوي النقيب:

من هوان الدنيا على الله تعالى أن أخرج نفائسها من خسائسها، وأطايبها من خبائثها؛ فأخرج الذهب والفضة من حجارة، والمسك من فارة، والعنبر من روث دابة، والعسل من ذبابة، والخز من كلبة،

والديباج من دودة، والقصب من حشيشة، والإنسان من نطفة، فتبارك الله أحسن الخالقين» .[1]

هذه إلتفاتة ذكية من أبي الحسن، جمع فيها من النَّفائس عدداً، وهي نفائس يتدافع إليها الناس بالمناكب، وإذا حصلوا عليها عَدُّوا أنفسهم ربحوا في جهدهم لنيلها، وهي تلمس حياة الناس، ومتعتهم فيها، فبعضها يلمس غذاءهم، وبعضها يلمس كساءهم، ويلبي طلبهم للزينة والحلية، والإنسان نفسه، وقيمته في نفسه، عد من النفائس، ثم رد كل شيء نفيس إلى أصل وضيع إلى حد ما، ليصل في نهاية الأمر إلى العبرة التي وصل إليها، وإلى العظة التي استنتجها، وكأنه يقول لابن آدم: لا يغرنك ما أنت فيه، فهذا أصلك، وهذه متعتك، ولا مجد إلا لله رب العالمين.

والعظة تبلغ غايتها، وتأتي بالقصد، إذا صيغت صياغة حسنة مثل هذه الصياغة، وما تحمله من

---

(١) لطائف اللطف: ١٢٠.

إقناع، أو رسمت لها صورة مجسمة، تأتي بما يشد، ويهز، مثل العظة التي ساقها أحد الصالحين لهارون الرشيد، عندما طلب منه أن يعظه، ولعل هارون الرشيد - رحمه الله - بعد أن أكل أطيب الطعام، ولبس أحسن اللباس، ووصلته عن البلدان، والثغور أجمل الأخبار، وجسمه معافى، وذهنه هانئ، شعر بشيء من الزهو، فخاف من الله، وأراد أن يبعد هذا الإحساس من نفسه، ويطرد من صدره هذا الشعور الدنيوي المخرب، فالتجأ إلى رجل بعيد عن الدنيا؛ متقرب من ربه. قال لهذا الصالح: عظني:

قال له ما معناه: يا أمير المؤمنين، لا تغرنك الدنيا التي أنت فيها، فهي لا تساوي شيئاً، هذا ملكك، أعز شيء عليك، تفديه بمالك وولدك.

هبك عطشت، فمنعت الماء، فبكم تشتري شربة ماء، والثمن له من أعز ما عليك.

قال: بنصف ملكي.

قال: هبك شربت، ثم احتجت إلى التخلص مما

شربت، واشتُرِطَ عليك ثمن لهذا غال، فبكم تشتري التخلص من البول.

قال: بالنصف الثاني.

قال: ما أرخص ملكاً يباع نصفه بشربة ماء، والنصف الآخر ببولة.

فبكى هارون الرشيد، حتى خشي عليه».

قد تكون هذه القصة رمزية، ولم تحدث، ولكن الصورة التي رسمتها مرعبة، والعظة بها، ومعها، لابد أن تصل الهدف، وتأتي بالثمرة.

وكنا تحدثنا عن الحكماء في الجاهلية، وعن الآراء المضيئة التي تأتي منهم، خاصة بأمور البدن وصحته، نتيجة التجربة، والتبصر، ومن أشهر هؤلاء الحارث ابن كلدة، وإليه ينسب المؤرخون كثيراً من حكم الطب، ويبدو أنه كان معروفاً عند العرب، تحج إليه الركبان، ويقصده طالبوا الصحة، والباحثون عن العافية، وهذا أحد أقواله المضيئة، تضاف إلى ما سبق أن ذكرناه عن الطبيب بختيشوع:

«سئل الحارث بن كلدة طبيب العرب:
ما الدواء الذي لا داء فيه؟
قال: هو ألا يدخل بطنك طعام وفيه طعام» .[1]

هذه الحكمة أصبحت اليوم في الطب الحديث من الأمور البدهية، لقد سلم بها الخاص والعام، ولم يبق تجاهها إلا قوة الإرادة لدى الإنسان إن شاء عمل بها، فأفاد نفسه، أو خالفها، وضر نفسه، طائعاً لهواه، مختاراً المرض على الصحة؛ وما أكثر من يخالفها اليوم، ولا يلقي لها بالاً، رغم إيمانه بصحتها، وتسليمه بفائدتها، ولكنها لذة الأكل الطاغية، التي لا تجعل لديه القوة للمقاومة، والصد عما هو لذيذ وضار، والالتفات إلى ما هو نافع، ويحتاج إلى عزم وإرادة.

والكلمة المضيئة لها مواطن، يزيد إشعاعها فيها كلما كانت صلتها بأمر عظيم، ونتائجه خطيرة، فإذا جاءت وردت أذى كثيراً، وأوقفت مصيبة جانحة، ونكبة جارفة، كان ضوؤها أكثر لمعاناً، ونورها

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٨٧.

أقوى إشعاعاً، والكلمة المضيئة يبسم ثغرها عندما تقال عند حاكم، كان على وشك أن يبطش بمن قد يكون مستحقاً، فتحل العفو محل البطش، والإكرام بدل العقاب وتدخل الحاكم في نطاق الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] .

فهذه الكلمة المشعة تقف في طريق صخرة عاتية، كادت تنزل بصاحب الذنب، فجاءت هذه الكلمة الرقيقة فغلبت صلابة الغضب، وهذه الكلمة الهادئة مسحت بيدها الرقيقة جانحة الغضب، وقلبت العاصفة إلى برد وسلام؛ ولهذا يكرر خطباء الجمعة قولهم في دعائهم لأي حاكم: اللهم ارزقه البطانة الصالحة، وهناك قصة تصف واقعة من هذا النوع:

«طلب عبدالملك بن مروان رجلاً، فأعجزه، ثم ظفر به، فقال رجاء بن حيوة:

يا أمير المؤمنين، قد صنع الله ما أحببت من ظفرك

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

به، فأصنع ما أحب الله من عفوك عنه» .[1]

هذه الكلمات الصادقة لابسها النور، وغمرها الإشعاع من المقارنة الموفقة بين ما أعطاه الله لعبده، عند اشتداد الأمر عليه، وما أصبح حقاً لله على العبد في أن يرحم عباده، فيغفر الزلة، ويتغاضى عن الذنب، فينيل عبد الله المذنب المخطئ ما أناله الله له في أن أظفره به، ليأمن شره، ويتقي استمرار عصيانه، ومعاداته.

وابن حيوة القاضي شجاع إذ نطق بهذا في موقف صعب مثل هذا، فلم يهب الخليفة في هذه اللحظة الحرجة، ووقف أمام الصخرة المنحدرة؛ لأنه كان على يقين أنه كان يعطي مجلس الخليفة حقه، وهو مجلس يستوجب النصح، وحسن الإشارة، ولم يذكر في هذه اللحظة الرهيبة إلا هذا، فأقدم على هذا القول تحدوه نية حسنة، وتقوده منفعة الخليفة، وأحد رعية الخليفة؛ ورجاء بن حيوة يسن سنة حسنة لمن حوله

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧١.

في الإقدام على الحق، بأدب جم، ومنطق سليم، لأن أدب المخاطبة يخفي ما قد يكون في الطلب من صعوبة، فيمهد الطريق للقبول، في حين أن خلافه يزيد النار اشتعالاً، واللهب اضطراماً، وبهذا تدرج العجلة بقوة لا يستطيع أقوى الناس منطقاً، وأكثرهم شجاعة أن يوقفها، أو يقترب منها.

والعذر الذي تحمله الكلمات المضيئة لابد أن يجد القبول من العاقل المنصف، لأنه لا سوي يرفض النور، ويفضل الظلمة، ومن الكلمات ما يفتت الصخور، ويدني البعيد، ويرفع المتدني، ولهذا قيل عن بعض الأقوال: إن من البيان لسحراً. ولين الكلمات غذاء ينورها، واللين لا يأتي منه إلا خير، لأن فيه روح المسايرة، والإقرار بالحقوق، والإيحاء بأن ما يطلب إنما هو تفضل، ولا يخلو اللين من نغمة الرجاء، والاستعطاف، وهو إن لم يأت بكل شيء، فهو يأتي ببعض شيء، أو على الأقل يوقف المزيد من المكروه. وهذه قصة تبين ذلك:

«إعتذر رجل إلى الهادي، فقال:

يا أمير المؤمنين، إقراري بما ذكرتَ يوجب عليّ ذنباً لم أجْنِه، وردِّي عليك لا أقدم عليه، لما فيه من التكذيب لك، ولكني أقول:

فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو فِي ٱلْعُقُوبَةِ رَاحَةً
فَلاَ تَزْهَدَنْ عِنْدَ الُمعَافَاةِ فِي الأَجْرِ»[1]

هذا الرجل بلين وتعطف أوصد الأبواب أمام العقوبة، ولم يدع للهادي مجالاً لها، فقد قلب الأمر على وجهيه، وجاء هو الكاسب في كليهما، بحسن عبارة، وقوة حجة؛ فهو لا يريد أن يقر بذنب لم يرتكبه، لأن هذا كذب، وهو لا يرضى على نفسه الكذب، ولا يريد أن يرد على الخليفة بإنكار الذنب الذي اتهمه به، وأكده، لأن الرد على الخليفة تكذيب له، وهذا سوء أدب، وهو لا يريد أن يسيء الأدب مع الخليفة، أما وقد أوصد الأبواب كلها، فعليه أن يعطي الخليفة مخرجاً مشرفاً نبيلاً، وقد وجد أنه يتوافر

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٢.

في العفو، ففي العفو أجر عند الله عظيم، وهو أفضل من الراحة التي سوف يجدها الخليفة في العقوبة.

من لا يلين قلبه لمثل هذا؟ عقل رزين، وحجة قوية، وأدب جم، ولين في القول، وتعطف في اللهجة، وعظة بالغة، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، بألفاظ منيرة، وقول حسن، وعدل وانصاف، وذكاء فذ في إيجاد المخرج، والوصول بالسفينة المضطربة إلى بر السلام!

وتبرق كلمة يقولها الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وتشع نوراً، تضاء منه البيوت، وتستقر حياة زوجين، وأكثر من زوجين، وهي كلمة خرجت من العمق، قفزت بعنف من صدر عمر، لهول المفاجأة التي سمع كلماتها تأتي من رجل في موقف أراد فيه أن ينفصل عن زوجته، بحجة أدهشت عمر، وجلجلت كيانهُ، فنطق بالحكمة فيما نطق، فأضاءت الكلمات في قوله، وأنارت السبيل للمسترشد في هذا الأمر والقصة هكذا:

«قال عمر لرجل همّ بطلاق امرأته:

لم تطلقها؟

قال: لا أحبها.

فقال عمر: أوكل البيوت بنيت على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم». [1]

وتصدق صورة رسمها أحدهم، فيضيء منها الحق، وتأتي وافية في مدلولها، تصف عملاً وصفاً دقيقاً، وتحمل في ثناياها عظة، مغلفة بغلاف شفاف، قد يأخذ بها من عني بها، ومن تبصر بها، فيثأر لكرامته من فعل ما يجرحها، ويبعد نفسه عما تكون قوى الإنسان العقلية تسمح له بإدراك عمقها، أما وقد سمعها في وعيه الكامل، فأحر به أن يرفع نفسه عن مواقع الذلة، والاستهانة، والقول جاء هكذا:

«كان سيف الدولة علي بن عبدالله بن حمدان يقول:

الصاحي بين السُّكارى كالحي بين الأموات،

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٩.

يضحك من فعلهم، ويأكل من نُقلهم»[1].

إن الصاحي لا يفوته النُّقل الذي يقدمونه بين يدي شرابهم، ولكنه لا يشرب معهم، فيبقى صاحياً وهم سُكارى، فيسمع ما يقولونه من أقوال يضحكه معناها، أو أسلوبها، لأن قائلها السكران ليس في كمال عقله، خاصة إذا أكثر من الشرب، فأثر على عقله، وشل بعض أجزاء تفكيره، فأراه الأمور على غير حقيقتها؛ وقد يأتي بالقول معاداً عدة مرات حتى يمل السامع، وهو لا يدرك خطأه؛ ومن أسوأ ما يأتي من السكران إفشاؤه للسر، أياً كان نوعه، فقد يفشي سراً عائلياً، وقد يبدي عن أخبار عمله ما يستوجب الأمر عدم إعلانه، وقد يكشف سراً عن تجارته، يعود عليه بالخسارة؛ وحالته العقلية لا تسعفه بالنظرة الصائبة تجاه ما ينطق به من الألفاظ، تبدي ما في مكنونه من آراء، ولهذا سميت الخمر أم الكبائر، لأنها تعطل العقل، ومتى شل العقل،

---

(١) لطائف اللطف: ٥١.

تصرف الجسم بما لا يحده حد، ولا يتنبأ به متنبئ.

ويرفع النبي ﷺ قوله:

«أقيلوا ذوي الهيئات زلاتهم».

والقول فيه حكمة مستورة، فليس القصد ـ صح الحديث أو لم يصح ـ محاباة ذوي الهيئات، ومعاملتهم خلافاً للناس لهيئاتهم، لكن هؤلاء الناس حريصون على سمعتهم، كما هي عادتهم، وعلى الابتعاد عن الشبهات، وإبقاء اسمهم بعيداً عن القيل والقال، وهم عمد المجتمع، فإذا زل أحدهم فإن زلته في الغالب لم تحدث إلا بعد مقاومة لها، أو نتيجة تضليل وقع تحت طائلته؛ فلم يكن الخطأ ديدنه، ولم يكن سريعاً إليه، مثل من لا يهمه أمر اسمه، وهو مغمور لا يهزه العقاب؛ بينما يهم العقاب ذي الهيئة، لأنه يلمس مكانه في المجتمع، ويخزيه مع أقربائه المحترمين، ولعل هذا ما جعل الحجاج يعفو عن الشعبي في زلته في خروجه عليه مع من خرج، لأنه لم يكن من سائر الناس، وكان عالماً، له قيمته في

المجتمع، ولكنه استخف به، وغابت ملكة الإدراك عنده، في وقت كان عليه أن يختار بين الخليفة ورجاله، والخارجين ومن معهم.[1]

ونعود إلى الكلمات المضيئة تقال في مجلس حاكم غاضب، فتطفئ لهيب غضبه، وترضيه بعد سخطه، والتاريخ مليء بأمثال هذه المواقف، ومن نعم الله على الحاكم أن يكون من حوله أهل جرأة وأدب، يبذلون الجهد في أن لا يخدش ذمتهُ أي فعل يأتيه وقت فورة الغضب، ويختارون الكلمات اللينة، والأفكار المقنعة التي تصلح لمثل هذا الموقف المتشدد، ويمشون في طريق إقناعه كمن يمشي على الشوك، الوطء خفيف، والحركة متقنة.

وأبو المنصور - الخليفة العباسي الثاني - رويت له مواقف متعددة في هذا المجال، ولعل تعددها جاء بسبب بدء الدولة، وحاجتها في أول تأسيسها إلى الحزم والشدة؛ فالخليفة حذر أن تقل مهابة الدولة،

---

(١) انظر موقف اعتذار الشعبي للحجاج في المنتقى: ٧١، وعيون الأخبار: ١/ ١٨١.

وهي لا تزال غضه، ويريد أن يحميها من الهزات، التي قد تأتي إحداها مزلزلة، وتكون الظروف مواتية لنجاحها؛ ولهذا فجانب الحزم والقوة يرجحان في مثل هذا الوقت، ولعل لمزاج الخليفة أيضاً دخل في الأمر، فقد يكون سريع الغضب، وقد عرف عن سريع الغضب سرعة خمود الغضب، وقد روي في هذا أقوال، ومنها:

«قيل للشعبي:

لأي شيء يكون السريع الغضب سريعَ الفيئة، ويكون بطيء الغضب بطيء الفيئة؟

قال: لأن الغضب كالنار، فأسرعها وقوداً، أسرعها خموداً».

وهذا الخبر أصح عن عبدالله بن حسن، حكاية عن كسرى، ذكره ابن عائشة القرشي التيمي عنه قال:

قيل لعبدالله بن حسن: ما بال الرجل الحديد أسرع رجعة من البطيء؟

فقال: سئل كسرى عن ذلك، فقال:

مثلهما مثل النار في الحطب، أسرعها وقوداً أسرعها خموداً.[1]

فإذا انطبق هذا القول على أبي جعفر المنصور، وتبين أنه سريع الغضب، فإن أي مجهود يبذل لعودته عنه يصبح مضمون العاقبة، مؤكد النتيجة، وهذا يشجع على محاولة تهدئته، والتماس الأقوال الملائمة للموقف الحاضر، ومن المواقف التي أقدم عليها مُقْدِمٌ مع المنصور الموقف الآتي:

«أراد المنصور خراب المدينة لإطباق أهلها على حربه مع محمد بن عبدالله بن حسن، فقال له جعفر ابن محمد:

يا أمير المؤمنين، إن سليمانَ أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف قدر فغفر، وقد جعلك الله من قبيل الذين يعفون، ويصفحون.

فطفئ غضبه، وسكت».[2]

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٦.

(٢) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٦.

لقد أحسن اختيار الدخول على نفس أبي جعفر، وعرف كيف يدير مزلاجها، ويلج إلى فسيح بهوها، فلقد ذكّرَ بمواقف فيها خير العبر، لأنبياء كانت صلتهم بالله قوية، وكان لهم مواقف فيها نبل وشرف ودين، وقد ذكَّرَه بأصله الزاكي، وألقى عليه إحياء ما لآبائه من سمعة وشرف، فحوصر أبو جعفر محاصرة رفيعة متقنة، جاءت مضيئة، فكانت نتيجتها مثلها بارقة مشعة، وجاءت من رجل له قيمته في المجتمع، لفضله ومقامه، فكانت أدعى للتقدير والقبول.

والقضاة في ذلك الزمن أهل صلاح وتقوى، لهم في مقام الحكام منزلة رفيعة، لفضلهم، وعلمهم، وصلاحهم، ولما يحملونه من أثقال عن الحكام، والخلفاء. ويشعر القضاة برسالتهم النبيلة، وثمن مجالستهم للخلفاء، فيؤدون للمجلس حقه، بالنصح والإرشاد، ولهذا لا يستغرب من أحدهم أن يبرز بقول صائب، في لحظة الحرج، فينقذ الخليفة، من

لهب الغضب، وعواقبه الوخيمة، ويأتيه من طرق موصلة إلى أعماق النفس، ولجج الضمير. وهذا أحد القضاة مع أبي جعفر المنصور نفسه، في موقف نصح، ولحظة غضب، دخل الخليفة لجته، فجاءه الإنقاذ على لسان القاضي سوّار هكذا:

«شهد سوّار القاضي مجلس أبي جعفر المنصور يوماً، فرآه قد غضب على أهل البصرة، فقال له:
يا أمير المؤمنين، لا تَغْضب لله بما يُغضب الله» .[1]

إنها كلمة مضيئة تلك التي نطق بها سوّار، أوقد شمعتها ما تحمله من حق، وما فيها من صدق، كلمة مختصرة، ولكنها تحمل معنى عظيماً، نبه الخليفة إلى ما قد يكون غفل عنه، فإذا كان غضب الخليفة على أهل البصرة لفعل مناف للدين فعلوه، فلا يكون العقاب مغضباً لله، فهذا غسل للدم بالدم، والعامة تقول قولاً قريباً من هذا: لا تدعُ على فلان بالموت، أماتك الله!

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٦.

ومن الكلمات المضيئة التي لا أنساها، لأني استفدت منها مباشرة بعد قولها، وقد رسخت في ذهني، وأصبحت استدعيها في كل مناسبة تحتاج إليها، وقد اختلطت فيها الحكمة بالمثل، فجاءت صافية الضياء، نقية الإشعاع، وذاكرة الصغير أقوى من ذاكرة الشيخ الكبير، فالكلمة لا يزال رنينها الجميل في أذني، ولا أزال أتصور المجلس الذي قيلت فيه، وهو «قهوة» بيتنا في عنيزة، والقصة كمايلي :

«عندما سافرنا أنا وأخي مع والدتنا من عنيزة إلى مكة، لنلحق بوالدنا هناك، حيث كان يعمل مديراً للمالية في مكة، اشتاق لنا جدي، فطلب من والدي أن نزوره في العطلة، فسافرنا إلى عنيزة، وكانت رحلة ممتعة، فلقد اشتقنا للداتنا هناك، وكانت فرصة لنا لنبهرهم بما رأيناه في مكة من تقدم حضاري، وما كنا نقصه عليهم عن عمران البيوت، وعن تعدد المدارس، ففي عنيزة لم يكن هناك إلا مدرسة نظامية واحدة حديثة لم تنشأ إلا عام (١٣٥٦هـ).

ومكة كما كنا نقص عليهم ملأى بالسيارات، في حين أن عنيزة لم يكن فيها سيارات، فإذا قدمت واحدة خرج الناس لرؤيتها، وكأنها عملاق جاء من عالم آخر، وعيد الناس في رؤية السيارات وكثرتها هي عندما يزور الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ عنيزة. وكانت إذا أقبلت السيارة التصق الناس بالجدران، ودخْلات الأبواب، ولعل لهم حقاً، فالشوارع ضيقة، والطرق متعرجة، وقليل منها النافذ ولا يدخلها إلا السيارات الصغيرة، وفي النادر.

وكان الحديث الذي يستولي على الآذان وصف الحرم، وسعته والكهرباء وما تأتي به من ضياء، ووصف الطائفين والساعين، وصحن الحرم، والمطاف، والمسعى، والشوارع المحيطة بالحرم، وما فيها من دكاكين لا تكاد تعد، مع تنوع في السلع المعروضة، وتكرر الدكاكين التي تعرض بضائع متماثلة، مما يعطي الخيار للمشتري، وضيق فرصة الاحتكار.

وكان وصف الحج مما يعطي مجالاً للحديث،

فالحج رحلة فريدة، بما فيها من المشاعر، وأماكن العبادة، وتجمع الناس بأعداد باهظة، وكثرة الجمال والشقادف التي تحمل النساء، وما يدخل في ذلك من وفود أجناس مختلفة، من بلدان متعددة، وكيف أن لكل فئة مطوفاً، يعتني بهم، ويرعى شؤونهم، فيستقبلهم، ويحج بهم، ويودعهم.

وكان الوصف المدهش وصف العمران والبيوت، فطبقات البيوت متعددة، ونمطها متكرر، لا تكاد تفرق بين الطابق الثاني والثالث، وكيف أن كل طابق فيه مجلس ومؤخر وحمام أو اثنان، للمجلس غرض، وللمؤخر هدف، وأبرز ما في العمران في مكة، مقارنة بعنيزة، استقامة البناء، فلا ترى جداراً مائلاً، ولا خارجاً عن الخط المرسوم له، ويُتقن ذلك عن طريق حبل وميزان، يقوم باستعمالهما مهندس بناء فنان، يساعده عدد من العاملين، من بينهم من يكسر الحجر، ويشذبه، ويهذبه، حتى يستقر، كما أريد له، في مكانه دون نبو، أو نفور؛ ولا أثر للطين في

البناء، فبدلاً منه تستعمل النورة، تأتي حية، فتطفأ، ثم تلحم بها الأحجار، وللعناية بالبيت فإن بناءه يأخذ سنوات، ويكلف مالاً جزيلاً، ولكنه يعمر دهراً، ولا يخونه إلا النورة التي لها زمن محدد، أما الحجر فلا زمن له، وكم من بُوَيْتٍ بني «رضماً» أي برصف الحجر دون «مُوْنة» أي دون نورة، أو لحمة تمسكه، وهذا عمره عمر الحجر، إن لم تعصف به عواصف الزمن، من هجر، أو عبث.

وأول ما لفت نظرنا في عمران البيوت هو استقامة الجدران، فلا ميل فيها، ولا انحناء، ولا تترك لتقدير العين، أو الخرص العابر، كما هو في عنيزة؛ فلقد لاحظنا في بيوت عنيزة بعد عودتنا ما أخافنا، وهو ما لم نلحظه من قبل، أن الجدران مائلة، وأن البيت في خطر السقوط، وأن الطين ربما يخون ساكنيه فجأة فيما لو جاء المطر غزيراً، وكأننا لم نعش فيها سنين قبل ذلك.

ولكن الذي جعلنا ننكر ما عرفناه، ونرفض

ما ألفناه، هو المقارنة مع بيوت مكة ـ شرفها الله ـ فلقد لفتت نظرنا إلى ما لم نكن نتنبه له، وأصبح ما كنا نعتد به، ونفاخر بضخامته في بعض بيوت أثرياء عنيزة، شيئاً بدائياً.

ومكة فيها خيل وبغال تجر عربات، بعضها لركوب النساء، وبعضها للحمل، والشوارع مستوية، تسلك فيها العجلات، دون جهد؛ أما عنيزة فالحصان الوحيد الذي أذكر أني رأيته في حياتي، ولعل ذلك كان في نهاية سني الأربعين الهجرية، وأنا في سن السادسة تقريباً حصان جميل، مهيب المنظر، أدخل في حوش جارنا: عبيدان التميمي، رجل خيّر، ورب أسرة كريمة، أبناؤه من أقرب الناس إلى قلوبنا، من هو أكبر منا «علي» ـ رحمه الله ـ ومحمد أطال الله عمره.

حتى الحمير في مكة فيها ميزة الفراهة، وجسامة الهيكل، ويُعْتَنَى بها عناية كبيرة، فهي أداة حمل متيسرة، وهي تحمل الركب إلى المدينة المنورة، كل عام، ولها سرج ثمين، وتجلل بجلال ممتاز، وتُحَنَّى،

وتزخرف، بِحَلْق بعض أجزاء جسمها، بطريقة زخرفية، جذابة، يتبارى أصحاب هذه المهنة في الإبداع فيها، ولها سوق رائجة أيام الأعياد، فمن ليس عنده حمار، وما أكثر من عندهم حمار، يستأجر حماراً، يخرج به للنزهة، أعلى مكة أو أسفلها.

ولقد سمعت، بتواتر، أن وزير المالية عبدالله السليمان الحمدان، في أول عهد الحكومة السعودية في مكة، كان يذهب من بيته إلى السقاف، في المعابدة، حيث يقيم الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ على حمار فاره، معتنى بجلاله وسرجه ومظهره، ولم يكن ذلك ملفتاً للنظر، بل قد يكون فيه بعض المباهاة، لنوعه ودِثارِه، وهو ما لا يمكن أن يتصور حدوثه اليوم!

أما عنيزة فالحمير، وما أكثرها، هزيلة الجسم، صغيرة الحجم، وليس فيها كبير إلا رأسها، الذي لا تكاد رقبتها تحمله! إلا حماراً واحداً، مشهوراً معروفاً، هو حمار الرويجحي، ولعله تسلل من مكة، أو تسلسل من أحد حميرها.

وبعد أسبوعين من مقامنا في عنيزة، أنا وأخي حمد، اشتقنا لوالدينا، بعد أن نضب معين الإثارة في حديثنا، فالسامعون ملوا التكرار، ونحن كذلك مللناه، ولعل بعض ما نقول مما يدهش، لم يكن لغرابته يؤخذ مأخذ الجد، وإن كان القوم، خاصة من هم أكبر سناً، لا يجابهون بشكهم، لكنا كنا نشعر بذلك من تعليقهم، وهذا يأتي بصفة صرف للحديث عن مجراه، أو التعليق عليه بتهكم، كأن يقال: إذاً بيوت مكة تلمس السحاب، أو من في الحرم لأنواره كيف يعرف الليل من النهار؟! وإذا كنست شوارع مكة يومياً، فأين يوضع ما يكنس، لابد أن أكوامه تضاهي جبال مكة! وهكذا.

لم نخف عن جدنا وعمنا، بعد أسبوعين من الإقامة، رغبتنا في العودة، خاصة وأن هناك سيارة كبيرة «لوري» قد وصلت إلى عنيزة، ويخشى ألا تأتي أخرى إلا بعد شهر، فأخذ عمنا يتمسك بنا، ويظهر أنهم لم «يشبعوا» من رؤيتنا، وأن لكل واحد في البيت

حقّاً علينا، ولم نكن نستطيع أن نقابل حججه بمثلها، وجاء الإنقاذ من جدنا، إذ قال كلمته المضيئة، التي أشرت إليها، فلقد قال: «إكرام الناس هواها»، فكان لإضاءة هذه الكلمة أثرها، إذ سكت عمنا، واعتبرنا أن الأمر قد حسم، وأن رحيلنا قد ووفق عليه، وبدأنا نستعد للسفر، ورنين هذه الكلمة، موسيقى في آذاننا، والكلمة مختصرة، مؤدية لمعنى عريض عميق، فهي مَثَلٌ وحِكْمة؛ وطالما سمعناها، وتمثلنا بها.

هذه بعض الكلمات المضيئة، اخترناها في مجالات مختلفة، من كثير مما في التراث، من هذه الدرر الثمينة، والجواهر الغالية، ومن أراد المزيد فسيجد بغيته في كتب التراث، وحينئذ سوف يختار المائدة التي يريد هو، لا ما اخترناه نحن مما طاب لنا.

* * *

الفهــارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٤١٥

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٤١٦

(٣) فهرس الأسماء ٤١٧

(٤) فهرس الأماكن ٤٢٢

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٢٣

(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤٢٧

❊❊❊

(١)

فهرس المواضيع
حسب ورودها

* المقـــدمـة ٥
* العزاء وشعبه ١٦
* العادات والحضارة ٤٨
* التهنئة وإطارها ٨١
* لمحة عن القضاء ١١٥
* طـلب الخـــير ١٧٨
* من مظاهر الحضارة الإسلامية ٢٤٨
* الفكـــر ونضجـــه ٣٢٦
* نـور الأقـــوال ٣٧٢

***

(٢)

فهرس المواضيع
حسب حروف الهجاء

* المقـــدمـة ٥

* التهنئة وإطـارهـا ٨١

* طــلب الخـــيـر ١٧٨

* العادات والحضارة ٤٨

* العـــزاء وشـــعبه ١٦

* الفكـــر ونضجـــــه ٣٢٦

* لمحــة عــن القضـــاء ١١٥

* من مظاهر الحضارة الإسلامية ٢٤٨

* نــور الأقـــوال ٣٧٢

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبراهيم بن سيابة: ٢١٢، ٢١٣

إبراهيم بن محمد البيهقي: ٢٥٣

إبراهيم بن يحيى الأسلمي: ٢٦

أبرويز: ٢٠٨، ٢٣٨

إبليس: ٢٦٩

أحمد بن إسرائيل: ٢٥٩

أبو أحمد اليمامي: ٢٨٨

الأحوص بن محمد الأنصاري: ٧٦

الأخفش: ١٩٩

ابنه أرسطاطاليس: ٣٠٨

أسد بن عبدالله: ١٥٧، ١٥٨

إسماعيل بن محمد بن راشد بن سعيد: ٧٠

الأصمعي: ٤٣، ٤٤، ١٥٦، ١٩٨، ٣٧٨

الأعمش: ١٧٣

الأمويون: ١٠٠

الأنصار: ٤٠٤

إياس بن معاوية: ١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، ١٧٦، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦٦، ٣٦٧

أيوب: ١٢٨

النبي أيوب: ٤٠٣

(ب)

بانوقة ابنة المهدي: ٣٠

بختيشوع بن جبريل: ٣٨٢، ٣٩١

البرامكة: ٣٥٨

البرقعي: ٢٩٧

ابن بسام: ٢٥٨

أبو نصر بشر بن الحارث: ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤

أبو بكر: ٣٢، ١٩٠، ٢٣٠، ٢٥٣

أبو بكر بن عمر: ١٣٠، ٣٦٨

(ت)

أبو تمام: ٣١٥، ٣١٦، ٣٤٣

قبيلة تميم: ٩٣، ٣٢٩

تميم بن سلمة: ١٧٣

أبو حيان التوحيدي: ٢٢٨

(ث)

الثعالبي: ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٠، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣

بنو ثعل: ٣٥٢

ثوبان: ١٤١

(ج)

الجاحظ: ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٢٠

ابن جريج: ٢٥

أبو الفتح ابن جني: ٢٦١

(ح)

حاتم: ٣٥٢
الحارث بن سباع الخراساني: ٨٩
حارثة بن الغداني: ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١
الحارث بن كلدة: ٣٩٢
أبو حامد: ١٦٦
الحجاج: ١٠١، ١٠٢، ٣٣٩، ٣٥٤، ٣٥٥
الحرقة: ٢٠٧
حريش بن أبي الحريش: ١٣٢
الحسن البصري: ١٦٤، ٢٦١، ٢٧٠، ٣٦٥
حفص بن غياث: ١٣٤، ١٣٥
حماد بن كثير الأسدي: ١٣٣
حميد بن الربيع: ١٣٤، ١٦٤

(خ)

خالد بن الوليد: ٢٠٧، ٢٠٩

(د)

بنو دارم: ٣٥٧
النبي داود: ١٦٥
درويش: ١٨٣
أبو دلف: ٣٩

(ذ)

ابن أبي ذئب: ١٦٨

(ر)

رابعة بنت إسماعيل القيسية: ٢٢٦، ٢٢٧
رجاء بن حيوة: ١٢٩، ٣٩٣، ٣٩٤
رزام بن حبيب: ٢٠٦، ٢٠٧
الرسول ﷺ: ٢٣، ٢٤، ٦٠، ٦٥، ٦٨، ٨٥، ٩١، ٩٢، ٩٩، ١٢١، ١٢٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٥، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٥٣، ٢٦٦، ٢٦٧، ٣١٥، ٣١٩، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٧٩، ٤٠٠
الرّضى أبو الحسن الموسوي النقيب: ٣٨٨
ابن الرقاع: ٩٧
ابن الرومي: ١٩، ٢٠، ٢٧٠
الرويجحي: ٤١١

(ز)

زبيد اليامي: ٢٣١، ٢٣٢
النبي زكريا: ٢٣٩
زياد بن أبي سفيان: ٢٦١، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٦١
زياد بن عبيدالله الحارثي: ١٣٠، ٣٦٨، ٣٦٩
ابن الزيات: ٣٥٨
زيد: ١٨٦

(س)

بنو ساسان: ٣٧٦
ابن سراج: ١٦٢
السري السقطي: ١٨٠، ١٨١، ١٨٩، ٢٤٢، ٢٤٣
سعد بن أبي وقاص: ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨
سعيد بن عبدالعزيز: ٢٨٤
سعيد بن مرة: ٣٥١
أبو العباس السفاح: ١٠٠

سفيان الثوري: ١٦٢، ٢٨٠
سلم بن زياد: ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦
أبو سلمة بن عبدالرحمن: ٦٤٢
أم سلمة: ١٣٦، ١٨٩
سليمان بن أبي جعفر: ٣٣
سليمان بن داود: ١٦٥، ٤٠٣
ابن السماك: ٣٦، ٢٥٧
سهل بن هارون: ٢٧
سهيل بن عبدالعزيز بن مروان: ٣٥
سوار: ١٥٦، ٤٠٥
السيد بن أنس الأزدي: ٣٥٣
سيف الدولة علي بن عبدالله بن حمدان: ٣٩٨

(ش)

ابن شبرمة: ١٦١، ١٦٢
شبيب بن شيبة: ٣٠، ٢٠٥
شريح: ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥
الشعبي: ١٦١، ١٦٢، ٢٣٣، ٤٠٢

(ص)

صالح بن عبدالقدوس: ٢٨٧
صالح المري: ٣٠
صعصعة: ٣٦٥

(ض)

بنو ضبة: ١٢٥

(ط)

طاووس بن كيسان: ٢٣٠
طلحة الخزاعي: ٣٣٤، ٣٣٥
طي: ٢١٨، ٣٥٢
أبو الطيب الطاهري: ٣٧٦

(ع)

عائشة بنت أبي بكر: ٣٤٩
عائشة بنت عثمان بن عفان: ٣٢٢
العباس بن عبدالمطلب: ٣٥١، ٣٥٢
العباسيون: ١٠٠
الملك عبدالعزيز: ١٨٥
عبدالله بن إدريس: ١٣٤
عبدالله بن جعفر: ٢٢٠
عبدالله بن حسن: ٤٠٢، ٤٠٣
عبدالله بن الزبير: ١١٣
عبدالله السليمان الحمدان: ٤١١
عبدالله بن طاهر: ٣١، ٣٧، ٣٨
عبدالله بن عباس: ٧٠، ١١٣
عبدالله بن عتبة: ١٢٧
عبدالله بن عمر: ٢٢٧، ٢٢٨
عبدالله بن وهب: ١٢٩
عبدالله بن مسعود: ١٢٥
عبدالله بن المعتز: ٢٦٠، ٢٧٦، ٢٨٤، ٢٨٥
عبدالملك بن مروان: ٨٨، ١٤٦، ٢٣٣، ٣٩٣
عبدالوهاب الثقفي: ٢٥
عبيدان التميمي: ٤١٠
عبيد بن جناد الحلبي الكلابي: ١٧٠
عبيدالله بن الساري: ١٦٩
عبيدالله بن عمر: ١٣٠، ٣٦٨، ٣٦٩
عبيدالله بن الوليد الدمشقي: ١٣١
أبو العتاهية: ٢٨٠، ٢٨١

عثمان بن عفان: ٢٥٣، ٣٣٣
عدي بن زيد: ٢٠٨
عروة بن سليمان العبيدي: ٢٩٣
عطاء بن أبي صيفي: ١٠٠
عكرمة: ٧٠، ٧١
علي بن أبي طالب: ١٤٥، ١٤٨
علي بن عبدالحميد الغضائري: ١٨٠، ١٨٩
علي بن عيسى بن ماهان: ٢٣٦
عمران بن حصين: ١٦٥
عمر بن الخطاب: ٣٢، ١٢٥، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٩٠، ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٣٠، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٦١، ٢٧٩، ٣٩٧
عمر بن أبي ربيعة: ٧٨
عمر بن أبي سلمة: ١٨٩، ١٩٠
عمر بن عبدالعزيز: ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٤٥، ٤٦، ٢٩٩، ٢٤٤
أبو عمر القاضي: ١٦٦، ١٦٧
عمر بن عبيد: ٢٠٥
عمر بن مهران: ١٩١
عمر بن هبيرة: ١٣١، ٣٧٠
عمير بن سعد: ٢٧٩
أبو العيناء: ٣٨٠
ابن عيينة: ٨٥

(ف)

الفرزدق: ٣٦٥، ٣٧٠
الفضل بن الربيع: ١٩٧
الفضل بن سهل: ٩٠، ٢٣٨
الفضيل بن عياض: ١٣٢

(ق)

القاسم بن الوليد الهمداني: ١٣٣
قتيبة بن مسلم: ٢٠١
ابن القرّية: ٨٨، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣
أبو قلابة: ١٢٨

(ك)

كسرى: ٤٠٢
كعب: ١٢٥
الكميت: ٣٤٠

(ل)

ابن اللتيبة: ١٤٤
لبيد: ٢١، ٢٢، ٢٣

(م)

ابن أبي مالك: ١٣١
المأمون: ٨٩، ٩٠، ١٦٧، ٢٢٩، ٣٨٢
المتنبي: ٣٠٢
مجاهد: ٩١
محمد الأمين: ٤٢
محمد بن الحنفية: ١١٣، ١١٤
محمد بن أبي حمزة العقيلي: ٣٠٤
أبو محمد بن الساري: ٦٣
محمد بن سيرين: ١٢٧
محمد بن صبيح: ٢٤٥
محمد بن علي بن الحسين: ٤٦
محمد بن القاسم: ١٦١
محمد بن واسع: ٢٠٠، ٢٠١
محمود الوراق: ٢٨٢
مخلد بن يزيد بن المهلب: ٣٤٠

المدائني: ٣٣٤
معاوية بن أبي سفيان: ٢٨، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ١٥٢، ٢١١، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٦٠، ٣٦١
معاوية بن قرة: ١٦٥
معروف الكرخي: ٢٠١
المعلى بن رؤبة: ١٢٩
المغيرة بن محمد بن عبدالعزيز: ١٥٤
ابن مقلة: ٣٨٠
عبدالله بن مسعود: ١٢٥
مسلمة بن عبدالملك: ٣٣٧، ٣٥٧
مسلم بن يسار: ٢٤٠
أبو جعفر المنصور: ١٥٦، ١٦١، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٥
المهدي: ٢٦، ٣٥٢
المهلب بن أبي صفرة: ٣٥٤، ٣٥٥
أبو موسى الأشعري: ١٥٠، ١٥٢
موسى بن سعيد بن سالم: ١٣٥
موسى بن المهدي: ٣٣، ٣٤

(ن)

نصر: ٣٧٦، ٣٧٧
نصيب: ٣٣٦، ٣٣٧
النضر بن شميل: ١٧٢
النعمان بن ماء السماء (الأصغر): ٢٠٨
أبو نواس: ٤٢، ٢٥٨
نوح بن الدراج: ١٦٢

(هـ)

الهادي: ٣٩٦
هارون الرشيد: ٣٦، ١٣٤، ١٨٩، ٣٩٠، ٣٩١
الهاشميون: ١١٣
أبو هريرة: ٦٠، ٦٨
هند بنت أسماء: ١٠١
هند: ٣٠٤
هند بنت عتبة: ١١٨

(و)

وكيع: ١٣٤

(ي)

يحيى بن سعيد: ١٦١
يزيد بن أبي مسلم: ٣٣٩
يزيد بن معاوية: ١٠٠
يزيد بن معمر السلمي: ٢٨
يزيد بن المهلب: ٣٥٧، ٣٥٨
يوسف بن عمر: ١٣٣
يوسف عليه السلام: ٤٠٣

❋ ❋ ❋

(٤) فهرس الأماكن

(أ)

إيران: ١٨٢

(ب)

باكستان: ١٨٢
البصرة: ١٦٧، ٤٠٥
بلـخ: ٢٣٦، ٢٣٧
الحـرم: ٤٠٧
صحن الحرم: ٤٠٧
حلب: ١٨٠، ١٨١
حمص: ٢٧٩

(خ)

الخـورنـق: ٢٠٧

(د)

دهـلي: ١٨٦

(س)

نفود السر: ١٨٣
حي السقاف: ٤١١

(ش)

الشـام: ١٢٨، ١٣٢، ١٨٣

(ط)

الطائف: ١١٣

(ع)

العراق: ٣٣، ٢٨٢
عنيزة: ٧٠، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢

(ق)

القصيم: ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤

(ك)

كلكتا: ١٨٦
الكوفة: ١٧٥، ٣٤٣
الكويت: ١٨٢

(م)

المدينة: ١٨٢، ١٨٦، ٣١٢
مـرو: ١٧٢
المطاف: ٤٠٧
المغرب: ١٨٩
مكـة: ١٠٠، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٢، ٤٠٦، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢

(ن)

نجد: ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧

(هـ)

الهند: ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩

(ي)

اليمن: ١٤٧، ١٤٩، ٢٤٤

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - **أخبار القضاة**

لوكيع محمد بن خلف بن حيان

عالم الكتب - بيروت

٢ - **الإشـــراف**

لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا

تحقيق: الدكتور نجم عبدالرحمن خلف

مكتبة الرشد - الرياض - الطبعة الأولى: ١٤١١هـ / ١٩٩٠م

٣ - **الإمتـاع والمؤانسـة**

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان

٤ - **البصائر والذخائر**

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق: الدكتورة وداد القاضي

دار صادر - بيروت

٥ - **بهجة المجالس، وشحذ الذهن والهاجس**

لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالله القرطبي

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية - بيروت

٦ - **البيـان والتبيين**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

الطبعة الأولى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٧ - **تاريخ بغداد ومعه المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**

لأبي بكر أحمد علي الخطيب

دار الكتب العلمية ـ بيروت

٨ - **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**

لعبد القادر بن محمد بن عبدالقادر الأنصاري الجزيري

أعده للنشر: الشيخ حمد الجاسر

منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض

الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

٩ - **الديارات**

لأبي الفرج الأصبهاني

تحقيق: جليل العطية

نشر: رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن: ١٩٩١ - الطبعة الأولى

١٠- **ذيل تاريخ بغداد والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد**

للحافظ محب الدين أبي عبدالله محمد بن محمود المعروف بابن النجار

دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

١١- **ربيع الأبرار ، ونصوص الأخيار**

للإمام محمد بن عمر الزمخشري

تحقيق: الدكتور سليم البعيمي

١٢- **سـراج المـلوك**

لمحمد بن الوليد الطرطوشي

تحقيق: جعفر البيـاتـي

نشر: رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن: ١٩٩٠م

١٣- **عيـون الأخبـار**

لأبي محمد عبدالله مسلم بن قتيبة الدينوري

دار الكتب العلمية ـ بيروت

١٤- **الكشـــــكول**
لبهاء الدين العاملي
دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٥- **لبـــاب الآداب**
للأمير أسامة بن منقذ
تحقيق: أحمد محمد شاكر
دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/١٩٩١م

١٦- **اللطائف والظرائف**
لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
دار المناهل، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

١٧- **لطائف اللطف**
لأبي منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق: الدكتور عمر الأسعد
دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

١٨- **المحاسن والمساوئ**
لإبراهيم بن محمد البيهقي
دار صابر ـ بيروت : ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م

١٩- **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**
للراغب الأصبهاني
اختصار: إبراهيم زيدان
دار الآثار ـ بيروت

٢٠- **المجتـــنى**
لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي
دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

٢١- المراح في المزاح
لبدر الدين أبي البركات محمد الغزي
تعليق: أحمد عبيد
الناشر: مكتبة المعارف ـ الطائف

٢٢- المصون في الأدب
لأبي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري
تحقيق: عبدالسلام هارون
الكويت: ١٩٦٠م

٢٣- المنتقى من أخبار الأصمعي
لأبي محمد عبدالله بن أحمد الربعي
انتقاء: ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي
تحقيق: محمد مطيع الحافظ
دار طلاس للدراسات ـ الطبعة الأولى: ١٩٨٧م

٢٤ - الموشى أو الظرف والظرفاء
لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء
دار صادر ـ بيروت

❊ ❊ ❊

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

إذا لم تخش عاقبة الليالي	ولم تستحي فافعل ما تشاء	٣٠٧
خضرة الصيف من بياض الشتاء	وابتسام الثرى بكاء السماء	٣١٧

(ب)

ما ساسانا مثلك يا ابن الخطاب	أبر بالأقصى وبالأصحاب	٢٣٠
يا شبابي وأين مني شبابي	آذنتني أيامه باقتضاب	١٩
قالت وقلت تحرجي وصلي	حبل امرئ بوصالكم صب	٧٦
ظلت تشجعني هند وقد علمت	أن الشجاعة مقرون بها العطب	٣٠٤
فاتتها طبّة عالمة	تخلط الجد مراراً باللعب	٧٨
غالبت كل شديدة وغلبتها	والفقر غالبني فأصبح غالبي	٢٨٨

(ج)

كادت تزل بنا من حالق قدم	لولا تداركها نوح بن دراج	١٦٣
ولما رأيتَ الأرض قد سد ظهرها	ولم يبق إلا بطنها لك مخرجا	٣٧٠

(ح)

ليس للحاجات إلا	من له وجه وقاح	٣١٤

(د)

فأعطى ثم أعطى ثم عدنا	فأعطى ثم عدت له فعادا	٣٤٠
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت	فإن تولت فبالأشرار تنقاد	٣٦٢
فقر كفقر الأنبياء وغربة	وصبابة ليس البلاء بواحد	٢٧٨
تعز أمير المؤمنين فإنه	لما قد ترى يُغْذَى الصغير ويولد	٣٣
ولقد سئمت من الحياة وطولها	وسؤال هذا الناس كيف لبيد	٢٢

(ر)

تصبر ولا تبد التضعضع للعدا	ولو قطعت في الجسم منك البواتر	٢٩١
يـا عـائـب الفقـر ألا تنـزجـر	عيـب الغنـى أكثـر لـو تعتبـر	٢٨٢
مـن حمـد الصبـر وحـالاتـه	فلسـت بـالحـامـد للصبـر	٢٩٨
ولـم أر نعمـة شملـت كـريمـا	كنعمـة عـورة سـتـرت بقبـر	٣١
إني وجدت وخير القول أصدقه	للصبـر عـاقبـة محمـودة الأثـر	٢٩٤
لـولا غـرس الشتـاء بكفـه	قاسَى المصيف هشائما لا تثمر	٣١٦
فإن كنت ترجو في العقوبة راحة	فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر	٣٩٦
وكنت عليه أحذر الموت وحده	فلم يبق لي شيء عليه أحاذر	٤٢
بلـوت النـاس سبعيـن حجـة	وجربت صرف الدهر في العسر واليسر	٢٨٧
تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما	وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر	٢٢
بنـى الله لـلأخيـار بيتـاً عمـاده	هموم وأحزان وحيطانه الضر	٢٩٢
ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى	وأن الغنى يخشى عليه من الفقر	٢٨٠
وإني لأدري أن في الصبر راحة	ولكن إنفاقي على الصبر من عمري	٢٩٨
إن للـدهـر صـرعـة فـاحـذرنهـا	لا تبيتـن قـد أمنـت الشـرورا	٢٠٨

(س)

يا أيهـا الركـب ذو التعـريس	هـل فيكـم مـن طـاردٍ للبـوس	١٩٩

(ط)

مـا للتجـار وللسخـاء وإنمـا	نبتـت لحـومهـم علـى القيـراط	٢٧٠

(ع)

وتجلـدي للشـامتيـن أريهـم	أني لريـب الدهـر لا أتـزعـزع	٢٩٢
هو الموت لا أدهى من الموت	أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع	٢١١
قمـر السمـاء وشمسهـا اجتمعـا	بـالسعـد مـا غـابـا ومـا طلعـا	٩٧

(ف)

إن الشــتاء على ســآمة وجهــه	لهـو المفيـد طـلاوة المصطـاف	٣١٦
بينا نسوس الناس والأمر أمرنا	إذا نحـن منهـم سـوقـة نتنصـف	٢٠٧

(ق)

ومـا الناس إلا هـالك وابن هـالك	وذو نسـب في الهالكـين عريق	٢٥٨

(ك)

حسـبي حيـاة الله من كـل ميـت	وحسـبي بقـاء الله من كـل هـالك	٣٦

(ل)

كـل النـداء إذا نـاديـت يخـذلني	إلا نـداي إذا نـاديـت يـا مـالـي	٢٧٣
إن يكـن مـا بـه أصبـت جليـلا	فلفقــد العــزاء فيــه أجــل	٣٠
وحــلاوة الــدنيــا لجــاهلهــا	ومــرارة الــدنيــا لمــن عقــلا	٢٦١
من كل سائلة الخرطوم طاغيه	لا يحجب السجف شرها ولا الكلل	٣٢٤
كل ابن أنثى وإن طال الزمان به	يوما على آلة حدباء محمول	١٩

(م)

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله	وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم	٢٦١
يـرى الجبنـاء أن العجـز عقـل	وتلـك خـديعـة العقـل اللئيـم	٣٠١
رب يـــوم هـــواؤه يتلظـــى	فيحــاكــي فـؤاد صــب مقيـم	٣٢٣

(ن)

على كل حال يأكل القوم زادهم	على البؤس والبلوى وفي الحدثان	٤٤
وكمـا تبلـى وجـوه فـي الثـرى	فكــذا يبلــى عليهــن الحــزن	٤٣
بنــيّ إنّ البــر شــيء هيــن	وجــه طليــق وكــلام ليــن	٨٥
ومـا دعـوت عليـه حيـن ألعنـه	إلا وآخــر يتلــونــي بــآميــن	٢٢٥

(هـ)

يفـر الجـبان من أبيـه وأمـه	ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه	٣٠١
وإن الذي لم يغل صيفاً دماغه	وجـدك لا تغلـي شتـاءاً قـدوره	٣١٨
ألـم تـر أن المـال يهلـك ربـه	إذا جـم آتيـه وسـد طـريقـه	٢٥٨
أفٍ لـــدنيــا وأيـــامهــا	فــإنهــا للحــزن مخلــوقــة	٢٥٨
أتيت ابن ذئب أبتغي العلم عنده	فطلـق حِبّـي البـت بتـت أنـاملـه	١٦٨
كـم مـن يـد لا يستقـل بشكـرهـا	للـه فـي ظـل المكـاره كـامنـه	٢٧
إذا قـلّ مـال المـرء قـل حيـاؤه	وضاقت عليه أرضه وسماؤه	٢٨٥
رب أطلـق يـدي فـي كـل شيـخ	ذي ريـــاء بسمتـــه وسكـــونـــه	٢٧٠
إذا رشوة حلت ببيت تولجت	لتـدخـل فيـه والأمـانـة فيـه	١٤٦
أفٍ للـــدنيـــا الـــدنيـــة	خبثـــت فعـــلًا ونيـــه	٢٥٨

* * *

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عينِّ في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عينِّ وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .
- عين في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السرّية، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الإثنا عشر وبين يديك الجزء الثالث عشر .

التوزيع

تطلب الأجزاء الثلاثة عشر من كتاب «إطلالة على التراث» والأجزاء الخمسة من كتاب «أي بني»
من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص.ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤
جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١
القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مج ١٣)